الأمويون والخلافة

الدكتور حسين عطوان

دار الجيل

الأمويون والخلافة

الأمويون والخلافة

الدكتور حسين عطوان

دار الجيل

الطبعة الأولى
١٩٨٦

« المحتويات »

« مقدمة »

يحتاجُ العَصْرُ الأُمَويُّ إلى كثيرٍ من البَحْثِ والتَّمْحِيصِ، فإنَّ الرُّوَاةَ والأخبارِيِّينَ والمُؤَرِّخينَ من أهْلِ الهَوى والعَصبيَّةِ عَبِثُوا به، فطَمسُوا مَحَاسِنَهُ، وأظْهَرُوا مَساوِئَهُ. وعَلَى ما بُذِل في دِراستِهِ من جُهْدٍ كبيرٍ، وما وُضِعَ فيه من مُؤَلَّفاتٍ ومَقالاتٍ مُتَنَوِّعَةٍ، فإنَّ بعضَ جَوانِبِهِ الفِكْرِيَّةِ والثَّقافيةِ والعِلْميَّةِ والتَّرْبويَّةِ لا تزالُ مُهْمَلةً مَنْسِيَّةً، ومُبْهمَةً مَطْوِيَّةً، كما أنَّ بعضَ جَوَانِبِهِ الاجْتماعيَّةِ والاقْتِصَاديَّةِ والسِّياسيَّةِ والأَدبيَّةِ لا تزالُ مُضْطَربةً مُلْتويةً، وغَامِضَةً خَفِيَّةً، إلَّا جَوانِبَهُ العِمْرانيَّةَ، فإنَّها نَالَتْ حَظًّا وَافِراً من الدِّراسةِ المُسْتَقْصِيَةِ الوَافِيةِ.

وقَدْ خَصَّصْتُ هذا الكتابَ للأُمويِّينَ والخِلافةِ، لِقِلَّةِ ما كُتِبَ في هذا المَوْضُوعِ، ولِمَا له من خَطَرٍ وقيمةٍ. وجَعَلْتُهُ في سِتَّةِ فُصُولٍ، أفْرَدْتُ الفَصْلينِ الأَوَّلَيْنِ منها لِنَظريةِ الأُمويِّينَ في الخِلافةِ وَوِلايةِ العَهْدِ، وأفْرَدْتُ الفُصُولَ الأَرْبعةَ البَاقيةَ لِموْقِفِ السُّفْيانيِّينَ والمَرْوانيِّينَ من خُصُومِهِم السِّياسيِّينَ.

وحَاوَلْتُ أنْ أَبْسُطَ هذهِ المَسَائِلَ بَسْطاً دَقيقاً، فَتَتَبَّعْتُ أَخْبَارَها المُخْتَلفةَ، وأشَرْتُ إلى رِوَاياتِها المُتَعدِّدةِ، وعَارَضْتُ بينَها، ونَاقَشْتُها. وأثْبَتُّ غيرَ قَليلٍ من النُّصوصِ الطَّويلةِ والقَصيرةِ المُهِمَّةِ.

ورَجَعْتُ إلى كثيرٍ من المَصادِرِ، مِثل كُتُبِ التَّاريخِ، وكُتُبِ الطَّبقاتِ

والتَّراجمِ، وكُتُبِ الأنْسَابِ، وكُتُبِ الفِرَقِ، وكتُبِ الأَدبِ، والدَّواوينِ ومَجَامِيعِ الشِّعْرِ، ورَجَعْتُ إلى طَائفةٍ من الدِّراساتِ التاريخيةِ الحديثةِ، وانْتَفَعْتُ ببعضِ المَصادرِ المَخْطُوطةِ، وأَشْهَرُها أَنْسَابُ الأَشْرافِ للبَلاذُريِّ، وتاريخُ مدينةِ دِمَشْقَ لابنِ عساكرِ.

ولأخي الكريمِ الأسْتاذِ الدكتور عبدِ العزيزِ الدُّوريِّ خَالِصَ الشُّكْرِ، وصَادِقَ التَّقْديرِ، كِفَاءَ ما أَنْفَقَ من وَقْتٍ وجُهْدٍ في قراءةِ الكتابِ، وكِفاءَ ما أَسْدَى إليَّ من عَوْنٍ ونُصْحٍ. واللهَ أَسْأَلُ أَنْ يُلْهمني الصَّوابَ في القَوْلِ والعَمَلِ.

عمان في ١٩٨٦/٢/٥

حسين عطوان

« الفَصْلُ الأَوَّلُ »

« نَظَرِيَّةُ الأُمَوِيِّينَ في الخِلافَةِ »

(١) « وِرَاثَةُ الخِلافَةِ عَنْ عُثْمَانَ »

غَلب الأُمويُّونَ على الخلافةِ، وأعْلَنُوا أنهم أهْلُها وأصحابُها، وكانَ اسْتِئْثَارُهم بها السَّببَ في مُعارضةِ زعماءِ الأحْزابِ لهم، وبَرَمِهم بهم، وثَوْرَتِهم عليهم، كما كان السَّبب في ضِيقِ الأُمويِّينَ بهم، وسُخْطهم عليهم، وعُنْفهم بالمُتمرِّدين والمُقَاتِلينَ منهم.

ومن المَعْلُوم أنَّ مُعاويةَ بنَ أبي سُفْيان اتَّخذ الطَّلبَ بِدَمِ عثمانَ وسيلةً إلى الفَوْزِ بالخلافةِ، ولم يزَلْ يَسْعَى إليها حتى أستوْلى عليها بالقُوَّةِ، وقد اعْتَرف في بَعْضِ خُطَبِه لأهلِ المدينةِ أنه لم يَصِلْ إلى الخلافة بانْتخاب الأمّةِ له، وإجْماعِها عليه، ولا بِقُبولها به، ورضاها عنه، بل قاتَلَ في سبيلها حتى غَلَبَ عليها، إذْ يَقُولُ لهم [١]: « واللهِ إني ما وَليتُها بِمحبَّةٍ عَلِمْتُها مِنكم، ولا مسرَّةٍ بولايتي، بل جالدتكم بِسَيفي هذا مُجَالَدةً ».

وكان الأُمويّون يذكرونَ أنَّ الخلافة حَقٌّ من حُقُوقِهم، وأنهم وَرِثُوها عن عثمانَ بن عَفَّانَ، لأنه نالَها بالشُّورى، ثم قتل مَظْلوماً، فَخَرجَتْ منهم، وانْتَقلَتْ إلى غيرهم، فقَاتَلُوا حتى اسْتَرَدُّوها. وأفْصَحَ الشُّعراءُ المُؤَيِّدونَ لهم عن ذلك مِراراً، إذ يَقُولُ الأخْطَلُ لِبشر بنِ مرْوان [٢]:

---

(١) العقد الفريد ٤ : ٨١.

(٢) ديوان الأخطل ص : ٣٩، وانظر ص : ١٧٤.

إنْ يَكُ للحقِّ أسْبَابٌ يُمَدُّ بها ففي أكُفِّهم الأرْسَانُ والسَّبَبُ
هُمْ سَعَوْا بابْنِ عَفَّانَ الإمامِ وهُمْ بعْدَ الشِّماسِ مَرَوْها ثُمَّتْ احْتَلبُوا

ويقولُ الفرزدقُ لعبد الملك بن مروان مُقرّراً أنَّ الخلافة جاءت الأُمويِّين من طريقِ عثمان، وأنهم أحقُّ النّاس بوراثتِه، لأنّهم أهْلُ بيته [1] :

تُرَاثَ عثمانَ كانُوا الأوْلِياءَ له سِرْبالَ مُلْكٍ عليهم غيْرَ مَسْلُوبِ

ويقولُ للوليد بن عبد الملك مُؤَكِّداً أنَّ الخلافة أتَتْهُ من جهة عُثْمَان [2] :

خلافةٌ لم تكنْ غَصْباً مشُوَرَتها أرْسى قَواعِدَها الرَّحمنُ ذُو النِّعمِ
كانتْ لعُثْمانَ لم يُظِلْمْ خِلافَتها فانْتَهكَ الناسُ منهُ أعْظَم الحُرَمِ

ويقولُ له [3] :

رأيتُ بني مَرْوان أفْلَجَ حَقَّهم مشُورةُ عثمانَ الشَّديدُ مِحَالُها [4]

ويقولُ له أيضاً [5] :

وما زِلْتُ أرْجُو آل مروان أنْ أرَى لهم دَوْلَةً والدَّهْرُ جَمٌّ دوائِرُهْ
لَدُنْ قُتِلَ المظْلُومُ أنْ يَطْلُبُوا به ومَوْلَى دمِ المَظْلُومِ منهمْ وثائِرُهْ
وما لهمُ لا يُنْصَرُونَ ومنهمُ خليلُ النبيِّ المُصْطفَى ومُهَاجِرُهْ
مُلُوكٌ لهم ميراثُ كلِّ مَشُورةٍ وبالله طاوي الأمْرِ منهم وناشِرُهْ

---

(١) ديوان الفرزدق ١ : ٢٥.

(٢) ديوان الفرزدق ٢ : ٢١٠.

(٣) ديوان الفرزدق ٢ : ٩٢.

(٤) أفلج حقهم : أظهره. والمحال : العداوة والحقد والغضب والأخذ.

(٥) ديوان الفرزدق ١ : ٢٥٠، وانظر ص : ٢٨٥.

ويقول ليزيد بن عبد الملك مردِدًا أنّ الخلافة كانت لعثمان، ثم انتقلتْ منه إلى معاوية، وتَسَلْسَلَتْ في بني أميَّةَ حتى أفْضَتْ إليه [1] :

ورثتَ ابنَ حَرْبٍ وابنَ مروانَ والذي   به نَصَرَ اللهُ النَّبــيَّ مُحَمَّـــدَا

ويقولُ لهشامِ بنِ عبد الملك مُعْلناً أنَّ الخلافةَ تَحوّلت إلى الأمويينَ بوراثتهم لعثمان [2] :

رأيتُ بني مَرْوانَ ثبَّتَ مُلْكَهــمْ   مشُورةُ حَقٍّ كانَ منها قريبُهـــا

ويقول للوليد بن يزيد بن عبدِ الملكِ مكرراً أنّ الخلافة وصلت إليهم من قِبَلِ عثمان [3] :

ورثُوا مشُورَتها لعثمـــانَ التـــي   كانتِ تُراثَ نبيِّنـــا المُتَخيَّــــر

ويقول الكُمَيْت بنُ زيدِ الأسديُّ شاعرُ الزّيْديَّة مشيراً إلى ادِّعاء الأُمويِّينَ أنهم وَرِثُوا الخلافة عن عثمان، ساخِراً منه، ومُنْكراً له [4] :

وقالــوا وَرِثْناهـــا أبانـــا وأمَّنَـــا   ومـــا وَرَّثَتْهُـــمْ ذاكَ أمٌّ ولا أبُ

(١) ديوان الفرزدق ١ : ١١٤.

(٢) ديوان الفرزدق ١ : ٦٢، وانظر ص : ١٩٢.

(٣) ديوان الفرزدق ١ : ٣٣٦.

(٤) هاشميات الكميت ص : ٤١.

(٢) « وِرَاثَةُ الخِلافةِ عن الرَّسُولِ »

وَوَرَد في بَعْضِ الأخبار أنَّ الأُمويِّينَ أَشَاعُوا في أَهْلِ الشَّامِ أَنهم اسْتَحقُّوا الخلافة بقرابتهم من الرَّسُولِ، فإنهم زَعَمُوا أنه لم يكن له أَهْلُ بيتٍ يَرِثُونَهُ غيرُهم، حَدَّث عباسُ بنُ هشامٍ الكَلْبيُّ عن أبيه قال [١] : « دخلَ على أبي العباس مشيخةٌ من أهل الشام فقالوا : والله ما عَلِمْنا أنَّ لرسولِ اللهِ ﷺ قرابة يَرِثونهُ إلا بني أميَّة حتى وِليتُم » !

وقد يكونُ الخبرُ مما وُضع على الأُمويِّين للتَّشْنيع عليهم، والتَّشْهيرِ بهم بعدَ سُقُوط دوْلتهم. وقد يكونُ مما آفْتَعِلهُ أشياخُ أهل الشامِ للتَّنصُّلِ من مُوَالاتِهم للأُمويِّين وانتصارهم لهم بسبب خَوْفهم من العَبَّاسِيِّين. ومن المحتمل أنْ يكون الأُمويُّونَ ذهَبُوا هذا المذْهب، واصْطَنَعُوا هذا الأسْلوبَ دَعماً لِحقِّهم في المُلْكِ، وتأييداً لاسْتئثارهم بالحُكْم [٢]، ونَفْياً لادّعاء الهاشميِّينَ من العَلَويِّينَ والعبَّاسيِّين للإمامة، ونَقْضاً للحجةِ التي اسْتَنَدُوا إليها في المُطالبة بالخلافة، وما أذاعُوهُ من أَنَّهم أوْلى الناس بها، لقرابتهم من الرّسول، وأنهم يتقدَّمُونَ غيرَهم في وراثَتِهِ لأنَّهم أسْبَاطُهُ وأبناءُ عُمُومته [٣].

---

(١) أنساب الأشراف ٣ : ١٥٩، ومروج الذهب ٣ : ٤٣، والبدء والتاريخ ٦ : ٧٣، وشرح نهج البلاغة ٧ : ١٥٩.

(٢) انظر تاريخ الشعر السياسي ص : ٢٤٣.

(٣) انظر كتابي الشعراء من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية ص : ٨٠، ١٧٢.

وفي شِعْرِ الشُّعراء الموالين للأُمويِّين ما يُرَجِّحُ هذا الاحْتمالَ، إذ يقولُ الفرزدقُ ليزيد بنِ عبدِ الملكِ زاعماً أنَّ الأُمويِّينَ وَرِثُوا الرسول[1]:

وَرِثْتُمْ خَليلَ اللهِ كُلَّ خِزانةٍ وكلَّ كتابٍ بالنُّبُوَّةِ قَائمِ

ويقولُ لمعاويةَ بنِ هشامِ بن عبد الملك جازماً بأنَّ الأُمَويِّين أحَقُّ بِورَاثةِ الرَّسول من غيرِهم[2]:

وَرِثُوا تُراثَ محمدٍ كانُوا به أوْلَى وكان لَهُمْ منَ الأَقْسَامِ[3]

ويقولُ لسليمانَ بن عبد الملك مُصَرِّحاً بأنَّ الأُمَويِّينَ أخَذُوا الخلافة عن العَبشميِّين والهاشميِّين[4]:

ورِثتُمْ قنَاةَ المُلْكِ غَيْرَ كَلالةٍ عن أبنِ مَنافٍ عَبْدِ شَمْسٍ وهَاشمِ

(١) ديوان الفرزدق ٢ : ٢٨٢.

(٢) ديوان الفرزدق ٢ : ٢٨٣.

(٣) الأقْسَامُ : جَمْعُ قِسْمٍ، وهو النَّصيبُ والحَظُّ.

(٤) ديوان الفرزدق ٢ : ٣٠٩.

(٣) « مَذْهَبُ الجَبْرِ في الخلافةِ »

ويَظْهرُ أنَّ الأمويِّين أحَسُّوا أنَّ ما رَوَّجُوهُ من أنَّهم اسْتَوْجَبُوا الخلافةَ بِقَرابتهم من عثمانَ لا يُشَكِّلُ لهم نظريةً مُتميِّزةً في الخِلافةِ، لأنَّ حقَّهم في الطَّلبِ بدمه لا يَجْعَلُ لهم الحقّ في وراثةِ الخلافة عنه، ولأنَّ ما رَوَّجُوهُ كان أضْعف من أنْ يُقابلَ نظرياتِ الأحزابِ الأخرى في الخلافةِ، مِثْلَ نظريّة الشُّورى عند الخوارج والقدريّة ومُرْجِئة الجَبْريَّةِ، ونَظريَّةِ وراثةِ الرَّسُولِ عند الهاشميِّين من العلويّينَ والعبّاسيِّين. ولذلك مَالُوا إلى مَذْهبِ الجَبْر في الخلافةِ [١]، وعَوَّلُوا عليه لإثْباتِ حقِّهم فيها، وتَعلَّقُوا بهِ لِتَصْحيحِ احْتِيازهم لها، فقد اسْتقرُّوا على أنَّ اللهَ اختارهم للخلافة، وآتاهم المُلْكَ، وأنهم يَحكُمون بإرادته، ويتصرّفُون بمشيئته، وأحَاطُوا خِلافتهم بهالةٍ من القداسةِ، وأسْبَغُوا على أنفسهم كثيراً من الألْقابِ الدينيةِ، إذْ كانَ معاويةُ بن أبي سفيان في نَظَرِ أنْصارِ الأمويين خليفة الله في الأرض [٢]، والأمينَ المأمون [٣]، وكان يزيدُ بنُ معاوية إمام المسلمين [٤]، وكان عبدُ الملك بنُ مروان أمين

---

(١) السيادة العربية ص : ٧١.

(٢) السيادة العربية ص : ٢٤٣.

(٣) طبقات فحول الشعراء ص : ٤٢٦، ونقائض جرير والأخطل ص : ٢.

(٤) السيادة العربية ص : ٢٤٣.

الله [1]، وإمام الإسْلام [2]، وجُنَّةَ الدِّين [3]، والخليفةَ المبارك [4]، وكان الوليدُ ابنُ عبد الملك خليفةَ الله [5]، وأمينَ الله [6]، وراعي الله في الأرض [7]، والإمامَ المُصْطفى [8]، وكان سليمانُ بن عبد الملك وَليَّ الحقّ [9]، والخليفةَ المُبَارك [10]، وكان عمرُ بن عبد العزيز خليفةَ الله [11]، والإمام المبارك [12]، والإمام العادل [13]، وكان يزيدُ بن عبد الملك خليفةَ الله [14]، وَوَليَّ عَهْدِ الله [15]، وإمامَ الهُدَى [16]، والإمام المبارك [17]، وإمامَ العَدْلِ [18] والإمام

(١) ديوان جرير ١ : ٢٩٥.

(٢) السيادة العربية ص : ٢٤٣.

(٣) السيادة العربية ص : ٢٤٣.

(٤) ديوان جرير ١ : ٢٩٥.

(٥) ديوان الأخطل ص : ١٨٥، وديوان جرير ٢ : ٦٨٢.

(٦) ديوان جرير ١ : ١٨٥، وديوان الفرزدق ٢٨٦.

(٧) ديوان الفرزدق ١ : ٢٥٠.

(٨) ديوان جرير ١ : ٧٠.

(٩) ديوان الفرزدق ٢ : ٣٠٩.

(١٠) ديوان جرير ٢ : ٧١٧.

(١١) ديوان جرير ١ : ٤١٤، ٤١٦.

(١٢) ديوان جرير ١ : ٤١٦.

(١٣) ديوان جرير ٢ : ٧٣٧.

(١٤) ديوان جرير ١ : ١٤٨.

(١٥) ديوان جرير ٢ : ٦٨٦.

(١٦) ديوان كثير ص : ٣٤١، وشعر الأحوص ص : ٦٣، وديوان الفرزدق ١ : ٣٤٦.

(١٧) شعر الأحوص ص : ٦١، وديوان جرير ١ : ١٧٥.

(١٨) ديوان جرير ١ : ١٤٧.

المَنْصُورَ [1]، وكانَ هشامُ بنُ عبد الملك خليفةَ الله [2]، وأميـنَ الله في الأرْض [3]، وَوليَّ الحقِّ [4]، وخيارَ اللهِ للناسِ [5]، والحَكَمَ المُصَفَّى [6]، وإمامَ الوَرَى [7]، وربَّ الجُنُودِ [8]، والإمامَ المباركَ [9]، وإمامَ العَدْلِ [10]؛ وكانَ الوليدُ بنُ يزيدَ بنِ عبدِ الملكِ خليفةَ الحَقِّ [11]، والخليفةَ الأَفْضَلَ [12]، وإمامَ الهُدَى [13]، والملكَ المُبَارك [14].

وأطْلَقَ عليهم أنْصَارُهم لَقَبَ المَهْدِيِّ، بِمَعْنَى إمامِ الهُدَى الذي يَهْدي إلى الرُّشْدِ والخَيْرِ، ويُقيمُ الدِّينَ، ويَكْشِفُ البَلاءَ، ويُزِيلُ الظُّلْمَ، ويملأُ

---

(١) ديوان جرير ١ : ١٤٨.

(٢) الأغاني ١١ : ٣٠٥، وتهذيب تاريخ ابن عساكر ٤ : ٣٩٢، ومعجم الأدباء ٤: ١١٧.

(٣) ديوان الفرزدق ٢ : ٩، ٣٠١، وديوان جرير ١ : ٢٩٥.

(٤) ديوان جرير ١ : ٢١٩.

(٥) ديوان الفرزدق ٢ : ٢٣٢.

(٦) ديوان جرير ١ : ٢٩٠.

(٧) الأغاني ١١ : ٣٠٧.

(٨) الأغاني ١١ : ٣٠٧.

(٩) ديوان جرير ١ : ٢٩٥.

(١٠) ديوان جرير ١ : ٢٢٤.

(١١) ديوان ابن هرمة ص : ٢١١، والأغاني ٤ : ٣٩٦، ٧ : ٩٩.

(١٢) الأغاني ٤ : ٣٢٣.

(١٣) الأغاني ٤ : ٣٢٣، وانظر ديوان الفرزدق ١ : ٧٩.

(١٤) شعر مروان بن أبي حفصة ص : ٣٣، وشرح الشواهد الكبرى ١ : ٢١٩، وشرح شواهد المغنى ١ : ١٦٤، وتاريخ الخلفاء ص : ٢٥٢، وخزانة الأدب ١ : ٣٢٨، واللسان : زَيَدَ.

الأَرْضَ عَدْلاً ورَحْمة [1]. وقد خلَعَ الفَرَزْدَقُ هذا اللَّقَبَ على عُثْمانَ بنِ عَفَّانَ، ومُعَاوِيةَ بن أبي سُفيَانَ، ويزيدَ بنِ مُعَاوية، ومَرْوَانَ بنِ الحَكَمِ، وعَبْدِ المَلكِ بنِ مَرْوَانَ، والوَليدِ بنِ عَبْدِ المَلِك، إذْ يَقُولُ للوليدِ بنِ عَبْدِ الملكِ [2]:

ومِن عَبْدِ شَمْسٍ أَنْتَ سَادِسُ سِتَّةٍ خَلائفَ كانُوا منهُم العَمُّ والأَبُ
هُدَاةً ومَهْدِيِّيـنَ عثمـانُ منهـمُ ومَرْوانُ وابنُ الأَبْطَحَيْنِ المُطَيَّبُ

وكانَ سليمانُ بنُ عبدِ الملكِ يُسَمَّى المَهْديَّ [3]، وفيهِ يقول الفرزدق [4]:

فإنَّ أمـامَكِ المَهْـديَّ يَهْـدي به الرحمـنُ مَنْ خَشيَ الضَّلالَا

ويقول [5]:

فأجـابَ دَعْوَتَنـا وأَنْقَذَنـا بِخلافـةِ المَهْـديِّ مِنْ ضُرِّ

ويقول [6]:

كَمْ كانَ مِنْ قَسٍّ يُخَبِّرنـا بخلافـةِ المَهْـديِّ أَوْ حَبْـرِ

ويقول [7]:

---

(1) انظر الفكرة المهدية بين الدعوة العباسية والعصر العباسي الأول، للدكتور عبد العزيز الدوري، مقالة في دراسات عربية وإسلامية مهداة إلى إحسان عباس، طبع الجامعة الأميركية في بيروت ١٩٨١ ص : ١٢٤، ١٢٥.

(2) ديوان الفرزدق ١ : ٨٠.

(3) رسائل الجاحظ، للسندوبي ص : ٩٧، والتنبيه والإشراف ص : ٢٩٠، وشرح نهج البلاغة ١٥ : ٢٦٣.

(4) ديوان الفرزدق ٢ : ٩٩.

(5) ديوان الفرزدق ١ : ٢٦٢.

(6) ديوان الفرزدق ١ : ٢٦٤.

(7) ديوان الفرزدق ٢ : ٧٣.

أَلَا تَشْكُرونَ اللهَ إذْ فَكَّ عَنْكُمُ أَدَاهِمَ بالمَهْديِّ صُمًّا ثِقَالُهـا [1]

ويقول [2]:

فأَصْبَحَ صُلْبُ الدِّينِ بَعْد الْتِوائِه على النَّاسِ بالمَهْديِّ قُوِّمَ مَائِلُهْ

ويقول [3]:

وأَلقَيْتَ من كَفَّيْكَ حَبْلَ جماعةٍ وطاعةَ مَهْدِيٍّ شَديدِ النَّقائمِ

ويقولُ جريرٌ [4]:

سليمانُ المُبَاركُ قَدْ عَلِمْتُمْ هو المَهْديُّ قد وَضَحَ السَّبيلُ

ويقولُ نهارُ بنَ تَوْسعة [5]:

على طاعةِ المَهْديِّ لم يَبْقَ غيرُها فَأُبْنَا وأَمْرُ المسلمينَ جَميعُ

وكان عمر بنُ عبدِ العزيز يُسمَّى المَهْديَّ أيضاً [6]، وفيه يقولُ جريرٌ [7]:

---

(١) الأداهم : جمع دهماء، وهي الفتنة السوداء المظلمة، والصم : جمع صماء، وهي المنسدة الشديدة التي لا سبيل إلى تسكينها.

(٢) ديوان الفرزدق ٢ : ٩٠.

(٣) ديوان الفرزدق ٢ : ٣١١.

(٤) ديوان جرير ٢ : ٧٧١.

(٥) نقائض جرير والفرزدق ١ : ٣٦٤.

(٦) طبقات ابن سعد ٥ : ٣٣٣، وتاريخ دمشق المخطوط ٣ : ١٢٩ ظ، وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن كثير ص : ٦٣، ١٠٥، والبداية والنهاية ٩ : ١٩٢ز ١٩٦، وتاريخ الخلفاء ص : ٢٢٨، ٢٣٥، وشذرات الذهب ١ : ١١٩.

(٧) ديوان جرير ١ : ٤١٦.

أنتَ المُباركُ والمَهديُّ سيرتُهُ تَعْصِي الهَوَى وتَقُومُ اللَّيْلَ بالسُّورِ

وكان يزيدُ بنُ عبد الملك يُلَقَّبُ بالمَهْدِيِّ، وفيه يقولُ الفرزدقُ [(١)]:

أَرَى اللهَ قد أعْطَى ابنَ عاتكة الذي لهُ الدينُ أمْسَى مُسْتقيمَ السَّوالفِ
تُقَى اللهِ والحُكْمَ الذي ليسَ مِثْلَهُ ورأفةَ مَهْديٍّ على الناسِ عاطفِ

وكان هشامُ بنُ عبدِ الملك يُلَقّبُ بِالمهديِّ، وفيه يقولُ جرير [(٢)]:

إلى المَهْديِّ نَفْزَعُ إنْ فَزِعْنَا ونَسْتَسْقِي بِغُرَّتِهِ الغَمامَا

ويقول [(٣)]:

فقلتُ لها الخليفةَ غيرَ شكٍّ هو المهْديُّ والحَكَمُ الرَّشيدُ

ويقول الفرزدقُ [(٤)]:

هو المالكُ المَهْدِيُّ والسَّابقُ الذي له أوَّلُ المَجْدِ التَّليدِ وآخِرُهْ

وجاء في قَصَصِ الأمويِّين الذي رواهُ أنْصارُهم بعدَ زوالِ دَوْلَتهم أنه كان لِخُلفائهم ألْقابٌ كألْقابِ الخلفاءِ العبَّاسيِّينَ، وقد اسْتَقْصى المَسْعوديُّ جميعَ ألْقَابِهم [(٥)]، ثم قطَعَ بِبُطْلانِها قَطْعًا، ودَفعَها دفْعاً، لأنه لم يجدْ لها أصْلاً [(٦)].

---

(١) ديوان الفرزدق ٢ : ١٧.

(٢) ديوان جرير ١ : ٢٢٥.

(٣) ديوان جرير ١ : ٢٢٨.

(٤) ديوان الفرزدق ١ : ٢٨١.

(٥) التنبيه والإشراف ص : ٢٨٩.

(٦) التنبيه والإشراف ص : ٢٩٠، ٢٩٢.

وهكذا أسبَغَ الشعراءُ الأُمويون الصفاتِ والألْقابَ الدِّينيةَ على الخلفاءِ الأُمويِّينَ، ولم يُفَرِّقُوا بين أحدٍ منهم، بل سَوَّوْا بينَهم، لأنهم كانوا يُمَثِّلون الإرادةَ الإلهيةَ عندَهم، فكانوا في نَظَرِهم على مثالٍ واحدٍ من الجلالةِ والقداسةِ، ومن اليُمْنِ والبَركةِ، ومن الخيرِ والأمانةِ، ومن الاستقامةِ والهِداية. ولذلك أضْفَوْا تلك الصفاتِ والألقابَ الدينيةَ على مَنْ عُرِف منهم بالورع والتَّقْوَى، ومن اشْتُهِر منهم بالظُّلْمِ والجَوْرِ، ومن جَهَر منهم باللَّهْوِ والبطالةِ. بل لقد بالَغُوا في الدِّفاع عمن تَطَرَّف منهم في العَسْفِ والتَّجبُّر، ومَن أسْرَف منهم في المجُون والخلاعةِ، فجعلُوهم من أهْلِ الرَّحْمةِ والعَدْلِ، وَوَصَفُوهم بالصَّلاحِ والفَضْل، وألْحَقُوهم بالأطْهارِ الأبرارِ، وسَلكُوهم في الأنقياءِ الأصْفياء، وكادوا يَرْفعُونهم إلى مَرْتبةِ الأولياءِ والأنبياء [1]!!

واعْتَنَقَ الأُمويُّونَ مَذْهَبَ الجَبْرِ في الخلافةِ منذ صَدْرِ دولتهم، وكان زيادُ بنُ أبيه أوَّلَ مَنْ بَشَّرَ بهِ منهم، فهو يقول في خُطْبته البَتْراء لأهْلِ البَصْرةِ سنةَ خمسٍ وأربعين مُعْلِناً أنَّ الله اختارَهم للخلافةِ، وأنهم يَحْكُمُونَ بقضائِه، ويَعْملُونَ بإذْنِه [2]: « أيها الناسُ، إنَّا أصبَحْنا لكم ساسةً، وعنكم ذادَةً، نَسُوسُكم بِسُلْطانِ اللهِ الذي أعْطانا، وتَذُودُ عنكم بفيءْ اللهِ الذي خَوَّلَنا، فلَنَا عليكم السَّمْعُ والطاعةُ فيما أحْبَبْنا، ولكم علينا العَدْلُ فيما ولينا، فاسْتَوْجبُوا عَدْلَنا وفَيْئنا بِمُنَاصحتِكم لنا ».

ولم يزَل الأُمَويُّونَ يَعْتَقِدُون مَذْهَبَ الجَبْرِ في الخلافةِ بعدَ ذلك،

---

(١) انظر تفصيل ذلك في كتابي الشعراء من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية ص : ٤٧ — ٥٣، وكتابي الوليد بن يزيد عرض ونقد ص : ٤٩ — ٦٠، ٣٨٣ — ٣٩٧.

(٢) البيان والتبيين ٢ : ٤٩، وتاريخ الطبري ٥ : ٢٢٠، والعقد الفريد ٤ : ١١٢، والكامل في التاريخ ٣ : ٤٤٩، وشرح نهج البلاغة ١٦ : ٢٠٢، وجمهرة خطب العرب ٢ : ٢٧٣.

ويَسْتَنِدُونَ إليه في تَقْرِيرِ حَقِّهم فيها، ويُسَوِّغونَ به اسْتِئْثارهم بها، إذ يقولُ يزيدُ بن معاوية في كتابٍ له إلى عاملِ المدينةِ بعدَ وَفاةِ أبيه مُصَرِّحاً بأَنَّ اللهَ اصْطفَى أباهُ ثم اصْطفاهُ من بَعْدِهِ لِوِلايةِ أَمْرِ المسلمين[1]: « إنَّ معاويةَ بن أبي سفيان كان عبداً مِن عبيدِ اللهِ، أكْرَمَهُ اللهُ، واسْتَخْلَفَهُ، وخَوَّلَهُ، ومكَّنَ له »...، « وقد قَلَّدنا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ ما كانَ إليه[2] ».

(٤) « شَرْحُ الوليدِ الثَّاني لِمَذْهَبِ الجَبْرِ في الخِلافةِ »

وللوليدِ بنِ يزيدَ بنِ عبدِ الملك كتابٌ طويلٌ في البَيْعةِ لِوَلَدَيْهِ بولايةِ العَهْدِ، وهو يتألَّفُ من قِسْمَيْن، أمَّا القِسْمُ الأولُ فَشَرَحَ فيه نظريّةَ الأُمَويِّينَ في الخلافةِ شَرْحاً دقيقاً[3]، وأمَّا القسمُ الثاني فوَضَّحَ فيه نظريتَهم في ولايةِ

---

(١) أنساب الأشراف ٤ : ٢ : ١٢، والإمامة والسياسة ١ : ٢٠٣.

(٢) الإمامة والسياسة ١ : ٢٠٤.

(٣) لم يخرُجْ أحدٌ من الخُلفاءِ الأُمَويِّينَ على نَظَريَّةِ الجَبْرِ في الخِلافةِ إلاَّ يزيد بنُ الوليد بن عبد الملك، فإنه دَعَا إلى أنْ تكونَ الخِلافةُ شورى بين المُسلمينَ، وألْزَمَ نَفْسَهُ العَمَلَ بهذا المبدأ بعد أن فازَ بالخِلافةِ، ثم قصَّرَ عن تطبيقِه، لأنَّ الأَوْضاعَ السِّياسيَّةَ في أيَّامه كانت مُضْطربةً اضْطراباً شديداً. ولكن دَعْوَتَهُ إلى العَمَلِ به أضْعَفَت نظريَّةَ الأمويِّينَ في الخلافةِ، وأوجَدَتِ السُّبُلَ إلى الطَّعنِ عليها.

(انظر تفصيل ذلك في الفصل السادس، القسم الثاني الخاص بإخفاق يزيد الثالث في تطبيق مبدأ الشورى).

وعلى أنَّ مروان بن محمد أخذ الخِلافة بالسَّيف، فإنَّهُ حاوَلَ أنْ يُضْفِيَ على خِلافَتِهِ شيئاً من الشَّرعيَّة، فَوَضَعَ أنصارُهُ على لِسان الحكم بن الوليد بن يزيد بن عبد الملك قَصيدةً ذَكَروا فيها أنَّهُ عَهِدَ إلى مَرْوانَ بالخلافة، إذ جاء في آخرها :

فإنْ أهلكْ أنا وَوَليُّ عَهْدي ... فَمَروانٌ أميرُ المُؤمِنينا

(انظر أنساب الأشراف المخطوط ٢ : ٣٥٨، وتاريخ الطبيري ٧ : ٣١١، وتهذيب تاريخ ابن عساكر ٤ : ٤١٤، والكامل في التاريخ ٥ : ٣٢٣).

ولذلك كان مَرْوانُ يقول في أثناء سَعْيِهِ للخلافة : « أنا أطْلُبُ الخِلافَةَ عن بَيْعَةٍ ». (انظر أنساب الأشراف المخطوط ٢ : ٣٥٨). فلما غَلَبَ على الخلافة بالقُوَّة أخَذَ البَيْعَةَ لِنَفْسه من بني أُميَّة. (انظر تاريخ الطبري ٧ : ٣١٢، والكامل في التاريخ ٥ : ٣٢٣، وراجع كتابي الوليد بن يزيد عرض ونقد ص : ٩١ ـــ ٩٢).

العَهْدِ تَوْضيحاً شديداً،[1]

وقد تَحَدَّثَ في صَدْرِ القسْمِ الأَوَّلِ منهُ عن الإسْلامِ والرُّسُلِ، وانْتِهاءِ النُّبوةِ إلى محمدٍ ﷺ، ثم عَرَضَ نَظَرِيَّةَ الأُمَوِيِّينَ في الخِلافةِ عَلى هَذَا النَّحْوِ[2]: « ثُمَّ اسْتَخْلَفَ [اللهُ] خُلَفاءَهُ على مِنْهَاجِ نُبُوَّتِهِ، حينَ قَبَضَ نَبِيَّهُ ﷺ، وخَتَمَ بهِ وَحْيَهُ لإنْفاذِ حُكْمِهِ، وإقامةِ سُنَّتِهِ وحدودِهِ، والأَخْذِ بفرائضِهِ وحُقُوقِهِ، تأييداً بهم للإسْلامِ، وتشْييداً بهم لِعُراهُ، وتَقويةً بهم لِقُوى حَبْلِهِ، ودَفْعاً بهم عن حَرِيمِهِ، وعَدْلاً بهم بين عِبادِهِ، وإصْلاحاً بهم لبلادِهِ، فإنَّه تبارَكَ وتَعالَى يقول: « ولولا دَفْعُ اللهِ النَاسَ بعضَهم ببَعْض لَفَسَدَتِ الأرضُ، ولكنَّ اللهَ ذُو فَضْلٍ على العَالَمِين » (البقرة : ٢٥١)، فتتابَعَ خلفاءُ اللهِ على ما أَوْرَثَهُمُ اللهُ من أمْرِ أنبيائه، واسْتَخْلفهم عليه منه، لا يَتَعَرَّضُ لحقِّهم أحدٌ إلَّا صَرَعَهُ اللهُ، ولا يُفارِقُ جماعَتِهم أحدٌ إلَّا أهلكَهُ اللهُ، ولا يَسْتَخِفُّ بولايتهم، ويتَّهِمُ قضاءَ اللهِ فيهم أحدٌ إلَّا أمكنَهُمُ اللهُ منه، وسلَّطهم عليه، وجعلهُ نكالاً ومَوْعظةً لِغَيْرِه، وكذلك صنع اللهُ بِمنْ فارق الطاعة التي أَمَر بِلُزومِها، والأَخْذِ بها، والأَثَرَةِ لها، والتي قامتِ السمواتُ والأرضُ بها، قال اللهُ تباركَ وتعالَى: « ثُمَّ اسْتَوَى إلى السَّماءِ وهي دُخانٌ فقالَ لها وللأَرْض ائْتيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتا أَتَيْنا طَائِعينَ »، (فصلت : ١١)، وقال عَزَّ ذِكْرُه: « وإذْ قالَ رَبُّك لِلْملائكةِ إنِّي جاعِلٌ في الأَرْضِ خَليفةً قالُوا أَتَجْعَلُ فيها مَنْ يُفْسدُ فيها وَيَسْفِكُ الدِّماءَ ونحنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ ونُقَدِّسُ لكَ قالَ إنِّي أَعْلَمُ ما لا تَعْلَمُون »، (البقرة : ٣٠).

فَبالخِلافةِ أَبْقَى اللهُ مَنْ أَبْقى في الأَرْضِ مِنْ عبادِهِ، وإليها صَيَّرهُ، وبِطاعةِ

(١) سيرد الحديث عنه في الفصل الثاني القسم الرابع الخاص بشرح الوليد الثاني لنظرية الأمويين في ولاية العهد.

(٢) تاريخ الطبري ٧ : ٢١٩.

مَنْ وَلَّاهُ إيَّاها سَعِد مَنْ أُلْهِمها ونَصَرَها، فإنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ عَلِمَ أنْ لا قِوامَ لشيءٍ، ولا صلاحَ له إلَّا بالطاعةِ التي يحفظُ اللهُ بها حَقَّهُ، ويُمْضِي بها أمْرَهُ، ويُنْكِلُ (١) بها عن مَعَاصِيهِ، ويوقِفُ عن مَحَارِمِهِ، ويَذُبُّ عن حُرُماتِه، فمنْ أخَذَ بِحظِّه منها كانَ للهِ وَلِيًّا، ولأمْرِهِ مُطيعاً، ولِرُشْدِهِ مُصيباً، وبعاجل الخَيْرِ وآجِلِه مَخْصوصاً، ومنْ تركها، ورغب عنها، وحادّ الله فيها، أضَاع نَصِيبَهُ. وعَصَى رَبَّهُ، وخسِر دُنْياهُ وآخِرَتَهُ، وكان ممن غَلَبَتْ عليه الشِّقْوةُ، واسْتَحْوذَتْ عليه الأُمُورُ الغاوِيةُ التي تُورِدُ أهْلَها أفْظعَ المشارِعِ (٢)، وتَقُودُهم إلى شرِّ المَصَارِعِ، فيما يُحلُّ اللهُ بهم في الدُّنيا من الذِّلةِ والنِّقْمة، ويُصَيِّرُهُمْ فيما عِنْدَهم من العذابِ والحَسْرةِ.

والطَّاعةُ رأسُ هذا الأمْرِ وذِرْوَتُهُ وسَنامُهُ ومِلاكُهُ وزِمامُهُ، وعِصْمَتُهُ وقِوامُهُ بعدَ كلمةِ الإخْلاصِ التي مَيَّزَ اللهُ بها بين العبادِ، وبالطَّاعةِ نال المُفْلِحُون مِنَ اللهِ مَنازِلَهم، واسْتَوْجَبُوا عليه ثَوَابَهم. وفي المَعْصِيةِ مِمَّا يحلُّ بغيرِهِمْ من نَقَمَاتِهِ، ويُصيبُهم عليه، ويحقُّ من سُخطِهِ وعَذابِه، وبِتَرْكِ الطاعةِ، والإضاعةِ لها، والخروجِ منها، والإدْبارِ عنها، والتَّبدُّلِ بها، أهْلَكَ اللهُ مَنْ ضَلَّ وعَتَا، وعَمِيَ وغَلَا، وفارقَ مَناهِجَ البِرِّ والتَّقْوَى.

فَالْزَمُوا طاعةَ اللهِ فيما عَراكُمْ ونَالكم، وألَمَّ بكم من الأُمُورِ، ونَاصِحُوها واسْتَوْثِقُوا عليها، وسَارِعُوا إليها وخَالِصُوها، وابْتَغُوا القُرْبةَ إلى اللهِ بها، فإنَّكم قد رأيتُمْ مواقعَ اللهِ لأهْلِها في إعْلائه إياهم، وإفْلاجِه حُجَّتَهم، ودَفْعِه باطِلَ مَنْ حَادّهُمْ وناوَأهُمْ وسامَاهُمْ، وأرادَ إطفاءَ نُورِ اللهِ الذي معهم، وخُبِّرتم مع ذلك ما يُصِيرُ إليهِ أهْلُ المَعْصيةِ من التَّوْبيخِ لهم والتَّقْصيرِ بهم،

(١) أنكل : دفع.

(٢) المشارع : جمع مشرعة، وهي مورد الشاربة.

حتى يؤولَ أمرُهُم إلى تَبارٍ وصغارٍ، وذِلَّةٍ وبوارٍ، وفي ذلك لمن كان له رأيٌ وموعظةٌ عِبْرةٌ يُنْتَفَعُ بواضِحِها، ويُتَمَسَّكُ بِحُظُوتها، ويُعْرفُ خِيرةُ قضاءِ اللهِ لأهْلِها ».

فهو يَصْدُرُ عن مَذْهَبِ الجَبْرِ في الخلافةِ، وما تَشَبَّثَ به الأُمويُّونَ من أنَّ اللهَ وَلَّاهم أمْرَ المسلمينَ، ويتأثَّر ما أضفوه على شخصيَّاتهم من جَلالةٍ وقداسةٍ، وما زَعمُوهُ من أنهم أوْصياءُ الله على العبادِ، وأولياؤه في البلادِ. فهو يَرَى أنَّ الله اختارَ الخلفاءَ بعدَ وفاة الرسولِ صيانةً للإسلام، وحمايةً للمسلمينَ، وهَداهُمْ وسَدَّدهم بتوفيقِه، وأعَانَهم وأيَّدهم بِنَصْرِه، وأمَر المسلمين بالانقيادِ لهم، وحَذَّرهم الخروجَ عليهم، فلم يثبْ عليهم واثبٌ، ولم يُعَانِدْهم معاندٌ إلَّا أرْدَاهُ الله وصرَعهُ، لأنَّ الخلافةَ قاعدةٌ من قواعدِ الإسْلام ِ، ومَنْ أطاعَ الخلفاءَ أطاع الله واسْتَحَقَّ ثَوابَهُ، ومَنْ عَصَاهم عَصَى اللهَ واسْتَوْجَبَ عِقَابَهُ.

(٥) « مَذْهَبُ الجَبْرِ في الخِلافةِ في الشِّعْرِ الأُمَويِّ »

وتَمثَّلَ الشُّعراءُ المُوَالونَ للأُمويِّينَ نَظريَّتَهم في الخلافةِ، واتَّخَذُوها أَساساً لِتَصْويب حَقِّهم في المُلْكِ، والاحتجاج له والدِّفاع عنه. والشَّواهدُ على ذلك كثيرةٌ، وبعضُها يُكرِّرُ بَعْضاً، فهم دائماً يُبْدِئونَ ويُعِيدون في مَعْنىً واحدٍ، وهو أنَّ اللهَ قَلَّدَ الأُمَويِّينَ الخِلافةَ، وأنَّهم ظِلُّ الله في الأرْضِ، وسُلْطانُهُ على الناسِ، فمنها قول عبدِ اللهِ بنِ همامٍ السَّلُوليِّ ليزيدَ بنِ معاويةَ مُقَرراً أنَّ اللهَ اختارَهُ لولايةِ أمْرِ المسلمين(١) :

---

(١) أنساب الأشراف ٤ : ٢ : ٥، وانظر البيان والتبيين ٢ : ١٠٩، والشعر والشعراء ٢ : ٦٥٢، والكامل، للمبرد ٤ : ١١٢، وخزانة الأدب ٣ : ٦٣٩.

اصْبِرْ يَزِيدُ فقد فَارَقْتَ ذا ثِقةٍ واشْكُرْ عَطَاءَ الذي بالمُلْكِ أصْفَاكا

وقولَهُ له أيضاً [1]:

خِلافةَ رَبِّكُمْ حَامُوا عليها إذا غُمِزَتْ خَنَابِسَةً أُسُودَا [2]

ومنها قولُ الأخطلِ لعبدِ الملك بنِ مروان هاتفاً بأنَّ الله ساقَ إليه الخلافةَ، لأنه أجْدَرُ بها، وأقْدَرُ عليها [3]:

وقدْ جَعَلَ اللهُ الخلافةَ فيكُمُ بأبيضَ لا عاري الخِوان ولا جَذْبِ [4]
ولكنْ رآهُ اللهُ موْضِعَ حَقِّها على رَغْمِ أعْداءٍ وصَدّادةٍ كُذْبِ [5]

وقولُهُ لبشْر بن مروانَ مُرَدّداً أنَّ الله خَوَّلَ الأمويِّينَ الخلافةَ، لأنهم أوْلَى بها، وأصْلَحُ لها [6]:

أعْطاكُمُ اللهُ ما أنتمْ أحقُّ بهِ إذا المُلوكُ علَى أمْثالِهِ اقْتَرَعُوا

وقَوْلُ جريرٍ لعبدِ المَلكِ مؤكداً أنَّ اللهَ حَبَاهُ الخلافة، لأنه أحقُّ بها، وأقْوَى عليها [7]:

---

(١) طبقات فحول الشعراء ص : ٦٢٧، ونقائض جرير الأخطل ص : ٢.

(٢) غُمِزَتْ : يريد إذا استَضْعَفَها مجترىء فطمع في أن ينال منها. والخَنابِسَة : جمع خُنَابسة، وهو الجريء الشديد الثابت.

(٣) ديوان الأخطل ص : ٢١، ٢٤.

(٤) الخوان : ما يواضَعُ عليه الطعام عند الأكل.

(٥) الصَّدادة : المُعْرِضون.

(٦) ديوان الأخطل ص : ٧٣.

(٧) ديوان جرير ١ : ٩٥.

اللهُ طَوَّقكَ الخلافـةَ والهُـدَى واللهُ ليسَ لِمَـا قَضَى تَبْديـلُ
وَلّـى الخلافـةَ والكَرَامـة أهْلَهـا فالمُلْكُ أفْيَـحُ والعَطـاءُ جزيـلُ (١)

وقولُهُ له مُرَجِّعاً أنَّ اللهَ خَصَّهُ بالخلافة، لِصِدْقِه وقَصْدِه ويُمْنِه وشدةِ بأسِهِ، وَقَدَّمَهُ على مَنْ نازعهُ فيها من أهْلِ الضَّلالةِ، ومكَّنَ له، وَوفَّقَ أنصاره (٢) :

أنتَ الأمينُ أمينُ اللهِ لا سرِفٌ فيما وَلِيتَ ولا هَيَّابةٌ وَرَعُ (٣)
أنتَ المُبارِكُ يَهْدي اللهُ شيعتَهُ إذا تَفَـرَّقتِ الأهْـواءُ والشِّيَـعُ
يا آلَ مَرْوانَ إنَّ الله فَضَّلَكُـمْ فَضْلاً عظيماً على مَنْ دِينُهُ البِدَعُ

وقولُهُ له أو لِغَيْرِهِ مِنَ الخُلفاءِ الأمويِّين مكرراً أنَّ اللهَ وَهَبَهُ الخلافةَ وثَبَّتَ حُكْمَه (٤) :

واللهُ قَدَّرَ أنْ تكـونَ خليفـةً خيرَ البَرِيـةِ وارْتَضاكَ المُـرْتَضي
أعْطـاكَ ربُّك مِنْ جزيـلِ عَطائِـه مُلْكاً كُعوبُ قناتِه لم تُرْفَضِ (٥)

وقولُ الفرزدقِ له جازماً بأنَّ الله جعل له الخلافة، ونَصَرَهُ على أعدائه نَصْراً عزيزاً (٦) :
فالأرضُ للهِ ولّاهـا خليفتَـهُ وصاحبُ اللهِ فيها غيرُ مَغْلُوبِ

(١) الأفْيَحُ : الواسع المُخْصب.

(٢) ديوان جرير ١ : ٢٩٥.

(٣) الوَرَع : الجبان.

(٤) ديوان جرير ٢ : ٦٢٠. وليس في القصيدة التي منها هذان البيتان ما يشير إلى اسم الممدوح.

(٥) القناة : العصا المستوية. والكعب : عقدة ما بين الأنبوبين من القصب والقنا. وترفض : تكسر.

(٦) ديوان الفرزدق ١ : ٢٤.

وقَوْلُهُ له مُعِيداً أنَّ الله أعْطاهُ الخلافة، لأنه أحسنُ المسلمين وأفضَلُهم (١):

فأصبحَ اللهُ وَلّى الأمْرَ خيرَهُمُ بعدَ اختلافٍ وصَدْعٍ غيرِ مَشْعُوبِ (٢)

ومنها قولُ جريرٍ للوليدِ بنِ عبدِ الملكِ مُصرِّحاً بأنَّ اللهَ اصْطَفَاهُ للخلافَةِ، ورَفَعَ قَوْمَهُ على غيرهم بكثرةِ مَحَامِدِهم ومَحاسِنِهم (٣):

يَكْفي الخليفةَ أنّ الله سَرْبَلَهُ سِرْبالَ مُلْكٍ به تُزْجَى الخَواتِيمُ (٤)
يا آلَ مروان إنَّ اللهَ فَضَّلكُمْ فَضْلاً قديماً وفي المَسْعاةِ تَقْديمُ

وقَوْلُهُ له جاهراً بأنَّ اللهَ آتاهُ الخلافة (٥):

ذو العَرْشِ قَدَّرَ أنْ تكونَ خليفةً مُلِّكْتَ فَاعْلُ على المَنَابرِ واسْلَمِ

وقَوْلُ الفرزدقِ له مُعْلناً أنَّ اللهَ جعل له الخلافةَ، ودَفَعَها إليه دفعاً (٦):

حباك بها اللهُ الذي هو ساقَها إليكَ فقد أبْلاك أفْضَل ما يُبْلي (٧)

---

(١) ديوان الفرزدق ١ : ٢٥.

(٢) المشعوب هنا : من شَعَب الشيء إذا أصْلَحَهُ وجَمَعه.

(٣) ديوان جرير ٢ : ٦٧٢.

(٤) تُزجى : تُيَسَّر.

(٥) ديوان جرير ١ : ٧٠.

(٦) ديوان الفرزدق ٢ : ١٤٧.

(٧) أبلاه : أنعم عليه وأحسن إليه.

وقَوْلُهُ لهُ قَاطعاً بأنَّ اللهَ مَنَحَهُ الخلافةَ، وشَدَّ أزْرَهُ، ورَسَّخَ سُلْطانَهُ[1]:

أمَّا الوليدُ فإنَّ الله أوْرَثَهُ بِعِلْمِه فيهِ مُلْكاً ثابت الدَّعَمِ

وقَوْلُ الأحوَصِ له مُبَيِّناً أنَّ اللهَ صَيَّرَ إليه الخلافةَ، وأنه لا رَادَّ لأمْرِ اللهِ [2]:

تَخَيَّرهُ رَبُّ العِبَادِ لِخَلْقِهِ وليًّا وكانَ اللهُ بالنَّاسِ أعْلَمَا

وقَوْلُ عَدِيّ بنِ الرِّقاعِ العَامليِّ له مشيراً إلى أنَّ الله بَوَّأهُ الخلافةَ وباركَهُ وأيَّدهُ [3]:

إنَّ الوليدَ أميرَ المؤمنينَ لهُ مُلْكٌ عليه أعانَ اللهُ فارْتَفَعَا

وقَوْلُهُ لهُ ذاكراً أنَّ اللهَ اختارَهُ للخلافة، لِيرأَبَ صَدْعَ الأُمَّةِ، ويَلُمَّ شَعَثَها، ويُقَوِّمَ ما اعْوَجَّ من أمْرِها، ويُؤَلِّفَ بين قُلُوبها [4]:

ولقدْ أرادَ اللهُ إذْ وَلَّاكهَا مِنْ أمةٍ إصْلاحَها ورَشَادَها

ومنها قَوْلُ الأحْوص لسليمانَ بنِ عبدِ الملكِ مُعْتَرفاً بأنَّ اللهَ قَلَّدَهُ الخلافةَ، وسائلاً له أنْ يُسَوِّيَ بين الناس، ويَتحرّى العدْل في الحُكْمِ [5]:

سليمانُ إذْ وَلَّاكَ رَبُّك حُكْمَنا وسُلْطانَنا فاحْكُمْ إذا قُلْتَ واعْدِلِ

---

(1) ديوان الفرزدق ٢ : ٢١٠.

(2) شعر الأحوص ص : ١٩٣.

(3) الأغاني ١ : ٢٩٩.

(4) الأغاني ١ : ٣٠٠.

(5) شعر الأحوص ص : ١٧٣.

وقولُ الفرزدق له مُقرِّراً أنّ الله وَلَّاهُ الخلافة، لِيُنْصِفَ المَظْلُومينَ، وَيبِرَّ المَحْرومين [1] :

أَرَى اللهَ في تِسْعينَ عاماً مَضَتْ لهُ وستٍ معَ التِّسعينَ عَادَتْ فَوَاضِلُهْ
عَلينا ولا يَلْوي كما قدْ أصابَنَا لِدَهْرٍ علينا قد أَلَحَّتْ كَلَاكِلُهْ [2]
تخيّرَ خَيْرَ الناسِ للناسِ رَحْمةً وبيتاً إذا العاديُّ عُدَّتْ أوائِلُهْ [3]

وقَوْلُهُ لهُ مُكَرِّراً أنَّ اللهَ ساق إليه الخلافةَ لكفايتِهِ وقُدْرتِه [4]:

أتاك بها مَخْشُوشةً بزِمَامِها خِلافَتَهُ إذْ في يَدَيْكَ اخْتِبَارُها [5]

وقَوْلُهُ له قاطعاً بأنَّ اللهَ فَضَّلَهُ على السَّاعِينَ في إفْسادِ الأَمْرِ عليه، والطَّامعينَ في التَّطْويحِ به، وأنه حَبَاهُ الخلافة، وقادها إليه، فلم يَنَلْها بالظُّلْمِ والعُدْوان [6]:

فقالَ اللهُ إنَّكَ أنت أعْلَى من المُتَلمِّسينَ لك الخَبَالا [7]
فأعطاكَ الخلافةَ غيرَ غَصْبٍ ولم تَرْكبْ لتغْصِبَها قِبَالا [8]

---

(١) ديوان الفرزدق ٢ : ٨٩.

(٢) لا يلوي علينا : لا يُهْملنا، بل يَشْمَلُنا بعنايته ورحْمته ونِعْمتِه.

(٣) العادي : القديم.

(٤) ديوان الفرزدق ١ : ٣٣٣.

(٥) مخشوشة : من خشَّ البعيرَ إذا وَضَع العودَ في عَظْمِ أنفه ليشُدَّ به الزِّمام فيكون أسرع في الانقياد، أي أتاك بها منقادة. والاختبار : الإصلاح.

(٦) ديوان الفرزدق ٢ : ١٠٠.

(٧) الخبال : الفساد.

(٨) القِبال : زمام النَّعل يكون في الأصبع الوسطى والتي تليها.

وقولُ جريرٍ لأيوبَ بنِ سليمانَ بن عبدِ الملكِ جاهراً بأنَّ الله قَضَى أنْ يَلِيَ الأمويُّونَ الخلافة، وأنه لا تَبْديل لِقَضائه (١):

اللهُ أعْطاكُمْ من عِلْمِهِ بكُمُ   حُكْماً وما بعدَ حُكْمِ الله تَعْقيبُ

ومنها قَوْلُ جريرٍ لعمر بنِ عبدِ العزيزِ مُنَوِّهاً بأنَّ اللهَ فَوَّضَ إليه الخلافةَ (٢):

إنَّ الذي بَعثَ النبيَّ محمدًا   جعلَ الخِلافةَ في الإمامِ العادلِ

وقَوْلُهُ لهُ مُرَدِّداً أنَّ اللهَ خَوَّلَهُ الخلافة (٣):

نالَ الخلافةَ إذْ كانتْ له قَدَرًا   كما أتَى رَبَّهُ موسَى علَى قَدَرِ

وقَوْلُ كثيرِ بنِ عبدِ الرحمنِ الخُزاعيِّ لهُ مُقرِّراً أنَّ اللهَ قدَّرَ له الخلافةَ تَقْديراً، وأنَّهُ ليسَ للأمةِ رأيٌ فيها (٤):

ومَا النَّاسُ أعْطَوْكَ الخلافةَ والتُّقَى   ولا أنْتَ فاشْكُرْهُ يُثِبْكَ مُثِيبُ
ولكنَّما أعْطَاكَ ذلك عَالِمٌ   بما فيكَ مُعْطٍ للجزيلِ وَهُوبُ

ومنها قَوْلُ جريرٍ ليزيدَ بنِ عبد الملكِ مُصَرِّحاً بأنَّ اللهَ وَهَبَهُ الخلافةَ، وآثَرَهُ بها، لِوَرعِه وتَقْواهُ، وبُعْدِ هِمَّتِه، وحُسْنِ تَدْبيرِهِ (٥):

---

(١) ديوان جرير ١ : ٣٤٩.

(٢) ديوان جرير ٢ : ٧٣٧.

(٣) ديوان جرير ١ : ٤١٦.

(٤) ديوان كثير ص : ١٦٨.

(٥) ديوان جرير ١ : ١٤٥.

أمّا يزيدُ فإنَّ اللهَ فهمَّهُ حُكْماً وأعْطاهُ مُلْكاً واضحَ النُّورِ
يَكْفي الخليقةَ أنَّ اللهَ فضَّلَهُ عَزْمٌ وَثِيقٌ وعَقْدٌ غيرُ تَغْريرِ (١)

وقَوْلُهُ لهُ مكرِّراً أنَّ اللهَ اختارَهُ للخلافةِ (٢):

اللهُ أعْطاكَ فاشْكُرْ فضْلَ نِعْمتِهِ أعْطاكَ مُلْكَ التي ما فوْقَها شَرَفُ

وقَوْلُ الفرزدقِ لهُ مُعْلِناً أنَّ اللهَ جعلَ له الخلافةَ، لِعَظمتِهِ وتَدَيُّنِه (٣):

أعْطَى ابنَ عاتكةَ الذي ما فَوْقَهُ غيرُ النُّبوةِ والجَلالِ الأَجْلَلِ
سُلْطَانَهُ وعَصَى النبيِّ وخَاتماً أَلْقَى له بِجرانِهِ والكَلْكَلِ (٤)

وقَوْلُ النابغةِ الشَّيبانيِّ له ذاهباً إلى أنَّ الله أراد لهُ أنْ يقومَ بالخلافةِ، وأنَّهُ أتَمَّ نِعْمَتَهُ عليه بِهدايته إيَّاهُ، وتَوْفيقِه له (٥):

أعْطاكَ مُلْكاً وتَقْوَى أنتَ سائسُهُ بَعْدَ الفضائِلِ مَنْ أوْحى إلى النُّوبِ (٦)

ومنها قَوْلُ الفَرَزْدقِ لهشام بنِ عبدِ الملك مُعْتقداً أنَّ اللهَ اخْتَارَهُ للخلافةِ، لأنَّهُ أفْضَلُ الأُمَّةِ (٧):

---

(١) غير تغرير : لا يقود إلى الهلكة.

(٢) ديوان جرير ١ : ١٧٥.

(٣) ديوان الفرزدق ٢ : ١٢٥، وانظر ١ : ٢١٤.

(٤) الجران : مقدم العنق، والكَلْكَل : الصدر.

(٥) ديوان النابغة الشيباني ص : ٧٦.

(٦) النوب : النحل.

(٧) ديوان الفرزدق ٢ : ٢٤٩.

رآكَ اللهُ أوْلَـى النَّـاس طُرًّا بأعْـوادِ الخلافـةِ والسَّلامِ (١)

وقَوْلُهُ لهُ مُلِحاً على أنَّ اللهَ قضَى أنْ تكونَ الخلافةُ للأُمويِّين، لأنَّهم أوْلياؤُهُ، فَمَكَّنَ لهم، وأظْهَرهم على أعْدائهم، وَأَعَزَّ الإسْلامَ بهم (٢):

أبَى اللهُ إلَّا نَصْرَكـمْ بِجُنُـودِهِ وليسَ بِمغْلُوبٍ مِنَ اللهِ صَاحِبُهْ
أبَى اللهُ إلَّا أنَّ مُلْكَكُم الـذي بهِ ثَبتَ الدِّينُ الشَّديدُ نَصائِبُهْ (٣)

وقَوْلُ جريرٍ لهُ مُؤَيِّداً أنَّ اللهَ حَباهُ الخلافةَ، وقَوَّى أمْرَهُ، وثبَّت حُكْمَهُ، ومَدَّ سُلْطانَهُ حتى خَضَعَ له المُسْلِمونَ والنَّصارَى (٤):

عَطـاءُ اللهِ مَلَّـكَكَ الـنَّصارَى ومَـنْ صَلَّـى لِقِبْلَتِـهِ وَصَامـا

وقَوْلُ العَبْليِّ له مُؤْمِناً بأنَّ اللهَ كَتَبَ الخلافةَ للأُمويِّينَ، لأنَّهم أحقُّ بها مِنْ جميعِ المُسْلمين (٥):

إنكـمْ مَعْشَرٌ أبَـى اللهُ إلَّا أنْ تَفُوزُوا بِدَرِّهـا المَـحْشُودِ (٦)
لَمْ يَرَ اللهُ مَعْشَراً مِنْ بنـي مَرْ وانَ أوْلَى بالمُـلْكِ والتَّسْويـدِ

---

(١) أعواد الخلافة : المنبر.

(٢) ديوان الفرزدق ١ : ٨٨.

(٣) النصائب : حجارة تُنْصَبُ حول الحوض تُجْعَلْ عضائد له.

(٤) ديوان جرير ١ : ٢٢٤.

(٥) الأغاني ١١ : ٣٠٦.

(٦) الدر : اللبن، والمحشود : المجتمع.

ومنها قَوْلُ رُؤبة بن العَجَّاجِ لمروانِ بنِ محمدٍ هاتفاً بأنَّ اللهَ نَصَبَهُ للخلافة، لأنَّه أصْفَى المسلمين[1]:

إنَّ المُنَقَّـى والخِيـارَ المُتَّقـى مَرْوَانُ واللهُ انْتَقـى ما خَلَقـا

وَوَسَّعَ الشُّعراءُ المُوالُونَ للأُمَويِّينَ نِطاقَ نظريتهم في الخلافةِ، فإنَّهم لَمْ يَكْتَفُوا بأنَّهم نَالُوا الخلافة بقضاءِ اللهِ وقَدَرِهِ، بل أضَافُوا إليه أنَّ الخلافةَ مَحْصُورةٌ فيهم مَقْصُورةٌ عليهم، وأنها لنْ تَخْرُجَ منهم إلى غيرهم، بل سَتَسْتَمِرُّ فيهم إلى آخرِ الدَّهْرِ، يَتوارَثُونها بإرادةِ اللهِ وأمْرِهِ، فمن ذلك قَوْلُ جريرٍ لعبدِ الملكِ بنِ مَرْوان[2]:

إنَّ الخلافـةَ بالـذي أبْلَيْتُـمُ فيكمْ فليسَ لِمُلْكِهـا تَحْويـلُ

ومنه قَوْلُهُ للوليدِ بنِ عبدِ الملكِ مُعْلِناً أنَّ الخلافةَ للأُمَويِّينَ، وأنّها لن تُصْرَفَ إلى قَوْمٍ آخرين[3]:

ما المُلْكُ مُنْتَقِلٌ منكمْ إلى أحَدٍ ولا بناؤكُـمُ العَـادِيُّ مَهْـدُومُ

ومنه قَوْلُهُ لعمرَ بن عبدِ العزيزِ مُرَدِّداً أنَّ الخلافةَ باقيةٌ في الأُمَويِّينَ ما عاشَ المُسْلِمُونَ[4]:

فَلَنْ تَزَالَ لأهْلِ الدِّينِ ما عَمِرُوا منكمْ عِمَارةُ مُلْكٍ وَاضحِ الغُرَرِ

---

(١) ديوان رؤبة ص: ١١٣.

(٢) ديوان جرير ١: ٩٥.

(٣) ديوان جرير ٢: ٦٧٢.

(٤) ديوان جرير ١: ٤١٦.

وقَوْلُ الفَرَزْدَقِ له مُكَرِّراً أنّ الخلافة خالِصَةٌ للأُمويِّينَ، ثابتةٌ فيهم إلى أبَدِ الآبِدِين[1] :

ولَــنْ يزالَ إمـــامٌ منهُــم مَلِكٌ إليه شَخَصُ فوقَ المِنْبَرِ البصرُ

ومنه قَوْلُ الفَرَزْدَقِ أيضاً ليزيدَ بنِ عبدِ المَلكِ مؤكداً أنَّ الخلافةَ صَافيةٌ للأُمَويِّينَ، مُسْتَقِرّةٌ فيهم إلى يوم الدِّين[2] :

فلــنْ تَزَالَ لكــمْ واللهُ أثبتَهـــا فيكمْ إلى نَفْخَةِ الرَّحمنِ في الصُّورِ

والأبياتُ السَّابقةُ وثائقُ حَيَّةٌ صادقةٌ، لها قيمةٌ فائقةٌ، لأنها تُصَوِّرُ نظريَّةَ الأمويِّين في الخلافةِ، وتاريخَ نَشْرِهم لها، ومَبْلَغَ إلحاحِهم عليها، ومدارَ اعتقادِ أنْصارِهم بها، مِمَّا يُوافقُ الأخبار التي رُويتْ في ذلك ويُؤيِّدُها تأييداً شديداً، ومما يزيدُ عليها زيادةً كبيرةً، تَسْتَدْرِكُ ما أخَلَّتْ به، وتُوَضِّحُهُ تَوْضيحاً دقيقاً.

فهي تَدُلُّ على أنَّ الأُمَويِّينَ أظْهَرُوا نَظَريَّةَ الجَبْرِ في الخلافةِ في عَهْدِ معاويةَ بن أبي سُفْيانَ، وأنَّ المَرْوَانيِّينَ منهم تَمسَّكُوا بها، واعْتَمدُوا عليها لإثْباتِ حَقِّهم في المُلْكِ، وتَعْليلِ اسْتِجابهم له، وتَفْسير اسْتِئثارِهم به، فقد كانوا يَزْعُمونَ أنَّ اللهَ اخْتَارَهم للخلافةِ، وخَصَّهُمْ بها، لأنهم أحْسَنُ المسلمينَ صَلَاحاً وفَضْلاً، وأكْثَرُهم تُقىً وَوَرَعاً، وأدَقُّهم عِلْماً وحُكْماً، وأصْدَقُهم جِهاداً ونِضالاً، وأشْهَرُهم إنْصافاً وعَدْلاً، مِمَّا لم تَرِدْ فيه أخبارٌ من أيَّامِ مَرْوانَ بنِ الحكَمِ إلى أيامِ هشامِ بنِ عبدِ الملكِ إلَّا قليلاً.

وفي شِعْرِ الشُّعراءِ المُوَالينَ للأُمَويِّينَ تَفْصيلٌ شديدٌ لِصِفاتِهم الإسْلاميَّة،

---

(١) ديوان الفرزدق ١ : ١٨٦.

(٢) ديوان الفرزدق ١ : ٢١٤.

وتَنْويهٌ رائعٌ بها. وفي بَعْضِهِ نَفْخٌ قَوِيٌّ فيها، وتَهْوِيلٌ بَيِّنٌ لها، وفي بَعْضِهِ شَطَطٌ بعيدٌ في التَّعْبيرِ عنها، وغُلُوٌّ مُسْتَقْبَح في الإِظْهارِ لها!

وفيه أيضاً ذِكْرٌ كثيرٌ لِصفاتِهم العربيَّةِ، التي تَتمَثَّلُ في أنَّهم أشْرَفُ العَرَبِ أصْلاً ومَحْتداً، وأعْرَقُهم حَسَباً ومَجْداً، وأمْضاهُمْ هِمَّةً وعَزْماً، وأطْوَلُهُمْ صَبْراً وحِلْماً، وأوْسَعُهم جُوداً وكَرماً. والشواهدُ على ذلك أكثرُ من أنْ تُحْصَى، في هذا المقامِ، فهي تَسْتَغْرِقُ عشراتِ القصائد [1].

ومن المفيدِ تَتَبُّعُ صِفاتِهم العَرَبيَّةِ وصِفاتِهم الإسْلاميَّةِ في شِعْرِ شاعرٍ من أنْصارِهم مثلِ الفَرزدقِ، فإنه كان من أكبرِ المُنَافحينَ عن حَقِّهم في المُلْك [2]، وقد مَدَحَ ستةً من الخُلفاءِ المَرْوانيِّينَ، اثنانِ منهم لم يَفِدْ عليهما، بل مَدَحُهما وهو مُقيمٌ بالبصرةِ، وهما عبدُ الملكِ بنُ مروانَ [3]، والوليدُ بنُ عبدِ الملك [4]، وأربعةٌ منهم وفَدَ عليهم ومَدَحَهُمْ بالشَّامِ، وهم سليمانُ بنُ

---

(١) انظر ديوان الأخطل ص : ٨، ١٩، ٣٤، ٣٩، ٥٥، ٦٣، ٧٢، ٧٨، ١٠١، ١٠٥، ١٢١، ١٧٥، ١٨٥، ٢٠٤، ٢١٨، ٢٣٢، ٢٦٥، وديوان جرير ١ : ٦٩، ٧٩، ١١٨، ١٤٥، ١٧٣، ٢١٧، ٢٢٤، ٢٧٥، ٢٩٠، ٣٤٣، ٣٤٨، ٣٧٩، ٣٩٥، ٤١١، ٢ : ٦٢٤، ٦٤٥، ٦٥٧، ٦٦٤، ٦٨٦، ٧٠٢، ٧٠٨، ٧١٧، ٧٤٣، وديوان الفرزدق ١ : ٧٨، ١٤٨، ١٧٧، ٢٣١، ٢٤٦، ٣٣٥، ٣٤١، ٤١١، ٢ : ١٤، ٧٠، ٧٢، ٨٠، ٩٢، ٢٨٣، وديوان كثير ص : ٧٨، ١٢٠، ١٦٦، ١٩٦، ٢٤١، ٢٤٩، ٢٥٦، ٢٦٠، ٢٦٤، ٢٦٧، ٢٧٦، ٢٧٩، ٢٨٨، ٣٣١، ٣٤٠، ٣٤٤، ٣٤٩، ٣٥١، وديوان ابن هرمة ص : ٨٥، ١٥٨، ٢١١، ٢٢٢، وديوان العجاج ص : ١٦٩، ٤٤٩، ٤٧٨، ٥٠٦، وديوان رؤبة ص : ١٠، ٢٥، ٦٦، ١٠٢، ١١٣، ١١٨، ١٤٦، وشعر الأحوص ص : ٦٢، ١٢٠، ١٥٦، ١٧٨، وشعر نصيب ص : ٥٩، ٩٠، والأغاني ١ : ٢٩٩، ٣٠٠، ٤ : ٣٢٣، ٧ : ٩٩، ١١ : ٣٠٥، ١٦ : ٣٠١، ٢٠ : ٣٩٢، ٣٩٣، ٣٩٤، وتهذيب تاريخ ابن عساكر ٤ : ٣٩٢، ومعجم الأدباء ٤ : ١١٧، وخزانة الأدب ١ : ٧٩.

(٢) انظر الفرزدق، لشاكر الفحام ص : ١٦٩ ــ ٢٠٧.

(٣) ديوان الفرزدق : ٢٢، ٢٤.

(٤) ديوان الفرزدق ١ : ٨٠، ٢٥٠، ٢٨٣، ٢ : ١٢٦، ١٤٥.

عبدِ الملكِ[1]، وعمر بن عبد العزيز[2]، ويزيدُ بنُ عبدِ الملكِ[3]، وهشامُ بنُ عبدِ الملكِ[4].

ولكنَّ قصائدَهُ التي أثْنى فيها علَى أولئكَ الخُلفاءِ المَرْوانِيِّينَ السِّتة، ودَافَعَ فيها عن حَظِّهم من الخلافةِ كثيرةٌ، وبعضها يُغْني عن بعضٍ، إذْ كَرَّرَ فيها معانيَ واحدةً، لأنَّ صُوَرَهم كانت مُتماثلةً أوْ مُتَشابهةً في نفسِهِ. ولذلك يمكنُ الاجْتزاءُ بِقَصيدَتَيْنِ مِنها، الأُولَى مَدَحَ بها خليفةً منهم عُرِفَ بالرَّصانةِ والسَّماحةِ، وهو سليمانُ بنُ عبدِ الملكِ، وهو يقولُ له فيها[5]:

سُلَيمانُ غَيْثُ المُمْحِلِينَ ومَنْ به ... عَنِ البائِسِ المِسْكِينِ حُلَّتْ سَلاسِلُهْ
وما قَامَ مُذْ ماتَ النبيُّ محمدٌ ... وعثمانُ فَوْقَ الأرضِ راعٍ يُعَادِلُهْ
أَرَى كلَّ بَحْرٍ غَيْرَ بَحْرِكَ أصْبَحَتْ ... تَشَقَّقُ عَنْ يَبْسِ المعينِ سَواحِلُهْ
كأنَّ الفُرَاتَ الجَوْنُ يَجْري حَبابُهُ ... مُفَجَّرةً بينَ البُيُوتِ جَدَاوِلُهْ[6]
وقدْ عَلِمُوا أنْ لَنْ يميلَ بكَ الهَوَى ... وما قُلْتَ مِنْ شَيْءٍ فإنَّكَ فَاعِلُهْ
وما يَبْتَغي الأقْوامُ شيئاً وإنْ غَلاَ ... مِنَ الخَيْرِ إلَّا في يَدَيْكَ نَوَافِلُهْ
وكانَ الذي سَمَّاهُ باسْمِ نَبِيِّهِ ... سليمانَ إنَّ اللهَ ذا العَرْشِ جاعِلُهْ

(١) ديوان الفرزدق ١ : ١٩، ١٩٧، ٢٦٢، ٣٣٣، ٢ : ٨٩، ٩٩، ٣٠٩.

(٢) ديوان الفرزدق ١ : ١٨٤.

(٣) ديوان الفرزدق ١ : ١٢٤، ١٤٤، ٢١٣، ٣٤٦، ٢ : ١٧، ٢٨١، ٣٥٢.

(٤) ديوان الفرزدق ١ : ٥٩، ٨٨، ١٤٠، ٢ : ٩، ٢٣١، ٢٩٤، ٣٠١.

(٥) ديوان الفرزدق ٢ : ٨٩.

(٦) الجون : الأسود الممتلىء ماءً. وحَبابُهُ : مُعْظَمُهُ.

على الناسِ أمْناً واجْتماعَ جَماعةٍ وغَيْثَ حياً للنَّاسِ يُنْبِتُ وَابِلُهْ[1]
فأحْيَيْتَ مَنْ أدْرَكْتَ منا بسُنَّةٍ أبَتْ لم يُخالِطْها معَ الحَقِّ باطِلُهْ
كَشَفْتَ عن الأبْصارِ كلَّ عَشاً بها وكُلُّ قَضاءٍ جائرٍ أنتَ عَادِلُهْ
وقد عَلِمَ الظُّلْمُ الذي سَلَّ سَيْفَهُ عَلى النَّاسِ بالعُدْوانِ أنَّك قاتِلُهْ
وليسَ بِمُحْيي الناسِ مَنْ ليسَ قاضياً بِحَقٍّ ولم يُبْسَطْ على النَّاسِ نائلُهْ
حَمَلْتَ الذي لم تَحْمِلِ الأرضُ والتي عليها فأدَّيْتَ الذي أنتَ حامِلُهْ
إلى اللهِ مِنْ حَمْلِ الأمانةِ بَعْدَما أُضيعَتْ وغالَ الدِّينَ عَنَّا غوائِلُهْ
جَعَلْتَ مكانَ الجَوْرِ في الأرْضِ مِثْلَهُ مِنَ العَدْلِ إذْ صارَتْ إليكَ مَحاصِلُهْ[4]
وما قُمْتَ حتى اسْتَسْلَمَ الناسُ والْتَقى عليهم فَمُ الدَّهْرِ العَضُوضِ بَوَازِلُهْ[5]
وحتى رَأوْا مَنْ يَعْبُدُ النَّارَ آمِناً لهُ جارُهُ والبَيْتُ قد خَافَ دَاخِلُهْ
فَأضْحَوْا بإذْنِ اللهِ بعدَ سَقَامِهِمْ كذي النَّتْفِ عادتْ بعدَ ذاكَ نَوَاصِلُهْ[6]

والأُخْرَى مَدَحَ بها خليفةً منهم اتُّهِمَ بالرَّكاكةِ والمَجَانَةِ، وهو يزيدُ بنُ عبدِ الملكِ، وهو يقولُ لهُ فيها[5]:

وَمَا لِيَ لا أسْعى إليكَ مُشَمِّراً وأمْشي على جَهْدٍ وأنتَ رَجَائيا
وكَفَّاكَ بعدَ اللهِ في رَاحَتَيْهِمَا لِمَنْ تَحْتَ هذي فيهما الرِّزْقُ وَافِيَا
وأنْتَ غِيَاثُ الأرْضِ والنَّاسِ كلِّهِمْ بِكَ اللهُ قَدْ أحْيَا الذي كانَ بَالِيَا

---

(١) الغيث : المطر. والحيا : الخِصْبُ. والوابل : المطر الشَّديد الضَّخْمُ القطر.

(٢) المحاصل : جمع محصول وهو كالحاصل بمعنى البقية.

(٣) البوازل : الأنياب.

(٤) ذو التنف : مَنْ نُزِعَ شعره. ونَواصِلُه : ما ذهب من شعر لحيته، يقال : لحية ناصلٌ بغير هاء : إذا خرجت من الخصاب.

(٥) ديوان الفرزدق ٢ : ٣٥٢.

وَمَا وَجَدَ الإِسْلامُ بَعْدَ محمدٍ وأصْحَابِهِ للدِّينِ مِثْلَكَ رَاعِيَا
يَقُودُ أبوالعَاصي وحَرْبٌ لِحَوْضِهِ فُرَاتَيْنِ قَدْ عَمَّا البُحُورَ الجَوارِيَا
إذا اجْتَمَعا في حَوْضِهِ فَاضَ منهما على النَّاسِ فَيْضٌ يَعْلُوانِ الرَّوابِيَا
فلمْ يُلْقَ حَوْضٌ مِثْلُ حَوْضٍ هُمَا لَهُ ولا مِثْلُ آذيٍّ فُرَاتَيْهِ سَاقِيَا
وما ظَلَمَ المُلْكَ ابنُ عاتِكَةَ التي لها كُلُّ بَدْرٍ قَدْ أضاءَ اللَّيالِيَا
أَرَى اللهَ بالإسْلامِ والنَّصْرِ جاعلاً على كَعْبِ مَنْ نَاوَاكَ كَعْبَكَ عَالِيَا
لَقَدْ عَلِمَ الفُسَّاقُ يَوْمَ لَقِيتَهُمْ يزيدُ وحَوَّاكُ البُرُودِ اليمانِيَا
وجَاءُوا بِمِثْلِ الشَّاءِ غُلْفاً قُلُوبُهمْ وقَدْ مَنَّاهُمْ بالضَّلالِ الأمَانِيَا
ضَرَبْتَ بِسَيْفٍ كانَ لَاقَى محمدٌ بِهِ أهْلَ بَدْرٍ عَاقِدِينَ النَّوَاصِيَا
فَلَمَّا الْتَقَتْ أيْدٍ وأيْدٍ وهَزَّتَا عَوالِيَ لَاقَتْ لِلطِّعانِ عَوَالِيَا
أرَاهُمْ بَنُو مروانَ يومَ لَقُوهُمُ ببابِلَ يَوْماً أخْرَجَ النَّجْمَ بَادِيَا
بَكَوْا بِسُيوفِ اللهِ للدِّينِ إذْ رَأَوْا مَعَ السُّودِ والحُمْرانِ بالعَقْرِ طاغِيَا
أنَاخُوا بأيْدي طاعةٍ وسُيُوفُهم على أُمَّهاتِ الهَامِ ضَرْباً شآمِيا
فَمَا تركَتْ بالمَشْرِعَيْنِ سُيُوفُكُمْ نُكوباً عن الإسْلامِ مِمَّنْ وَرَائِيا
سَعَى النَّاسُ مُذْ سَبْعُونَ عاماً لِيَقْلَعُوا بآلِ أبي العَاصي الجِبالَ الرَّوَاسِيَا
فَمَا وَجَدُوا لِلْحَقِّ أقْرَبَ منهمُ ولا مِثْلَ وَادي آلِ مَرْوانَ وادِياً

فَشَخْصِيَّةُ كلٍّ منهما مُقَارِبَةٌ لِشَخْصِيَّةِ الآخرِ في القَصِيدَتَيْنِ، وإذا نُظِرَ إلى سَائرِ القَصَائدِ التي مَدَحَهُما بها، كانتْ شخصيةُ كلٍّ منهما مُطابِقَةً لِشَخْصِيَّةِ الآخر، حتى لكأنَّهما صُورَةٌ واحدةٌ مَنْقُولةٌ عن أصلٍ ثابتٍ، ومثالٍ مَرْسُومٍ ! فكلٌّ منهما عَربيٌّ نَقِيٌّ، وسَيِّدٌ سَرِيٌّ، وفَطِنٌ ألْمعيٌّ، ومِقْدَامٌ أبيٌّ، وجَوادٌ سَخِيٌّ، وأمينٌ وَفِيٌّ، وعفيفٌ حَيِيٌّ. وكلٌّ منهما مُسْلِمٌ سَوِيٌّ، ومُؤْمِنٌ تَقِيٌّ، بل أفْضَلُ المسلمينَ بعدَ النبيِّ وأصْحابِه، وأجْدَرُهم بِتَوَلِّي الخلافةِ، وأقْدَرُهم على حَمْلِ الأمانةِ، وأشَدُّهم عنايةً بأمْرِ الأُمَّةِ، وأقواهُمْ على إقامةِ

العَدْل بين الناس، وأحْرَصُهم على إزالة الظُّلْم عن الرَّعية، وأكثَرُهم مُحافظةً على الدِّين. وكلٌّ منهما مَهْدِيُّ الأُمةِ. وكُلٌّ منهما يَصْلُحُ أنْ يُبْعثَ نَبيّاً، لولا أنَّ النُّبوَّاتِ قد خُتِمَتْ، والرِّسالاتِ قدْ تَمَّتْ !! وكلٌّ منهما قَلَّدهُ اللهُ الملكَ، ومكن له في الأرْض.

ويَخْلُو مُعْظمُ ما سَلِمَ مِنَ الأخْبارِ التي تَتّصِلُ بنظريّةِ الأُمَويِّين في الخلافةِ من الإشارةِ إلى صفاتِهم العربيَّةِ. ولكن اصْطِلاحهم على أنْ يكون أوْلياءُ عُهُودِهم عرباً أقْحاحاً من جِهَةِ آبائهم وأمَّهاتهم يُنْبِئُ بِمُراعاتِهم الدقيقةِ لصفةِ العُرُوبةِ الخالِصةِ التي لم تُخَالِطْها العُجْمةُ، بل إنَّهم كانوا يَتشَدَّدُونَ في طَلَبها تَشَدُّداً بالِغاً، ويَحْرصُونَ على تَوَافُرِها حِرْصاً عظيماً، إذْ كانوا يَجْعلُونها أحدَ الشُّروطِ التي يجبُ أنْ تَجْتَمِعَ فيمنْ يَعْقِدُونَ له العَهْدَ منهم، وكانوا لا يُفَرِّطُونَ فيها ولا يَتَنَازَلُونَ عنها إلى آخرِ أيامِ هشامِ بنِ عبدِ الملكِ، قالَ ابنُ عساكر [1] : « كانوا يَكْرهُونَ البَيْعةَ لابن أَمَةٍ، ولا يُوَلُّونَ إلَّا ابنَ حُرَّةٍ ». وكانوا يَفْعَلُون ذلك حِفاظاً على بقاءِ الخلافةِ فيهم، وخَوْفاً عليها أنْ تَخْرُجَ منهم، وَوَرَدَ في قصَصِهِم أنَّهم كانوا يَعْتَقدُونَ أنَّ سُلْطانَهم يَضيعُ في عَهْدِ خَليفةٍ منهم أُمُّهُ غيرُ عربيةٍ، قال مُصْعَبُ بنُ عبدِ اللهِ الزبيريُّ [2] : « كانَ بنو أمية يَرَوْنَ أنه تَذْهَبُ منهم الخلافةُ إذا وَلِيهَا مَنْ أُمُّهُ أَمَةٌ »، وقال ابنُ أبي الحديد [3] : « كان يُقَالُ : إنَّ دَوْلَةَ بني أُميَّةَ آخِرُها خليفةٌ أمهُ أَمةٌ، فلذلك كانوا لا يَعْهَدُونَ إلى أبناء الإماءِ منهم، ولو عَهِدُوا إلى ابنِ أَمَةٍ لكانَ مَسْلَمةُ بنُ عبدِ الملكِ أوْلَاهُمْ بِها »، وقال ابنُ شاكرٍ

---

(١) تهذيب تاريخ ابن عساكر ٥ : ٢٠٦.

(٢) البداية والنهاية ١٠ : ٤٧.

(٣) شرح نهج البلاغة ٧ : ١٥٧.

الكُتبيُّ [1]: « كانت بنو أُمية تَتجنَّبُ ذلك تَعْظيماً للخلافةِ، ولأنهم سَقَطَ إليهم أنَّ مُلكَهُمْ يَزُولُ على يدِ خليفةٍ أُمُّهُ أَمَةٌ ». وكانَ العَربُ لا يُسَوِّدُونَ أبْناءَ الإماءِ[2].

ويُسْتَخْلَصُ من ذلك أنَّ الأُمويِّينَ أَوَّلُوا اصْطفاءَ اللهِ لهم للخلافةِ، وأقامُوا حقَّهم فيها على أَسَاسَيْنِ : الأولُ إسْلاميٌّ، وهو يَبْدُو في صِحَّةِ عقيدتِهم وسلامتِها، وحُسْنِ سِيرَتهم واسْتِقَامتِها، والثاني عربيٌّ، وهو يَبْدُو في صَراحةِ أنْسَابهم وأصَالتها، ونُبْلِ أخْلاقِهم وعِفَّتِها.

ومَعْنَى ذلك أنَّ نَظَرِيَّةَ الأُمويِّينَ في الخلافةِ كانتْ مِزاجاً من الأفْكارِ الإسْلَاميَّةِ، والأعْرافِ العَربيَّةِ، ويَرْجعُ ذلك إلى طبيعةِ الثقافةِ في عَصْرِهم، فإنَّها كانت تَتألفُ في مُعْظَمِها من عَنَاصِرَ إسلاميَّةٍ جديدةٍ، وعَنَاصِرَ عَربيَّةٍ مَوْرُوثةٍ [3].

وتَدُلُّ الأبياتُ السابقةُ على أنَّ الأُمويِّين كان لهم أنْصارٌ كثيرونَ آمَنُوا بِنَظريَّتهم في الخلافةِ، وأنَّ أنْصارَهم كانُوا من أمْصارٍ مُخْتلفةٍ، إذْ كانَ منهم الشاميُّ والحِجازيُّ والعِرَاقيُّ والخُراسانيُّ، وكانَ منهم العَربيُّ والمَوْلَى. وكان أنْصَارُهم من الشُّعراءِ طليعةَ المؤمنينَ بِنظريَّتهم، إذْ كانُوا أكبرَ النَّاطقينَ بها، وأشدَّ الدَّاعينَ إليها، وأقْوَى المُدافعينَ عنها. ويُلاحظُ أنهم اسْتَعْملُوا ألْفاظاً مُتَطابِقَةً أوْ مُتَقَارِبةً سواءً في تَقْريرِهم لِحَقِّ الأُمَويِّينَ في

---

(١) عيون التواريخ المخطوط ٥ : ٢٠ ظ.

(٢) تاريخ الأدب العربي، العصر الجاهلي، لشوقي ضيف ص : ٦٠، والمفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٤ : ٣٤٣، ومحاضرات في تاريخ العرب قبل الإسلام، لصالح العلي ص : ١٥٥.

(٣) تاريخ الأدب العربي، العصر الإسلامي ص : ١٩٩، وانظر مقدمة في تاريخ صدر الإسلام ص : ٦٨، والجذور التاريخية للشعوبية ص : ١٦.

الخلافة، أوْ في حَدِيثهم عن بَقاءِ الخلافةِ فيهم مَدَى الحياة، مِمَّا قد يشيرُ إلى أنَّ الأُمَويِّينَ كانوا يَبُثُّونَ نَظَرِيَّتَهمْ بَثًّا مُتَّصِلاً مُنَظماً، وأنَّهم كانوا يَعْرِضُونَها عَرْضاً واحداً مُحْكَماً.

(٦) « خُلاصَةٌ وتَعْقِيبٌ »

ويَبْدُو مِنْ كُلِّ ما تَقَدَّمَ مِنَ الأخْبارِ والأشْعارِ أنَّ الأُمويِّينَ تَذَرَّعُوا بِمَقْتَلِ عثمان إلى طَلَبِ الخلافةِ والظَّفَرِ بها، فأظْهَروا أنَّهُ قُتِلَ بغيرِ حَقٍّ، وأنهم ثائِرونَ به، مُنْكِرونَ لِقَتْلِه، مُصِرُّونَ على الأَخْذِ بِثَأرِه، لأنهم أقْرباؤُهُ وأوْلياءُ دَمِه. وقَادَ معاويةُ صُفُوفَهم، ونَازَعَ عليًّا في الخلافةِ، وغالَبَهُ عليها، فلمَّا اغْتِيلَ عليٌّ، اسْتَوْلَى معاويةُ على الخلافةِ، واسْتَبَدَّ بها.

وأشاعَ الأُمَويُّونَ بعدَ ذلكَ أنهم أصْحابُ الخلافةِ وأرْبابُها، وأوْلَى الناسِ بها، وأنَّ لهم حَظًّا مَشْرُوعاً فيها، فإنَّها جاءتْ عثمانَ عن مَشُورة وبَيْعةٍ، وهم أحقُّ بِوِراثتِه، لأنهم عَصَباتُهُ وأهْلُ بَيْتِه، ولم يَزَالُوا يُرَدِّدُونَ ذلك ويَحْتَجُّونَ به لِحقِّهم في الخلافةِ إلى وَقْتٍ متأخرٍ من دَوْلتهم، مِمَّا يدلُّ عليه شعرُ الشُّعَراءِ مِنْ شِيعَتهم.

ولكنهم تَبيَّنُوا في زمنٍ مُبكِّرٍ، بل في الشَّطْرِ الأولِ من عَهْدِ معاويةَ أنَّ حُجَّتهم في الطَّلب بدمِ عثمانَ إنما تُخَوِّلُ لهم الاقْتصاصَ من قَتَلَتِهِ، ولا تَنْقُلُ إليهم الخلافةَ عنه، وَوَجَدُوا أنَّ ما ذَكَروهُ من أنهم وَرِثُوا الخلافةَ عنه لا يُكوِّنُ لهم نَظريَّةً واضحةً في الخلافةِ تَقُومُ على أُسُسٍ تَلْقَى بعضَ القَبُولِ، وتَقْوَى على الصُّمُودِ أمامَ نَظَريَّاتِ الفِرَقِ الأخرى في الخلافةِ، فَجَنحُوا إلى مَذْهَبِ الجَبْرِ في الخلافةِ، واعْتَمدُوا عليهِ لإثْباتِ حَقِّهم فيها، واسْتَنَدُوا إليه

لِتَسْويغِ سَيْطَرتِهم عليها، فأذَاعُوا أنَّ اللهَ قَلَّدَهم الخلافةَ، وأعْطاهم المُلْكَ، وأنَّهم يَسُوسُونَ بقضائِه وقَدَرِه، ويَعْملُونَ بإذْنِه وأمْرِه، وأضْفَوْا على خِلافَتِهم مَسْحةً من الجَلالة، وخَلَعُوا على شَخْصِيّاتهم ألْواناً من الألْقابِ الدِّينيَّة. وجَدُّوا في نَشْرِ نَظَرِيتهم والتَّبْشيرِ بها، ونَشَطُوا في شَرْحِها، والدَّعوةِ إليها، وكان الوليدُ بنُ يزيدَ بنِ عبدِ الملكِ أهمَّ مَنْ بَسَطَها منهم وفَصَّلَها.

واسْتَهْوَتْ نَظريتُهم طوائفَ كثيرةً من العربِ خاصةً، كما اسْتَهْوَتْ قلةً قليلةً من المَوالي. وكان أتْبَاعُها من أمْصارٍ مُتَعَدِّدَةٍ، لا من بلادِ الشامِ وَحْدَها، وكان الشُّعراءُ من شِيعَتهم أشْهَرَ مَنْ وَعَى نَظريَّتهم، ورَوَّجَ لها، ونَاضَلَ عنها، وقد أعْلَنُوا أنَّ اللهَ جَبَاهُم الخلافةَ لأنهم نُخْبةُ العَربِ نَسَباً وخُلُقاً، وصَفْوةُ المسلمين وَرَعاً وتُقىً.

« الفَصْلُ الثَّاني »

« نَظَرِيَّةُ الأُمَوِيِّينَ في وِلَايَةِ العَهْدِ »

(١) « ابْتِدَاعُ معاوية الأوَّلِ لِنِظامِ وِلَايةِ العَهْدِ »

أَحْدَثَ معاويةُ بنُ أبي سُفْيانَ نِظَامَ وِلَايةِ العَهْدِ، فهو أوَّلُ خليفةٍ أُمَويٍّ فَكَّرَ فيهِ، وقَدَّر لهُ، ثم قَرَّرهُ بِعَقْدِهِ البَيْعةَ لابْنِه يزيدَ.

ويُخالِفُ نظامُ ولايةِ العَهْدِ مَبْدأ السِّيادةِ القبليِّ، الذي يَعْتَرِفُ بأنْ تَكُونَ السِّيادةُ لأُسْرةٍ أوْ عشيرةٍ من القَبِيلةِ، ولكنهُ يُجيزُ أنْ تكونَ السِّيادةُ لأَقْدرِ أفْرادِ القبيلةِ، دونَ أنْ يَجْعَلَهَا وِرَاثةً لأبنائِه من بَعْدِه، لأنه يُراعي النَّسَبَ والسِّنَّ، والخبرةَ والمَعْرِفَةَ، والحنكَةَ والحكمةَ، والشجاعةَ والنَّجْدةَ، والجُودَ والنَّخْوةَ، والإِيثارَ والعِفَّةَ، والحِلْمَ والسَّماحةَ، وحُسْنَ الجوارِ، وحِفْظَ الحقوقِ، والوَفاءَ بالمَواثيقِ، وإغاثةَ المَلْهُوفِ، وإعانةَ الضَّعيفِ، وتَحَمُّلَ الجرائرِ والجِناياتِ، وأداءَ الدِّياتِ (١).

ويُخالفُ نظامُ وِلايةِ العَهْدِ أيضاً مَبْدأَ الشُّورَى الإِسْلاميَّ، الذي يَعْتَمِدُ على اخْتيارِ الأمةِ للخليفةِ، ويَعُدُّ إجماعَها عليه مُمثِّلاً للإِرادةِ الإلهيَّةِ (٢).

ولذلك لقيَ معاويةُ مُعَارضةً قويَّةً حينَ أعْلنَ أنه يُريدُ أنْ يَسْتَخْلِفَ ابنَه، إذْ تَصدَّى له فريقٌ من الصَّحابةِ، ونَفَرٌ من أبناءِ الخلفاءِ الرَّاشدينَ، وبعضُ أزْواجِ النبيِّ، مُنَدِّدِينَ بِسَعْيِهِ لأَخْذِ البَيْعةِ لأبْنِه، ومُنْكِرِينَ له لأنهم رأوْا فيه

---

(١) مقدمة في تاريخ صدر الإسلام ص : ٦٦، والعصر الجاهلي ص : ٥٩، والمفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٤ : ٣٥٠، ومحاضرات في تاريخ العرب قبل الإسلام ص : ١٥٥.

(٢) مقدمة في تاريخ صدر الإسلام ص : ٦٦.

خُروجاً على مَبادىء الإسْلام، وتَخطِّياً لهم، وتَقْديماً لابنهِ عليهم، وهو أَقَلُّ منهم صَلاحاً وكمالاً، وأَدْنَى عِلْماً وجَلالاً.

ولكنَّ معاويةَ لم يَزَلْ يَحْتالُ لِعَقْدِ العَهْدِ لابنه، فلمَّا توفي زيادُ بنُ أبيه، وكانَ مِمَّنْ عَارَضَهُ، وأبى أنْ يُوافِقَ على البَيْعةِ لابْنِه[1]، « دعا معاويةُ بكتابٍ فَقرأَهُ علَى النَّاسِ باسْتخلافِ يزيدَ، إنْ حَدَثَ به حَدَثُ المَوْتِ فيزيدُ وَليُّ عهدٍ، فاستَوْسَقَ له الناسُ على البَيْعةِ ليزيدَ غيرَ خمسةِ نَفَرٍ[2]» هم الحسينُ بنُ عليٍّ، وعبدُ اللهِ بنُ عُمَرَ، وعبدُ الرحمنِ بنُ أبي بكرٍ، وعبدُ اللهِ بنُ الزبيرِ، وعبدالله بن عباس[3]، ويُرْوَى أنَّ السيدةَ عائشة كانت تَرْفُضُ البَيْعةَ ليزيدَ[4]، ثم عَدَلَتْ عن رَأيها، حين قَدِمَ مُعاويةُ المدينةَ، وحَاوَرَها في اسْتِخْلافِ ابْنِه، لأنها « عَلِمَتْ أنه سَيَمْضي على أَمْرِهِ[5]»، ولكنها نَصَحَتْ له أنْ يَرْفقَ بالنَّفرِ الذين خَالَفُوهُ.

وبذلك سَنَّ معاويةُ للخلفاءِ الأُمويِّينَ نظامَ وِلايةِ العَهْدِ، وشَرَعَ لهم مَبْدأَ وِرَاثةِ الخلافةِ، « فَحوَّلَ الإمَامةَ إلى مُلْكٍ كِسْرويٍّ، والخلافةَ إلى مَنْصبٍ قَيْصَريٍّ[6] ».

---

(١) تاريخ الطبري ٥ : ٣٠٢، وانظر تاريخ اليعقوبي ٢ : ٢٢٠، والكامل ٣ : ٥٠٥.

(٢) تاريخ الطبري ٥ : ٣٠٣، وانظر الإمامة والسياسة ١ : ١٨٣، والكامل في التاريخ ٣ : ٥٠٨.

(٣) تاريخ الطبري ٥ : ٣٠٣.

(٤) الإمامة والسياسة ١ : ١٨٣، والكامل في التاريخ ٣ : ٥٠٧.

(٥) الإمامة والسياسة ١ : ١٨٣.

(٦) رسائل الجاحظ، للسندوبي ص : ٢٩٢.

(٢) « غَايَاتُ الأُمويِّينَ مِنْ نِظَامِ وِلَايَةِ العَهْدِ »

وذكَرَ معاوية أنه أُخذَ البَيْعةَ لابْنِه خوْفاً من اضْطرابِ أمْرِ المسلمينَ وافتِراقهم، وحِرْصاً على وَحْدَتهم ومَصْلَحتهم بعدَ مَوْتِه، إذْ يقول[١]: « إني أرْهَبُ أنْ أدَعَ أُمَّةَ محمدٍ بَعْدي كالضَّأْنِ لا راعيَ لها ». وأشارَ بعضُ الخلفاءِ المَرْوَانيِّينَ إلى هذه الغايةِ من غاياتِ استِخْلَافِهم لِأَوْلياءِ عُهُودِهم، إذْ يَقُولُ سليمان بنُ عبدِ الملكِ في كتابِ عَهْدِه[٢] : « هذا كتابٌ من عبدِ اللهِ سليمانَ أمير المؤمنين لعمرَ بنِ عبدِ العزيز إني وَلَّيْتُكَ الخلافةَ مِنْ بَعْدي، ومن بَعْدِه يزيدَ بنَ عبدِ الملكِ، فاسْمَعُوا وأطيعُوا. واتَّقُوا اللهَ، ولا تَخْتَلِفُوا فَيُطْمَعَ فيكم »، وزادُوا عليها أنهم كانوا يَبْتَغُونَ من المُبايعةِ لأولياءِ عُهُودِهم أنْ تبقَى الخلافةُ في أوْلادِ مَرْوانَ بنِ الحَكَمِ وفي حَفَدَتِه من ذُرِّيَّةِ عبدِ الملكِ بنِ مَرْوانَ، وأنْ يُحَافِظُوا على الْتِئَامِ الأُسْرةِ المَرْوانيَّةِ، ويَمْنَعُوا مُلْكَها من الزَّوالِ، لأنَّهم اتَّعظُوا بما حَلَّ بالسُّفْيَانيِّينَ، فقد انتهتْ خلافَتُهم بعدَ مَوْتِ معاويةَ الثاني، وأوْشَكَ الحُكْمُ الأُمَويُّ على الانْهيارِ، لأن معاويةَ الثاني لم يُرَشِّحْ أحداً من أهْلِ بَيْتِه للخلافة[٣]، فاجْتَهدَ المَرْوَانيُّونَ أنْ يَصُونُوا سُلْطانَهم، وأنْ تَظَلَّ الخلافةُ فيهم، ولا تَنْتَقِلَ إلى أُسْرةٍ أخرَى من الأُمويِّينَ، ولا إلى فَرْعٍ ثانٍ من القُرَشِيِّينَ، ولا إلى غَيْرِهم من المسلمينَ،

---

(١) تاريخ الطبري ٥ : ٣٠٤، والإمامة والسياسة ١ : ١٨٤.

(٢) تاريخ الطبري ٦ : ٥٥١، والكامل في التاريخ ٥ : ٣٩، والبداية والنهاية ٩ : ١٨٢.

(٣) تاريخ اليعقوبي ٢ : ٢٥٤، وتاريخ الطبري ٥ : ٥٣٠، ومروج الذهب ٣ : ٨٢، والكامل في التاريخ ٤ : ١٣٠.

وأيَّدَهم في ذلك أهْلُ الشامِ، لأنهم كانوا يُريدُونَ أنْ تَسْتَمِرَّ الخلافةُ في أيديهم، حتى لا تَسْقُطَ دَولتُهم، ولا تَضْعَفَ سيادتُهم، ولا تَتَعَطَّلَ مَنافِعُهم، ولا تَنْقَطِعَ فَوائِدُهم[١].

وكَشَفَ المَرْوانيُّونَ عن هذه الغايةِ كَشْفاً دقيقاً، فقد رَوَى البلاذريُّ أنَّ سليمانَ بن عبدِ الملكِ قال وقد عَقَدَ العَهْدَ لعمرَ بنِ عبد العزيز، ثم ليزيد ابنِ عبدِ الملك من بَعْدِه[٢] : « لولا أنِّي أخافُ اخْتِلافَ بني مَرْوانَ بَعْدي، وَوُقوعَ الفِتْنَةِ بذلكَ السَّببِ ما وَلَّيْتُ يزيدَ، ولا قَصَرْتُ على عمرَ بنِ عبد العزيز»، وقالَ رجاءُ بنُ حَيْوةَ الكِنْديُّ : قال لي سليمانُ بنُ عبدِ الملكِ[٣] : « كيف تَرَى في عمرَ بن عبد العزيز ؟ فقلت : أعْلَمُهُ واللهِ خَيِّراً فاضلاً مُسْلِماً، فقال : هو واللهِ على ذلك، ثم قال : واللهِ لئنْ وَلَّيْتُهُ ولم أُولِّ أحداً سِوَاهُ، لَتَكونَنَّ فِتْنَةٌ، ولا يَتْركونَهُ أبداً يَلي عليهم، إلَّا أنْ يُجْعلَ أحدُهم بَعْدَهُ، فإنَّ ذلك مما يُسكِّنُهُمْ ويَرْضَوْن به، قلتُ : رَأيكَ »، وقال البلاذريُّ[٤] : « قال عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ وهو يَحْتَضِرُ : لو اخْتَرْتُ للأمةِ غيرَ يزيدَ كانَ أوْلَى، ولكني أخافُ إنْ أخْرَجْتُها من بني عبدِ الملكِ أنْ يقعَ في ذلك فِتْنةٌ وفُرْقةٌ، وأنا أُوَلِّي سليمانَ ما تَوَلَّى، والمسلمونَ أوْلَى بالنَّظرِ في أمْرِهم » !

فأشدُّ خُلَفائِهم وَرَعاً وتَقْوى، وأكثرُهم عبادةً ونُسْكاً، وأوْفَرُهم فَضْلاً وخَيْراً، وأعْظَمُهم دَعْوةً إلى الإصْلاحِ واتِّباعِ السُّنةِ، كانَ يَتجنَّبُ أنْ يُبْعِدَ

---

(١) مقدمة في تاريخ صدر الإسلام ص : ٦٧.

(٢) أنساب الأشراف المخطوط ٢ : ١٨٠.

(٣) تاريخ الطبري ٦ : ٥٥٠، والكامل في التاريخ ٥ : ٣٩، وانظر العقد الفريد ٤ : ٤٣٠، والبداية والنهاية ٩ : ١٨٢.

(٤) أنساب الأشراف المخطوط ٢ : ١٨٠.

أوْلادَ عبدِ الملكِ بنِ مَرْوانَ عن الخلافةِ، هَيْبةً لِجَبرُوتِهم وسَطْوتهم، ورَهْبةً من سُخْطِهم وثَوْرتهم، وحمايةً لِوَحْدَتهم وقُوَّتهم، وخشيةً على مُلْكِهم ودَوْلَتهم !!

وضَماناً لبقاءِ الخلافةِ فيهم، وصَوْناً لها من أنْ تخرجَ منهم، عَمَدَ كلُّ خليفةٍ من الخلفاءِ المَرْوانيِّينَ إلى تَعْيينِ وَلِيَّيْنِ لِعَهْدِه، كان يختارُهما من أبنائِه، أو من أبنائِه وإخوانِه، أو من إخوانِه وغيرِهم من حَفَدةِ مَرْوانَ بنِ الحكمِ (١)، والْتَزمُوا ذلك، ولم يَحِيدُوا عنه من أيامِ مروانَ بنِ الحكمِ إلى أيامِ مَرْوانَ بنِ محمدٍ (٢).

وعلى أنَّ الأُمويِّينَ أخَذُوا بنظامِ ولايةِ العَهْدِ ووراثةِ الخلافةِ، فإنَّهم لم يَتمسَّكُوا به تَمسُّكاً وثيقاً، بل تَأثَّروا مَبْدَأَ السِّيادةِ القَبليِّ (٣)، إذْ كانوا في الغالبِ يَعْقِدُونَ العَهْدَ لِأفْضَلِ أبنائهم، ومَنْ تَجْتمعُ فيه مَعالمُ النَّجابةِ والنَّباهةِ ومَلامِحُ الرئاسةِ والسياسةِ منهم، وكانوا في بعضِ الأحْيانِ لا يَعْهَدُونَ بالخلافةِ إلى أبْنائهم، بل إلى إخْوانهم وبعضِ حَفَدةِ مَرْوان بنِ الحكمِ من غيرِ أوْلادِ عبدِ الملكِ بنِ مروانَ، كما يَظْهرُ في مُبايعةِ الوليدِ بنِ عبدِ الملكِ لأخَويْهِ سليمانَ ويزيدَ (٤)، ومُبايَعةِ سليمانَ بنِ عبدِ الملكِ لابنِ عمه

---

(١) انظر كتابي الوليد بن يزيد عرض ونقد ص : ٣٦٨.

(٢) انظر تاريخ خليفة بن خياط ١ : ٣٢٨، ٣٧٧، وتاريخ الطبري ٥ : ٦١٠، ٦ : ٤١٦، ٤٩٨، ٤٩٩، ٥٣١، ٥٥٠، ٧ : ٢٠٩، ٢١٨، ٢٩٥، ٣١٤، والكامل في التاريخ ٤ : ١٨٩، ٥١٤، ٥ : ٣٩، ٦٧، ٩١، ٢٦٤، ٣٠٨، ٣١١، ٣٣٠.

(٣) مقدمة في تاريخ صدر الإسلام ص : ٦٦.

(٤) تاريخ الطبري ٦ : ٤٩٩.

عمرَ بنِ عبدِ العزيز، وأخيه يزيدَ بنِ عبدِ الملكِ [1]، ومبايعة يزيدَ بنِ عبدِ الملَك لأخيه هشامٍ، وابنهِ الوليدِ بن يزيد [2]. وكانوا في بعضِ الأحيانِ لا يُسْنِدُونَ ولايةَ العَهْدِ إلى أبنائهم ولا إلى إخوانهم، بل إلى شخصياتٍ مَرْمُوقةٍ من بني أميَّةَ، فإنَّهم انْتَخبُوا مروانَ بنَ الحكمِ بعدَ مَوْتِ معاويةَ الثاني، لأنَّهُ كانَ « سيِّدَ بني أميَّةَ [3] »، « وشَيْخَ قُريش [4] »، أَوْ « كبيرَ قُرَيْشٍ وسيِّدَها [5] »، أوْ « كبيرَ قُرَيْشٍ والمَنْظورَ إليه منها [6] » وبه تَحوَّلت الخلافةُ من فَرْعٍ إلى فَرْعٍ آخرَ من بني أميَّةَ، إذ انتهتْ خلافةُ الأُسْرةِ السُّفْيانيةِ، وابتدأت خلافةُ الأسْرةِ المَرْوانيةِ، وبايَعُوا مروانَ بنَ محمدٍ بعدَ ثَوْرتِه على إبراهيمَ بنِ الوليدِ ابنِ عبدِ الملكِ [7]، لأنه كانَ « شيْخَ بني أميَّةَ وكبيرَهم [8] »، أوْ « شيْخَ قَوْمِه وسيِّدَهم [9] »، وبه انْتقلتِ الخلافةُ من فَرْعٍ إلى فَرْعٍ آخرَ من حَفَدةِ مروانَ بنِ الحكمِ، إذْ خرجتْ من أوْلادِ عبدِ الملكِ بن مروانَ، وصارتْ إلى أوْلادِ أخيهِ محمدِ بنِ مَرْوان [10].

وتأثَّروا أيضاً مَبْدأَ الشُّورَى الإسْلاميَّ، فإنَّهم كانُوا في بعضِ الأحْيانِ يَعْقدونَ العَهْدَ لأكْثرِهم تَديُّناً ووَرعاً، وأرْسَخهم عِلْماً وفِقْهاً، وأعْلاهم زُهْداً

---

(١) أنساب الأشراف المخطوط ٢ : ١٨٠، وتاريخ الطبري ٦ : ٥٥١، والكامل في التاريخ ٥ : ٣٩.

(٢) تاريخ الطبري ٧ : ٢٠٩.

(٣) الأخبار الطوال ص : ٢٨٥.

(٤) طبقات ابن سعد ٥ : ٤٠، وأنساب الأشراف ٥ : ١٣٤، ١٤١

(٥) تاريخ الطبري ٥ : ٥٣٠، والكامل في التاريخ ٤ : ١٤٥، وشرح نهج البلاغة ٦ : ١٥٦.

(٦) أنساب الأشراف ٥ : ١٣١.

(٧) تاريخ الطبري ٧ : ٣١٢، والكامل في التاريخ ٥ : ٣٢٣.

(٨) الأخبار الطوال ص : ٣٥٠.

(٩) الأخبار الطوال ص : ٣٥٠.

(١٠) انظر مقدمة في تاريخ صدر الإسلام ص : ٦٦.

وتَوَاضُعاً، وأحْسَنهم عملاً بالكتابِ والسُّنة، كما يَظْهرُ في اسْتِخْلَافِ سليمانَ ابنِ عبدِ الملكِ لعمرَ بنِ عبدِ العزيزِ، وتَقْديمِه له على أخيهِ يزيدَ بنِ عبدِ الملكِ[1]، لأنه كانَ خيرَ قَوْمِهِ وأحدَ صُلَحاءِ الأُمَّة. وسببُ ذلك أنَّ الرُّوحِ الإِسْلاميَّةَ أخَذَتْ تَقْوَى في شَخْصيَّاتِ الخلفاءِ المَرْوانِيِّينَ شيئاً فشيئاً حتى تَأَصَّلَتْ فيها[2]، وجَعَلَتْ تُوازِنُ الرُّوحَ العَربيَّةَ وتُسَاوِيها، فقامتْ سياستُهم على التَّلاحُمِ الوثيقِ بينَ التَّعاليمِ الإِسْلاميَّةِ والمَفاهِيمِ العَربيَّة[3].

(٣) « مَذْهَبُ الجَبْرِ في وِلَايةِ العَهْدِ »

وعلى نَحْوِ ما اعْتَمَدَ الأُمويُّونَ على مَذْهَبِ الجَبْرِ لِتَسْويغِ حَقِّهم في الخلافةِ والاحْتجاجِ له فإنَّهم اعْتَمدُوا عليه أيضاً لِتَسْويغِ حَقِّهم في عَقْدِ البَيْعَةِ لأَوْلياءِ عُهُودِهم والاحْتجاجِ له، وكانَ معاويةُ بنُ أبي سفيانَ الذي ابْتَدَعَ نظامَ ولايةِ العَهْدِ هو أوَّلَ مَنْ ذكرَ ذلك منهم، وعَوَّلَ عليه في مُقَاومتِه لِخُصومِهِ الذين عَارَضُوا اسْتِخلافَهُ لابنِه يزيدَ، إذْ يقولُ في سياقِ مُنَاظرتِه لهم وردِّه عليهم[4] : « إنَّما هو المُلْكُ يُؤْتيهِ اللهُ مَنْ يشاءُ »، ويقول[5] : « إنَّ أمْرَ يزيدَ قَضَاءٌ منَ القَضَاءِ، وليسَ للعِبادِ الخِيَرَةُ مِنْ أمْرِهم ».

(١) أنساب الأشراف المخطوط ٢ : ١٨٠، وتاريخ الطبري ٦ : ٥٥٠، والكامل في التاريخ ٥ : ٣٩.

(٢) تاريخ الدولة العربية ص : ٢٠٨، ٢١٦، ٢٥٦، ٣٣٤.

(٣) الشعراء من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية ص : ٢٦.

(٤) الإمامة والسياسة ١ : ١٩١.

(٥) الإمامة والسياسة ١ : ١٨٣، ١٨٧.

(٤) « شَرْحُ الوَليدِ الثَّاني لِمَذْهَبِ الجَبْرِ في وِلَايةِ العَهْدِ »

ونَحا الأُمويُّونَ نَحْوَ مُعاويةَ، في الاسْتِعانةِ بِمَذْهَبِ الجَبْرِ لِتَقْريرِ حَظِّ أَوْلياءِ عُهُودِهم من الخلافةِ، والانْتِصارِ له، والوليدُ بنُ يزيدَ بنِ عبدِ الملكِ هو أَهَمُّ مَنْ صَوَّرَ نظريتَهم في وِلايةِ العَهْدِ، وبَسَطَها بَسْطاً واسعاً في القِسْمِ الثاني مِنْ كِتابِه في عَقْدِ البَيْعَةِ لِوَلَدَيْهِ، وهو يَنْسابُ على هذا النَّمط[1] : « ثم إنَّ اللهَ ـــ وله الحَمْدُ والمَنُّ والفَضْلُ ـــ هَدَى الأُمَّةَ لِأَفْضَلِ الأُمورِ عاقبةً لها في حَقْنِ دِمَائها، والْتِئامِ أُلْفَتِها، واجْتماعِ كَلِمتها، واعْتِدالِ عَمُودِها، وإصْلاحِ دَهْمائها، وذُخْرِ النِّعْمةِ عليها في دُنياها، بعدَ خِلافته التي جَعلها لهم نِظاماً، ولأمرِهم قواماً، وهو العَهْدُ الذي أَلْهَمَ اللهُ خُلفاءَهُ تَوْكيدَهُ، والنَّظَرَ للمسلمينَ في جَسيمِ أَمْرِهم فيه، ليكونَ لهم عندَما يَحْدُثُ بخُلَفائِهم [حَدَثُ المَوْتِ[2]] ثقةً في المَفْزعِ، ومُلْتجأً في الأَمْرِ، ولَمًّا للشَّعثِ، وصَلاحاً لذاتِ البَيْنِ، وتَثْبيتاً لأَرْجاءِ الإِسْلامِ، وقَطْعاً لنَزَغاتِ الشَّيْطانِ فيما يتطلعُ إليه أَوْلِياؤُهُ، ويُوثِبُهم عليه من تَلَفِ هذا الدِّينِ، وانْصِداعِ شَعْبِ أَهْلِهِ، واخْتلافِهم فيما جَمَعهم اللهُ عليه منه، فلا يُريهم اللهُ في ذلك إلَّا ما ساءَهم، وأَكْذَبَ أمانِيَّهم، ويَجدُونَ اللهَ قد أَحْكَمَ بما قَضَى لأَوْليائِه من ذلك عُقَدَ أُمورِهم، ونَفَى عنهم مَنْ أرادَ فيها إدْغالاً[3] أو بها

---

(١) تاريخ الطبري ٧ : ٢٢١.

(٢) زيادة يتم بها المعنى.

(٣) الإدغال : من أدغل في الأمر إذا أدخل فيه ما يفسده ويخالفه.

إغْلالاً[١]، أوْ لما شَدَّدَ اللهُ منها تَوْهيناً، أوْ فيما تَولَّى اللهُ منها اعْتِماداً، فأكمل اللهُ بها لخُلفائِه وحِزْبهِ البَرِّ الذين أوْدَعُهم طاعَتَهُ أحْسَنَ الذي عَوَّدَهم، وسَبَّبَ لهم من إعْزازِهِ وإكْرامِهِ وإعْلائِهِ وتَمْكينِه.

فأمْرُ هذا العَهْدِ من تَمامِ الإسْلامِ، وكمالِ ما اسْتَوْجَبَ اللهُ على أهْلِه من المِنَنِ العِظامِ، ومما جعل اللهُ فيه لمنْ أجراهُ على يَدَيْه، وقَضَى به على لسانِه، ووَفَّقَهُ لمن وَلَّاهُ هذا الأمْرَ عندَهُ أفْضَلَ الذُّخْرِ، وعندَ المسلمينَ أحسنَ الأثَرِ فيما يُؤْثِرُ بهم من مَنْفعَتِه، ويَتَّسعُ لهم من نِعْمتِه، ويَسْتنِدُونَ إليه من عِزِّه، ويَدْخُلونَ فيه من وَزَرِه[٢]، الذي يجعلُ اللهُ لهم بهِ مَنَعةً، ويَحْرُزُهم به من كلِّ مَهْلكةٍ، ويَجْمَعُهم به من كلِّ فُرْقةٍ، ويَقْمعُ به أهْلَ النِّفاقِ، ويَعْصِمُهم به من كلِّ اخْتلافٍ وشِقاقٍ.

فاحْمَدُوا اللهَ ربكم الرؤوفَ بكم، الصَّانعَ لكم في أمورِكم على الذي دَلَّكم عليه من هذا العَهْدِ، الذي جعلَهُ لكم سكناً ومُعَوّلاً تطمئنُّون إليه، وتَسْتَظِلُّونَ في أفْنائِهِ، ويَسْتَنْهِجُ[٣] لكم به مَثْنَى أعْناقكم، وسِماتِ وُجُوهِكم، ومُلْتَقى نَواصِيكم في أمْرِ دينكم ودنياكم، فإنَّ لذلك خَطَراً عظيماً من النِّعْمةِ، وإنَّ فيه من اللهِ بلاءً حسناً في سَعَةِ العافيةِ، يَعْرِفُهُ ذوو الألْبابِ والنِّياتِ المُرَيِّئون[٤] من أعْمالهم في العَواقِبِ، والعَارِفُونَ منارَ مناهجِ الرُّشدِ، فأنتم حقيقونَ بشكرِ اللهِ فيما حفظَ به دينكم وأمْرَ جَماعتكم من ذلك، جَدِيرونَ بِمَعْرِفةِ كُنْهِ واجبِ حَقِّهِ فيه، وحَمْدِهِ على الذي عَزَمَ لكم منه،

---

(١) الإغلال : الخيانة.

(٢) الوزر : الملجأ.

(٣) يَسْتَنْهِجُ : يُوضِحُ ويُبين.

(٤) المريئون : الذين ينظرون في الأمور ويتعقبونها ولا يعجلون بالجواب.

فَلتكنْ مَنْزلةُ ذلك منكم، وقَضِيَّتُهُ في أَنْفسِكم على قَدْرِ حُسْنِ بلاءِ اللهِ عندكم فيه، إنْ شاءَ اللهُ، ولا قُوَّةُ إلَّا باللهِ.

ثم إنَّ أميرَ المؤمنينَ لم يكن منذ استَخْلفَهُ اللهُ بشيءٍ من الأمورِ أشَدَّ اهتماماً وعنايةً منه بهذا العَهْدِ، لِعِلْمِه بمنزلتِه من أمْرِ المسلمينَ، وما أراهُمُ اللهُ فيه منَ الأمور التي يَغْتَبِطُونَ بها، ويُكْرِمُهم بما يَقْضي لهم، ويَخْتَارُ له ولهم فيه جُهْدَهُ، ويَسْتَقْضي له ولهم فيه إلٰهَهُ ووَلِيَّهُ، الذي بِيدِه الحكمُ، وعِنْدَهُ الغَيْبُ، وهو على كلِّ شيءٍ قَديرٌ، ويسألُهُ أنْ يُعِينهُ من ذلك على الذي هو أرْشَدُ له خاصةً، وللمسلمينَ عامةً.

فَرَأى أميرُ المؤمنينَ أنْ يَعْهَدَ لكم عَهْداً بعدَ عَهْدٍ، تكُونونَ فيه على مِثْلِ الذي كان عليه مَنْ كان قبلكم، في مُهْلَةٍ من انْفِساحِ الأملِ، وطمأنينةِ النَّفْسِ، وصَلَاحِ ذاتِ البَيْنِ، وعِلْمِ مَوْضعِ الأمْرِ، الذي جَعلَهُ اللهُ لأهْلِهِ عِصْمةً ونَجاةً وصَلاحاً وحياةً، ولكلِّ منافقٍ وفاسِقٍ يُحِبُّ تَلفَ هذا الدِّينِ وفَسَادَ أهْلِهِ وَقْماً[1] وخساراً وقَدْعاً[2]. فولَّى أميرُ المؤمنينَ ذلكَ الحَكَم ابنَ أميرِ المؤمنين، وعثمانَ ابنَ أميرِ المؤمنينَ من بعدِه، وهما ممنْ يرجُو أميرُ المؤمنين أنْ يكونَ اللهُ خَلَقَهُ لذلك وصاغَهُ، وأكْملَ فيه أحْسَنَ مَنَاقِبِ مَنْ كانَ يُوَلِّيه إيَّاهُ، في وفاءِ الرَّأْيِ وصِحَّةِ الدِّينِ، وجزالةِ المروءَةِ والمَعْرِفةِ بصالحِ الأُمُورِ، ولم يألُكُمْ أميرُ المؤمنينَ ولا نَفْسهُ في ذلك اجْتهاداً وخَيْراً.

فَبايِعُوا لِلْحكمِ ابنِ أميرِ المؤمنينَ باسْمِ اللهِ وبركتِه، ولأخيه من بَعْدِهِ على السَّمْعِ والطاعةِ، واحْتَسِبُوا في ذلك أحْسَنَ ما كانَ اللهُ يُريكم

---

(١) الوقم : الإذلال.

(٢) القدع : الكَفُّ والمنع.

وَيُبْليكم[1] ويُعَوِّدكم وَيُعَرِّفكم في أشْباهِهِ فيما مَضَى، من اليُسْرِ الواسعِ والخَيْرِ العامِ، والفَضْلِ العظيمِ، الذي أصْبَحْتُم في رَخَائِه[2] وخَفْضِه وأمْنِه ونِعْمتِه وسَلَامتِه وعِصْمتِه. فهو الأمْرُ الذي اسْتَبْطأْتُمُوهُ واسْتَسْرَعْتُمْ إليه، وحَمِدْتُمُ اللهَ علَى إمْضائِه إيَّاهُ، وقضائِه لكم، وأحْدَثْتُمْ فيه شُكْراً، ورأيتمُوهُ لكم حَظًّا، تَسْتَبقُونَهُ وتَجْهَدُونَ أنْفُسَكُمْ في أداءِ حَقِّ اللهِ عليكم، فإنَّهُ قد سبقَ لكم في ذلك من نِعَمِ اللهِ وكرامتِه وحُسْنِ قَسْمِه ما أنتم حقيقونَ أنْ تكونَ رَغْبتُكُم فيه، وحَدَبُكُمْ عليه، على قَدْرِ الذي أبْلاكُمُ اللهُ، وصَنَعَ لكم منه.

وأميرُ المؤمنينَ مع ذلك إنْ حَدَثَ بواحدٍ من وَلِيَّي عَهْدِهِ حَدَثٌ، أوْلَى بأنْ يَجْعَلَ مكانَهُ وبالمَنْزِلِ الذي كانَ به مَنْ أحَبَّ أنْ يَجْعَلَ من أمتِه أوْ وَلَدِه، ويُقَدِّمَهُ بينَ يَدَي الباقي منهما إنْ شاءَ اللهُ، أوْ أنْ يُؤَخِّرَهُ بَعْدَه، فاعْلَمُوا ذلك وافْهَمُوهُ.

نَسْأَلُ اللهَ الذي لا إلٰهَ إلَّا هو، عالمَ الغَيْبِ والشَّهادةِ، الرحمٰنَ الرَّحيمَ أنْ يُبارِكَ لأميرِ المؤمنينَ ولكم في الذي قَضَى به على لِسَانِه من ذلك وقَدَّرَ منه، وأنْ يَجْعَلَ عاقِبَتَهُ عافيةً وسُرُوراً وغِبْطَةً، فإنَّ ذلك بيدِه، ولا يَمْلكُهُ إلَّا هو، ولا يُرْغبُ فيه إلَّا إليه. والسَّلامُ عليكم ورحمةُ اللهِ ».

فهو يَتَشبَّثُ بنظامِ وِلايةِ العَهْدِ، ويَسْتَرْسِلُ في شَرْحِهِ، ويُنَوِّهُ بقيمتِه، ويُشيدُ بمعاويةَ بن أبي سفيانَ الذي ابْتكَرَهُ وقَرَّرهُ، ويُعْلِنُ أنَّ اللهَ رَضيَ عنه لأنه اخْتَرَعَهُ وشَرَعه للخلفاءِ الأُمَويِّين من بَعْدِهِ، ويُحَذِّرُ من المُماراةِ في قِيمَتِهِ، ويَرَى أنَّ الاتِّفاقَ عليهِ، والاعْتِقادَ بهِ، والانْصِياعَ له جُزْء مِنْ أجْزاءِ الإسْلامِ، وأساسٌ من أُسُسِ الإخْلاصِ في الإيمانِ، ومَظْهَرٌ من مَظَاهِرِ

---

(١) يبليكم : ينعم عليكم ويحسن إليكم.

(٢) في الأصل : رجائه.

الصَّلاحِ في العَملِ، ويُصَرِّحُ بأنَّ مَنْ صَوَّبَهُ ونَصَرَهُ، سَلَّمَ لإرادةِ اللهِ، وصَدَعَ بأمْرِهِ، وفازَ بِرِضوَانِهِ، ونالَ عظيمَ ثوابه، وأنَّ مَنْ خَطَّأهُ وأنكَرهُ، خَرَجَ على مَشيئةِ اللهِ، وكَذَّبَ بقضائِه، وباءَ بِغَضَبِه، ونَزَلَ بهِ أليمُ عَذَابِه !!

وهو يُشيرُ إلى أنه اهْتَمَّ بذلك العَهْدِ، وشُغِلَ به منذ قيامِه بالخلافةِ، وأنه اسْتخارَ اللهِ فيه، فوفَّقَهُ إلى المُبايَعةِ به لِولديْه، حتى يَعْرِفَ المسلمونَ مَوْضِعَ الأمْرِ، ومُسْتَقَرَّ الخلافةِ، فَتطمئن نُفوسُهم إلى مُسْتَقْبلِهم، ولا تَتَفـرَّق كلمتُهم، ولا تَتَشتَّت جَماعَتُهم بَعْدَ وَفاتِه.

وهو يُثْني على وَلِيَّيْ عَهْدِهِ ويُزكّيهما، ويَظُنُّ أنَّهما أهْلٌ لما خَصَّهُما به، بل مِمَّنْ بَرأهُ اللهُ لذلك وصَوَّرَهُ لهُ، لما تَبيَّنَ من حُسْنِ إسْلامِهما، وسعَةِ عِلْمِهِما، ورَصَانةِ رَأْيِهما، وعُلُوِّ مَنْزِلتهما، ووَفْرةِ شَرَفِهما.

وهو يَنْزِعُ في ذلك كُلِّهِ عن مَذْهَبِ الجَبْرِ، إذْ يَجْهَرُ بأنَّ اللهَ هو الذي هَدَى الأُمويِّينَ إلى نِظامِ ولايةِ العَهْدِ، وأنه هو الذي اصْطَفَى أوْلياءَ عُهُودِهم. قَدَّرَ لهم أنْ يَتولَّوا الخلافةَ، تَمكِيناً للإسْلامِ، وتأميناً للمُسْلمينَ.

وعلى أنَّ الوليدَ اتَّبعَ صَنيعَ أسْلافِهِ من الخلفاءِ المَرْوانِيِّينَ بِتَعْيينه وَلِيَّيْنِ لِعَهْدِهِ، حِرْصاً على أنْ تَسْتَمِرَّ الخلافةُ فيهم، ومَنْعاً لها من أنْ تَصيرَ إلى غَيْرِهم، فإنه خَالَفَ سُنَّتَهم بِمُبايعتِه لابْنِه الحكَمِ، وجَعْلِه إيَّاهُ وَلِيَّ عَهْدِهِ الأَوَّلَ [1]، وهو ابنُ سُرِيَّةٍ أَمَةٍ [2]، وتأخِيرِهِ لابْنِهِ عثمانَ عنه، وجَعْلِهِ إيَّاهُ وَلِيَّ

(١) أنساب الأشراف المخطوط ٢ : ٣٢٠، وتاريخ الطبري ٧ : ٢١٨، وتهذيب تاريخ ابن عساكر ٤ : ٤١٣، ٤١٤، والكامل في التاريخ ٥ : ٢٦٩، ووفيات الأعيان ٧ : ١١١، وعيون التواريخ المخطوط ٥ : ١٧ و. وفي بعض الرِّوايات أنَّ الوليد قَدَّمَ عثمان، (الأغاني ٧ : ٧٠)، وهو خطأ، والصَّواب أنه قدَّم الحكم، كما وَرَد في أكثر الرِّوايات، وكما وَرَدَ في كتاب العَهْد نفسه.

(٢) نسب قريش ص : ١٦٧، وأنساب الأشراف المخطوط ٢ : ٣١٠، وجمهرة أنساب العرب ص : ٩١، وتهذيب تاريخ ابن عساكر ٤ : ٤١٤.

عَهْدِه الثَّانيَ، وهو ابنُ عَربيَّةٍ حرة، فهو ابنُ عَاتِكةَ بنتِ عثمانَ بنِ محمدِ ابنِ عثمانَ بنِ محمدِ بنِ أبي سُفْيانَ [1]، فإنَّهم كانوا يَحْجبونَ وِلايةَ العَهْدِ عن أبْناءِ الإماءِ الهُجَناءِ، ويُخْلِصُونَها لأبْناءِ الحرائرِ الصُّرَحاءِ، وكانوا إذا هَمُّوا بِعَقْدِ العَهْدِ لأحَدِهم، لا يَلْبَثُونَ أنْ يُحْجِمُوا عن ذلك، ويأْنَفُوا منه، ويَكُفُّوا عنه، فقد أرادَ سليمانُ بنُ عبد الملكِ أنْ يُبَايعَ لابنِه دَاوُدَ بعدَ ابْنِه أيُّوبَ، ثم عَدَلَ عنه [2]، وإنَّما صَرَفَهُ عن البَيْعةِ له أنه كانَ ابن أَمَةٍ [3]، وأنَّه شاعَ بينَهم أنَّ مُلْكَهم يَذْهَبُ على يَدِ خليفةٍ منهم أُمُّهُ أَمَةٌ [4].

ويَدُلُّ عهْدُهُ بالخلافةِ إلى ابنِ الأَمَةِ على تَطَوُّرٍ في فِكْرِهِ السياسيِّ، وهو تَطَوُّرٌ نشأَ عن عُمْقِ فَهْمِه للإسْلامِ، واسْتجابتِه لما يَدْعُو إليه من المؤاخاةِ بينَ المسلمينَ والمُسَاواةِ بينَهم على اختلافِ أجْناسِهم وألْوانِهم، مما أدَّى إلى تَخَلُّصه من عُقْدةِ النَّسَبِ التي كان الخلفاءُ المَرْوانِيُّونَ السَّابقونَ يتحرَّجُونَ منها، ولا يَجْرُؤُونَ على التَّخلي عنها.

وكأنه أدْرَكَ ما طَرَأَ على مَعْنَى النَّسبِ من تَغَيُّرٍ، لِاخْتلاطِ العَربِ بِغيرِهم من الأُممِ التي دَخَلَتْ في الإسْلامِ، وارْتَبَطَتْ بالعَربِ، ووَالتْهُم وَلاءَ حِلْفٍ، لا وَلاءَ عِتْقٍ، ومَرَّ زَمنٌ طويلٌ على إسْلامِها وتَعَرُّبها، حتى أصْبَحَتْ جزءًا من المُجْتمعِ العَربيِّ الإسْلاميِّ، فانْتَقَلَ مَعْنَى النَّسَبِ من العِرْقِ والدَّمِ إلى اللُّغةِ والدِّينِ.

---

(١) نسب قريش ص : ١٦٧، وأنساب الأشراف المخطوط ٢ : ٣١٠، وجمهرة أنساب العرب ص : ٩١.

(٢) تاريخ الطبري ٦ : ٥٥٠، وتهذيب تاريخ ابن عساكر ٥ : ٢٠٧، والكامل في التاريخ ٥ : ٣٩، والبداية والنهاية ٩ : ١٨١.

(٣) تهذيب تاريخ ابن عساكر ٥ : ٢٠٦.

(٤) عيون التواريخ المخطوط ٥ : ٢٠ ظ، والبداية والنهاية ١٠ : ٤٧.

ورُبَّما كان في أخْذِهِ البَيْعَةَ لابنِ الأَمَةِ ما يُشِيرُ إلى رَغْبتِهِ في مُراعاةِ المَوالي، وعنايتِهِ بهم، واحْتِرامِهِ لهم، واشْتِغالِهِ بِمُشْكلاتِهِم، ووَعْيِهِ لِمَطامِحِهِم، وعَزْمِهِ على إشْراكِهِم بالتَّدْريجِ في أرْفعِ المَناصِبِ السِّياسيةِ التي احْتَكَرَها العَرَبُ، فاسْتَخْلَفَ ابْنَهُ الحكَمَ، ولم يَأْبَهْ باحْتجاجِ أبْناءِ عَمَّيْهِ هشامٍ والوليدِ عليه[1]، ولا بانْتِقادِ نَفَرٍ من سادةِ أهْلِ دِمَشْقَ له[2]، بل تَصَدَّى لهم، فَتَحامَلَ على بعضهم، ونَكَّلَ بِبَعْضهم.

وفي شِعْرِ الوليدِ الصَّحيحِ ما يَقْطَعُ بأنَّهُ كان يُؤْمِنُ بأنَّ ابْنَهُ الحكَمَ ليس أقَلَّ شأناً من أبْنائِهِ الآخرينَ الذين أُمَّهاتُهم من الأَمِيراتِ الأُمويَّاتِ، فهو يَرْفَعُ منه، ويُدافِعُ عنه مُسْتَلْهِماً ما يُنادي به الإسْلامُ من أنَّ المسلمينَ يَتكافَأُونَ ويَتَعادَلُونَ في الحُقوقِ والوَاجباتِ، ويَتمايَزُونَ ويتفاضَلُونَ بالتَّقْوَى والعَمَلِ، إذْ يَصِفُهُ بأنَّهُ أفْضَلُ النَّاسِ، لِنَشْأتِهِ المُسْتقيمةِ، ويَفْتَرِضُ أنَّ صَلاحَهُ في صِغَرِهِ يُنْبِىءُ بِصَلاحِهِ في كِبَرِهِ، ويَصِفُهُ بأنَّهُ اتَّقَى اللهَ في أفْعالِهِ، ويَرْجُو أنْ يُؤْذِنَ حُسْنُ أعْمالِهِ السَّابقةِ بِحُسْنِ أعْمالِهِ اللاَّحِقةِ، ويُؤَكِّدُ عُرُوبَتَهُ، إذْ يَصِفُهُ بأنَّهُ سَيِّدٌ مِنْ ساداتِ قُرَيْشٍ اكْتَسَبَ كَرَمَ النَّسَبِ وشَرَفَ المَنْبِتِ مِنْ جِهَةِ أبيهِ، فهو يَقُولُ مَادِحاً له، ومُنَافِحاً عنه[3]:

فَجَعَلْتُ الوَلِيَّ مِنْ بَعْدِ فَقْدي ... أفْضَلَ النَّاسِ نَاشِئاً وغُلَاماً
ذاكُمُ ابْنِي وذاكَ قَرْمُ قُرَيْشٍ ... خَيْرُ خَلْفٍ وخَيْرُهُمْ قُدَّاما[4]

---

(١) أنساب الأشراف المخطوط ٢ : ٣٢٧.

(٢) أنساب الأشراف المخطوط ٢ : ٣٢٧، وتاريخ الطبري ٧ : ٢٣٢، وتاريخ الموصل ص : ٥١، والكامل في التاريخ ٥ : ٢٨١.

(٣) أنساب الأشراف المخطوط ٢ : ٣١٨، والأغاني ٧ : ١٩، وشعر الوليد بن يزيد ص : ١١٠.

(٤) خير خلف : ممَّن حَسُنت أعمالهم السابقة، أخذه من قوله تعالى : « يَعْلَمُ ما بين أيديهم وما خَلْفهم »، (البقرة : ٢٥٥)، قال الزجاج : خلفهم : ما وقع من أعمالهم. (اللسان : خلف).

وبذلك تَجَاوَزَ الوليدُ جميعَ الخُلفاءِ المَرْوَانيِّينَ السَّابِقينَ، إذْ عَدَّلَ شَرْطَ النَّسَبِ في وَلِيِّ العَهْدِ، فاكْتَفَى بتَحقُّقِ صِفَةِ العُرُوبةِ الصَّافيةِ فيه من ناحيةِ أبيهِ، وتَغَاضَى عن تَحقُّقِها فيه مِنْ ناحيةِ أُمِّه.

(٥) « مَذْهَبُ الجَبْرِ في وِلَايةِ العَهْدِ في الشِّعْرِ الأُمَويِّ »

واسْتَظْهَر الشُّعراءُ المُوَالونَ للأُمويِّينَ نَظريَّتَهم في وِلايةِ العَهْدِ، كما اسْتَظْهرُوا نَظَريَّتَهم في الخِلافة، وأخَذُوا يَصْدُرُونَ عنها ويَتَّكِئُونَ عليها في تأييدِهم لِحقِّ الأُمَويِّينَ في تَعْيينِ أَوْلياءِ عُهُودِهم، مُدَّعِينَ أنَّ اللهَ أَوْحَى إليهم أنْ يُبايِعُوا لهم، لأنَّهُ أرادَ لهم أنْ يَتقَلَّدُوا الخِلافةَ من بَعْدِهم، إذْ يَقُولُ مِسْكينٌ الدَّراميُّ لمعاويةَ بنِ أبي سُفْيانَ حاثًّا له أنْ يَعْقِدَ العَهْدَ لابنِه يزيدَ، حينَ هَمَّ بتَرْشيحِهِ للخِلافةِ، وتَهَيَّبَ الإقدامَ على ذلك، وخافَ أنْ لا يُمالِئَهُ عليه الناسُ [١] :

بَنِي خُلَفاءِ اللهِ مَهْلاً فإنَّما يُبَوِّئُها الرحمنُ حيثُ يُريدُ
إذَا المِنْبَرُ الغَرْبيُّ خَلَّاهُ رَبُّهُ فإنَّ أميرَ المؤمنينَ يَزيدُ

ويقولُ جريرٌ لأيُّوبَ بن سليمانَ بنِ عبدِ عبدِ الملكِ زاعماً أنَّ اللهَ اخْتَارَهُ لِولَايةِ أَمْرِ المسلمينَ بعدَ أبيهِ، وقَضَى ذلكَ له منذُ القِدَمِ ، فإنَّ أحْبارَ اليَهودِ، ورُهْبانَ النَّصارَى يَعْرِفُونَ ذلك، لأنَّهُ وَرَدَ في كُتُبهم، ومُرَدِّداً أنَّ اللهَ أحَاطَهُ بعنايتِه ورعايتِه، وأتَمَّ عليه نِعْمَتَهُ، لورعه وتَدَيُّنِه، وأنَّ الأُمَّةَ فَرِحَتْ بِبَيْعتِه، وألْقَتْ إليه مَقاليدَ أمْرِها طائعةً راضيةً، لشجاعتِه ونَجْدَتِه [٢] :

---

(١) الشعر والشعراء ١ : ٥٤٤، والأغاني ٢٠ : ٢١٢، وخزانة الأدب ٣ : ٥٩، وشعر مسكين ص : ٣٣.

(٢) ديوان جرير ١ : ٣٤٩.

إنَّ الإمـامَ الـذي تُرْجَى نَوافِلُـــهُ بعـدَ الإمـامِ ولـيُّ العَهْـدِ أَيُّوبُ
قالَ البَرِيَّـةُ إذْ أعْطَـوْكَ مُلْكَهُـــمُ ذنْبٌ وفيكَ عنِ الأحْسَابِ تَذْيِيبُ
أَنْتَ الخليفـةُ للرَّحْمــنِ يَعْرِفُــهُ أَهْلُ الزَّبُورِ وفي التَّوْراةِ مَكْتُوبُ
اللهُ فَضَّلَــــهُ واللهُ وَفَّقَــــــهُ تَوْفيـقَ يُوسفَ إذْ وَصَّاهُ يَعْقُـوبُ
سُوِّسْتُمُ المُلْكَ في الدُّنيا ومَنْزِلكُمْ مَنـازِلُ الخُلْـدِ زَانَتْهَـا الأَكَاوِيبُ
لمَّا كَفيْتَ قُرَيْشاً كُلَّ مُضْلِعةٍ قَالَتْ قُرَيْشٌ فَدَتْكَ المُرْدُ والشِّيبُ (١)

ويقولُ الفرزدقُ له أيضاً مُفَصِّلاً أكثرَ المعاني التي ألمَّ بها جريرٌ في أبياتِه السَّالفةِ، فهو يَجْزِمُ بأنَّ اللهَ اصْطَفاهُ لِولايةِ العَهْدِ، وكَتَبَ له أنْ يقومَ بالخلافة بعد أبيه، لِرُشْدِهِ وطُهْرِهِ، وقَصْدِهِ وبرِّهِ، وفَضْلِهِ وخَيْرِه، وعَدْلِهِ ووَقارِهِ، وأنَّ الأمَّةَ سَعِدَتْ بولَايَتِه، وتَعَلَّقَتْ به، واتَّفقَتْ عليه، وانقادَتْ له، وأنَّ أحداً لا يَسْتَطيعُ أنْ يُبْطِلَ بَيْعَتَهُ، لأنها بَيْعةٌ مُوَثَّقةٌ، أرادَها اللهُ وبَارَكَهَا، وأيَّدَها ونَصَرَها (٢) :

قَضَتْ نَاقَتي ما كنتُ كَلَّفْتُ نَحْبَها
مِنَ الهَمِّ والحَاجِ البعيدِ نَعُورِها (٣)
إذا هي أدَّتْني إلى حَيْثُ تَلتقي
طوالبُ حاجاتٍ بعيدٍ مَسيرُها
إلى المُصْطَفَى بعدَ الوَلـيِّ الـذي لهُ
على النَّاسِ نُعْمَى يَمْلأُ الأَرْضَ نُورُها

---

(١) الحِمْل المُضْلِعُ : الثقيل على الأضلاع.

(٢) ديوان الفرزدق ١ : ٢٤٦.

(٣) سفر نعور : بعيد.

نَزَلْنَا بأَيُّوبٍ ولَمْ نَرَ مِثْلَهُ
إذا الأَرْضُ بالنَّاسِ اقْشَعَرَّتْ ظُهُورُها [1]

جَعَلْتَ لنا لِلْعَدْلِ بَعْدَك ضامناً
إذا أُمَّةٌ لمْ يُعْطِ عَدْلاً أَمِيرُها

أَقَمْتَ بهِ الأَعْنَاقَ بَعْدَكَ فَانْتَهَتْ
إليكَ بأَيْدي المُسْلِمِين مُشِيرُها

دَعَوْتَ لهم أنْ يَجْعَلَ اللهُ خَيْرَهم
وأنْتَ بِدَعْوَى بالصَّوابِ جَدِيرُها

أرادَ بهِ الباغُونَ كَيْداً فكادَهُمْ
بهِ رَبُّ بَرَّاتِ النُّفُوسِ خَبِيرُها

ولَوْ كَايَدَ العَهْدَ الذي في رِقابِهِمْ
له أَخْشَبَا جَنْبَيْ مِنىً وثَبِيرُها [2]

لِيَنْقُضْنَ تَوْكِيدَ العُهُودِ التي لهُ
لأَمْسَتْ ذُرَاها وهيَ دُكٌّ وغُورُها

أبُوكَ جُنُوداً بَعْدَما مَرَّ مُصْعَبٌ
تَفَلَّذَ عنهُ وهو يَدْعُو كثيرُها [3]

فأنْتَ أَحَقُّ النَّاسِ بالعَدْلِ والتُّقَى
وأنتَ ثَرَى الأَرْضِ الحَيَا وطَهُورُها

فأَصْبَحْتُما فينا كَدَاوُدَ وابْنِهِ
على سُنَّةٍ يُهْدَى بها مَنْ يَسِيرُها

---

(١) اقشعرت ظهور الأرض: تَقَبَّضَت وتجمَّعت من المحل والقحط.

(٢) الأخشبان: جبلان يضافان تارةً إلى مكة، وتارةً إلى مِنىً، أحدهما أبو قبيس، والآخر قعيقعان. وثبير: من أعظم جبال مكة، بينها وبين عرفة.

(٣) تفلَّذ عنه: تَقَطَّعَ وتَفَرَّقَ. وجنوداً: مفعول به ليدعو.

وذَكَرَ أولئك الشُّعَراءُ أنَّ أوْلياءَ عُهُودِ الأمويِّينَ اسْتَوْجَبُوا ولايَةَ العَهْدِ بما اسْتَوْجَبَ بِهِ الأمويُّونَ الخلافةَ، وهو أنَّهم صَفْوَةُ العَرَبِ، وخِيرَةُ المُسْلمينَ. أمَّا أنَّهم صَفْوَةُ العَربِ فلأنَّهم من قَوْمٍ هم أكْرَمُ العَربِ أصْلاً، وأشْرَفُهُمْ نَسَباً، وأرْجَحُهُمْ عَقْلاً، وأسْجَحُهُمْ خُلُقاً، وأرْحَبهُم صَدْراً، وأجْمَلُهم صَبْراً، وأكْثَرُهُمْ حَياءً، وأغْزَرُهُمْ عَطاءً، وأشَدُّهُمْ بَلاءً، وأعْظَمُهُمْ غَناءً، وأعْلاهُمْ شأناً، وأكْبَرُهُمْ وَزْناً، وأعَزُّهُمْ مَكاناً.

وقد تَوَسَّعُوا في إحْصَاءِ هذه الصِّفاتِ العَربيَّة فيهم، وأكْثَرُوا مِنْ تَكْرارها في مَدائِحهم لهم [1]، معَ الإشادةِ بها والتَّمْجيدِ لها. ومن أرْوَعِ ما لهم في ذلك قَوْلُ جريرٍ في عبدِ العزيزِ بنِ مَرْوَانَ، وهو وَلِيُّ عَهْدِ أبيهِ بعدَ أخيهِ عبدِ الملكِ بنِ مَرْوَانَ [2]:

طَلَبْنَ ابنَ لَيْلَى من رَجَاءِ فُضُولِهِ
ولولا ابنُ لَيْلَى ما وَرَدْنَ بنا مِصْرَا
حُمِدْتُمْ وَبُشِّرْنَا بِفَضْلِ نَداكُمُ
وكان كَشَيْءٍ قَدْ أحَطْنَا بهِ خُبْرا
إذا ما أناخَ الرَّاغبُونَ بِبَابِكُمُ
مَعَ الوَفْدِ لم تَرْجِعْ عِيَابُهُمْ صِفْرَا [3]
وقَالُوا لنا عبدُ العزيزِ عليكُمُ
هُنالِكَ تَلْقَى الحَزْمَ والنَّائلَ الغَمْرَا

---

(١) انظر ديوان الأخطل ص : ٩٣، ١١٩، ١٧١، وديوان جرير ٢ : ٦٧٢، ٧٤١، وديوان الفرزدق ١ : ١٢، وديوان كثير ص : ٢٩١، ٢٩٣، ٣٠١، ٣٠٤، وشعر الأحوص ص : ٥٤، وشعر نصيب ص : ٦٤، ٨٢، ٩٩، ١١٤.

(٢) ديوان جرير ٢ : ٧٠٨.

(٣) العيبة : وعاء من أدم يكون فيه المتاع.

سَمَّتْ بكَ خَيْرُ الوَلِدَاتِ فَقَابَلَتْ
لِلَيْلَةِ بَدْرٍ كانَ مِيقاتُها قَدْرَا
فَجَاءَتْ بِنُورٍ يُسْتَضَاءُ بِوَجْهِهِ
لهُ حَسَبٌ عالٍ ومَنْ يُنْكِرُ الفَجْرَا
ومَنْسُوبةٍ بَيْضاءَ مِنْ صُلْبِ قَوْمِها
جَعَلْتَ الرِّماحَ الخَاطِراتِ لها مَهْرَا[1]
لَكَ الفَرْعُ مِنْ حَيَّيْ قُرَيْشٍ فَلَمْ تَدَعْ
إذا عُدَّتِ المَسْعَاةُ نَجْماً ولا بَدْرَا
تَفَرَّعْتَ بَيْتَ الأصْبَغَيْنِ فلم تَجِدْ
بِناءً يَفُوق الأصْبَغَيْنِ ولا عَمْرَا[2]
تَخَيَّرَهُمْ مَرْوانُ مِنْ بَيْت رِفْعَةٍ
فَكانَ لهمْ كُفْئاً وكانَ لهمْ صِهْرَا

فهو يُنَوِّهُ بِكَرَمِهِ الفَيّاضِ. وحِمَايتهِ للأعْرَاضِ، ونَسَبهِ العَرَبيِّ المَحْضِ، إذْ هو مِنْ أرْفَعِ بُيُوتِ العَرَبِ من جِهةِ أبيهِ وأُمِّه.

وقَوْلُ الفَرزْدَقِ في الوليدِ بنِ يزيدَ بنِ عبدِ الملكِ، وهو وَلِيٌّ عَهْدِ أبيهِ بعد عَمِّهِ هشام بن عبد الملك[3]:

إنَّ الوَلِيدَ وَلِيُّ عَهْدِ محمدٍ كُلَّ المكارِمِ بالمكارِمِ يَشْتَري
لا تَطْلُبي بي غَيْرَهُ مِمَّنْ مَشَى إنْ أنْت نَاقُ لَقِيتِه بالقَرْقَرِ[4]

(١) رمح خاطر: لَدْنٌ طريٌّ كثير الاهتزاز.

(٢) الأصبغان: الأصبغ بن الزبان الكلبي جدُّه أبو أُمِّه، والأصبع بن ذؤالة الكلبيُّ، وعمرٌو أحَدُ أجداده من كلب. (وانظر جمهرة أنساب العرب ص: ٨٧).

(٣) ديوان الفرزدق ١: ٣٣٦.

(٤) القرقر: القاع الأملس المستوي.

سِيري أمَامَكِ إنَّها قدْ مُكِّنَتْ ‌ ‌ لِيَدَيْهِ رَاحلةُ الإمامِ الأكبرِ[1]
ورِثَ الخِلافةَ سَبْعَةً آباءَهُ ‌ ‌ عَمِرُوا وكُلُّهُمْ لأعْلَى المِنْبَرِ[2]
رَبٌّ عليهِ يَظَلُّ يَخْطُبُ قائماً ‌ ‌ لِلناسِ يَشْدَخُهُمْ بِمُلْكٍ قَسْوَرِ[3]
وعِمَادُ بَيْتِكَ في قُرَيْشٍ رُكِّبَتْ ‌ ‌ في الأكْرمينَ وفي العَديدِ الأكْثَرِ
لا شَيْءَ مِثْلُ يَدَيْكَ خيرٌ منهما ‌ ‌ حَيْثُ الْتَقَتْ بِيَدَيْكَ فَيْضُ الأبْحُرِ
فَتَرَ الرِّياحُ عن الوَليدِ إذا غَدَتْ ‌ ‌ مَعَهُ وفَيْضُ يَمينِهِ لم يَفْتُرِ
مَنْ يَأْتِ رابيةَ الوليدِ ودِفْأَهَا ‌ ‌ مِنْ خائفٍ لِجَريرةٍ لا يُضْرَرِ
الوَاهِبُ المائةَ المِخَاضَ وعَبْدَهَا ‌ ‌ لِلْمُجْتَديهِ وذو الجنابِ الأخْضَرِ[4]
فَفَدَاكَ كلُّ مُجاورٍ جِيرَانَهُ ‌ ‌ وَرَدُوا بِذِمَّةِ حَبْلِهِ لم يُصْدِرِ
حَرْبٌ ويوسفُ أفْرَغَا في حَوْضِهِ ‌ ‌ وأبو الوليدِ بِخَيْرِ حَوْضَيْ مُقْتِرِ
حَوْضا أبي الحكَمِ اللَّذانِ لِعيصِهِ ‌ ‌ والمُتْرَعانِ مِنَ الفُراتِ الأكْدَرِ

فهو يُثْني على طَلَبِهِ للمَعالي، وما يَبْذُلُ في سَبيلها من مالِهِ ونَفْسِهِ حتى يكونَ من أهْلِها المُقَدَّمينَ، وأعلامِها المَعْدُودينَ. وهو يَصِفُهُ بأنَّهُ خَطِيبٌ مُفَوَّهٌ، وسَيِّدٌ نَابِهٌ، وفارسٌ مِغْوَارٌ، وغَيْثٌ مِدْرَارٌ، وحامٍ لِلجوارِ، وعَرَبيٌّ صريحٌ يَنْتمي إلى أشْرَفِ بُيوتِ قُرَيْشٍ نَسَباً، وأكْثَرِها رَجُلاً، وأعَزِّها نَفَراً، وأنَّه اكْتَسَبَ كلَّ تلك الخِصَالِ الحَميدةِ من آبائه وأجْدَادِه.

وهذه هي الصِّفاتُ التي كانَ الشعراءُ يُكْبِرُونها ويُقَدِّرُونها في شُيُوخِ القَبائِلِ، وأشْرَافِ العَرَبِ في الجاهليَّةِ[5].

---

(١) راحلة الإمام هنا: المنبر.

(٢) سبعة: منصوب على نزع الخافض، وآباءه: بدلٌ من سبعة.

(٣) شدخ: كسر، والمراد بَذَّهم وغَلَبهم، وقَسْوَر: قويّ راسخ، ومنيعٌ ثابت.

(٤) المِخاض: جمع مَخِضٍ ومَخْضة، وهي الكريمة العتيقة الخالصة النَّسب.

(٥) تاريخ الأدب العربي، العصر الجاهلي، لشوقي ضيف ص: ٢١٠.

وأمَّا أنَّهم خِيرةُ المسلمينَ فَلأنَّهم مِنّ قَوْمٍ هم أفْضَلُ المسلمينَ ديناً، وأكثرُهم صَلاحاً، وأشَدُّهم خَوْفاً لله، وأحْسَنُهم سيرةً، وأدَقُّهم تَحرِّياً لِلعَدلِ ، وأخْلَصُهمْ حِرَاسةً للإسْلام، وأصْدَقُهم اهتِماماً بالمسلمينَ.

وقد بَالَغُوا في استِقصاءِ هذه الصِّفاتِ الإسْلاميَّةِ فيهم، وأطَالُوا في تَرْدَادِها في مَدائحِهم لهم أيْضاً [١]، مع التَّنويهِ بها، والتَّعْظيم لها. ومن أنْصَعِ ما لهم في ذلك قَوْلُ الفرزدقِ في أيُّوبَ بنِ سليمان بن عبدِ الملكِ بعدَ أنْ أخذَ له أبُوهُ البَيْعَةَ بولايةِ عَهْدِهِ [٢] :

جَعَلْتَ لهـمْ وَرَاءكَ فاطْمأنُّـوا ... مَكَانَ البَـدْرِ إذْ هَلكُـوا هِلالَا
وليَّ العَهْـدِ من أبَـويْكَ فيـه ... خَلائـقُ قَدْ كَمَلْـنَ لهُ كَمَـالَا
تُقـىً وضَمَانَـةً للنَّـاسِ عَدْلاً ... وأكثـرَ مَنْ يُلَاثُ بهِ نَوَالَا [٣]
ألَسْتَ ابـنَ الأئمـةِ مِنْ قُرَيْشٍ ... وحَسْبُكَ فارسُ الغَبْـراءِ خَالَا [٤]
إمـامٌ منهـمُ للنَّـاسِ فيهـمُ ... أقَمْتَ المَيْلَ فَاعْتَـدلَ اعْتِـدالَا
عَمِلْتَ بِسُنَّةِ الفَـارُوقِ فيهـمْ ... ومـنْ عُثْمانَ كُنْتَ لهمْ مِثَـالَا

فهو يُبَجِّلُ سليمانَ بنَ عبدِ الملكِ لأنهُ عَقَدَ ولايةُ العَهْدِ لأبنهِ أيُّوبَ، ونَصَبَهُ لِلْقيامِ بِأمرِ المسلمينَ مِنْ بَعْدِهِ، لِمَا يَتحلَّى به من خِلالِ آبائِهِ وأجْدَادهِ الإسْلاميَّةِ، وهي خلالُ النُّسْكِ والفَضْلِ والحِرْصِ على مَصْلَحةِ الرَّعيَّة، ويُعْلِنُ أنَّ ذلكَ كانَ مُتوقَّعاً منه، فهو خليفةٌ مُبَارَكٌ، نشأ في بَيْتِ خلافةٍ، واهْتَدَى بسيرةِ عمرَ بنِ الخطابِ، وعثمانَ بنِ عَفَّانَ، فازالَ الظُّلْمَ،

---

(١) انظر ديوان الفرزدق ٢ : ٩٢، ١٥٠، وديوان كثير ص : ٣٠٠.

(٢) ديوان الفرزدق ٢ : ١٠٠.

(٣) يلاث به : يقرن به ويعقد.

(٤) فارس الغبراء : قيس بن زهير العبسي.

وأصْلَحَ العِوَجَ، ونَشَرَ العَدْلَ، وأشاع الخَيْرَ.

وقَوْلُهُ في الوليد بنِ يزيدَ بنِ عبدِ الملكِ وهو وَليُّ عَهْدِ أبيهِ بَعْدَ عَمِّهِ هشامِ بنِ عبدِ الملكِ [1]:

حَمَلْـنَ مِنَ الحاجـاتِ كُلَّ ثَقِيلَـةٍ
إلـيكَ علـى فَانٍ عَرائكُهـا حُدْبِ [2]
إلـى حَيْثُ مَدَّ المُـلْكُ أطْنَـابَ بَيْتِـهِ
على ابنِ أبي الأعْياصِ في المَنْزِلِ الرَّحبْ
إذا ما رأتْـهُ الأرْضُ ظَلَّتْ كأنَّهـا
تَزَعْزَعُ تَسْتَحْيِي الإمـامَ مِنَ الـرُّعْبِ
هو المُصْطَفـى بَعْدَ الصَّفِيينَ للهُدَى
وفي العِيصِ من أهْلِ الخلافة والقُرْبِ

وقَوْلُهُ فيه أيضاً [3]:

إني إلـى خَيْـرِ البَرِيَّـةِ كُلِّهـا رَحَلْتُ وما ضاقَتْ عَلَيَّ المَطامِعُ
إلى القائِد المَيْمُونِ والمُهْتَدى بهِ إذ النَّاسُ مَتْبُوعٌ وآخـرُ تابـعُ
طُبِعَت على الإسْلام والحَزْمِ والنَّدى ألَا إنَّمـا تُبْدي الأمـورَ الطَّبائـعُ

فهو يُفَخِّمُ شَخْصِيَّتَهُ، وَيُعْجَبُ بِوَقارِهِ وهَيْبتهِ، وما لَهُ من مَنْزلةٍ عَظيمةٍ في نُفوسِ الناسِ، حتى إنَّ الأَرْضَ لَتخشاهُ وتَضْطَرِبُ منه، لا خَوْفاً منه، بل إجْلالاً له، ويَصِفُهُ بأنهُ من أهْلِ الخَيْرِ والهُدَى، وأنهُ فُطِرَ على البِرِّ والتَّقْوَى.

---

(١) ديوان الفرزدق ١ : ٧٨.

(٢) العريكة : السنام. وناقة حدباء : بدت حراقفها من الهزال، وهي رؤوس أعالي الوركين.

(٣) ديوان الفرزدق ١ : ٤١١.

وهذه هيَ الصِّفَاتُ التي كانَ زعماءُ الفِرَقِ المُخْتَلِفَةِ يَطْلُبونها ويُجْمِعُونَ على تَوَافُرِها في المُسْلِمِ المُرَشَّحِ للإمامةِ أو القائم بالخلافة.

وألَمَّ أولئك الشعَراءُ بغاياتِ الأمويِّينَ من أخْذِ البَيْعةِ لأَوْلياءِ عُهُودهم، فذكَرُوا أنهم كانوا يُريدون من ذلك استِصْفاءَ الخلافةِ لأنْفُسهم، وإبقاءَ المُلْكِ في ذُرِّيتهم، بل إنَّ منهم مَنْ حَضَّ بعضَهم على عَقْدِ العَهْدِ لابْنهِ دون غَيْرهِ من أهْلِ بَيْته، حتى تَخْلُصَ الخلافةُ لِسُلَالته وَحْدَهُ، ولا تَخْرُجَ منهم بَعْدَه. ومن ذلك قَوْلُ عبدِ الله بنِ هَمَّامٍ السَّلُوليِّ ليزيدَ بن معاويةَ[1]:

أعْطِيتَ طاعةَ أهْلِ الأرْضِ كُلِّهِمُ ... فأنتَ تَرْعَاهُمُ والله يَرْعَاكَا
وفي معاويةَ الباقي لَنَا خَلَفٌ ... إذا هَلكْتَ ولا نَسْمَعْ بِمَنْعَاكَا

وقَوْلُهُ له[2]:

تَعَزُّوْا يا بَنِي حَرْبٍ بِصَبْرٍ ... فَمَنْ هذا الذي يَرْجُو الخُلُودا
تَلَقَّاهَا يَزِيدٌ عَنْ أبيهِ ... فَخُذْهَا يا مُعَاوِيَ عَنْ يَزِيدَا
أدِيرُوهَا بني حَرْبٍ عَليكُمْ ... ولا تَرْمُوا بها الغَرَضَ البَعِيدَا

وقَوْلُهُ لَهُ[3]:

يَزِيدُ يا ابنَ أبي سُفْيانَ هلْ لَكُمُ ... إلى ثَنَاءٍ وَوُدٍّ غَيْرِ مُنْصَرِمِ
إنَّا نَقُولُ ويَقْضِي الله مُقْتَدِراً ... وما يَشأْ رَبُّنَا مِنْ صالحٍ يَدُمِ

---

(١) أنساب الأشراف ٤ : ٢ : ٥، وانظر البيان والتبيين ٢ : ١٠٩، والشعر والشعراء ٢ : ٦٥٢، والكامل للمبرد ٤ : ١١٢، وخزانة الأدب ٣ : ٦٣٩.

(٢) أنساب الأشراف ٤ : ٢ : ٥، وانظر طبقات فحول الشعراء ص : ٦٢٦، ونسب قريش ص : ١٢٩، ونقائض جرير والأخطل ص : ١، وشرح الحماسة للتبريزي ٣ : ٨٤.

(٣) أنساب الأشراف ٤ : ٢ : ٥، وانظر طبقات فحول الشعراء ص : ٦٢٩، ونقائض جرير والأخطل ص : ٣.

فَاعْهَدْ بِقَائِلِكُمْ خُذْهَا يَزِيدُ وقُلْ   خُذْها مُعاوِيَ غيرَ العاجزِ الهرمِ[1]
ولا تَحُطّ بها في غَيْر دَارِكُمُ   إنّي أخافُ عليكمْ حَيْرةَ النَّدَمِ[2]
إنَّ الخِلافةَ إنْ تُعْرَفْ لِثَالِثِكُمْ   تَثْبُتْ مَعَادِنُها فيكمْ ولا تَرِمِ[3]

فهو يُزيِّن له أنْ يُبايعَ لابنه معاوية. ويَنْصَحُ له أنْ يَقْتَدِيَ بِفعْلِ أبيه حينَ بَايَعَ له، حتى تَصْفُو الخلافةُ لهم، وتَرْسخ فيهم، ولا تَتحوَّلَ عنهم.

ومنه قَوْلُ جريرٍ للوليدِ بنِ عبدِ الملكِ[4]:

إذا قيلَ أيُّ الناسِ خَيْرٌ خليفةٍ؟   أشَارَتْ إلى عبدِ العزيزِ الأصَابِعُ
رَأَوْهُ أحَقَّ الناسِ كُلِّهِمُ بها   وما ظَلَمُوا إنْ بَايَعُوهُ وسَارَعُوا

وقَوْلُهُ له[5]:

إلى عبدِ العزيزِ سَمِتْ عُيُونُ الـ   رَّعيةِ إذْ تُخُيِّرتِ الرِّعاءُ
إليه دَعَتْ دَوَاعِيه إذا ما   عِمَادُ المُلْكِ خَرَّتْ والسَّماءُ
وقالَ أُولو الحُكومةِ مِنْ قُرَيْشٍ   عَلَيْنا البَيْعُ إذْ بَلَغَ الغَلاءُ[6]
رَأَوْا عبدَ العزيزِ وَلِيَّ عَهْدٍ   وما ظَلَمُوا بذاكَ ولا أسَاءُوا

---

(١) اعهد: يعني كما عهدت وعرفت ورأيت من فِعْل أبيك، فافْعَل بابنك.

(٢) حطَّ الشيء: أنزله وألقاهُ ووَضَعَهُ، ولا تَحُطُّ بها: لا تُحِلَّها ولا تَجْعَلْها، والباء زائدة.

(٣) مَعْدنُ كل شيء: أصْلُهُ ومَبدؤهُ.

(٤) نقائض جرير والفرزدق ١ : ٣٥١، وتاريخ الطبري ٦ : ٥٠٦، وديوان جرير ٢ : ٧١٥.

(٥) نقائض جرير والفرزدق ١ : ٣٥١، وتاريخ الطبري ٦ : ٥٠٦، وديوان جرير ٢: ٦٦٧.

(٦) الغلاء من المغالاة : المسابقة.

فماذا تَنْظُرونَ بها وفيكم جُسُورٌ بالعَظَائمِ واعْتِلاءُ[1]
فزَحْلِفْها بأزْفَلِها إليه أميرَ المؤمنين إذا تَشَاءُ[2]
فإنَّ النَّاسَ قَدْ مَدُّوا إليه أكُفَّهُمُ وقَدْ بَرحَ الخَفَاءُ
ولو قَدْ بَايَعُوكَ وليَّ عَهْدٍ لَقَامَ الوَزْنُ واعْتَدَلَ البِنَاءُ

فهو يُحَمِّسُهُ على أنْ يُبَايعَ لابْنهِ عبد العزيز حتى تكونَ الخلافةُ لِوَلَدهِ، وتَتَّصِلَ في نَسْلِهِ من بعْدهِ، بل هو يَنْطِقُ بلِسانه، ويُعَبِّرُ عن رَغْبته، فإنَّ الوليدَ أرَادَ أنْ يَنْزَعَ أخاه سليمانَ بنَ عبدِ الملكِ من وِلَايَةِ العَهْدِ، ويَجْعَلَ بَدَلَهُ ابنهُ عبدَ العزيز بن الوليد، « ودَسَّ في ذلك إلى القُوَّادِ والشُّعراءِ،...، فَبَايَعَهُ على خَلْعِ سليمانَ الحَجَّاجُ بنُ يُوسُفَ وقُتيْبَةُ [بنُ مُسْلمٍ][3]». وهو يُؤَكِّدُ أنَّ ابْنَهُ أهْلٌ لِولايةِ العَهْدِ، وأنَّ أصحاب الرَّأْي والمَشُورةِ من قريْشٍ رَشَّحُوهُ لها، وأنَّ الأمَّةَ أيَّدَتْ تَرْشيحَهُ، وأخَذَتْ تَتَرقَّبُ تَعْيينهُ !!

وذكرُوا أيْضاً أنَّ الأمَوِيِّينَ كانوا يتوخَّوْنَ من أخْذِ البَيْعَةِ لأوْلياءِ عُهُودِهم أنْ يُقَوُّوا الإسْلامَ ويُوَطِّدُوهُ، وأنْ يَحْفظُوا الدِّينَ ويَحْرُسُوهُ. ومن ذلك قَوْلُ الفرزدقِ في الوليدِ بنِ يزيدَ بنِ عبدِ الملكِ، وهو وَليُّ عَهْدِ أبيه بعدَ عَمِّهِ هشامِ بنِ عبدِ الملكِ[4] :

يُشَدُّ بهِ الإسْلامُ بَعْدَ وَلِيِّهِ أبيهِ فأمْسَى الدِّينُ مُلْتَئِمَ الشَّعْبِ

ويُسْتَنْتَجُ من ذلك أنَّ نَظريَّةَ الأمويِّينَ في وِلايةِ العَهْدِ كانَت واضحةً عندَ أتْباعهم، وأنَّ الشُّعراءَ من أتْبَاعِهم كانوا أهَمَّ مَنْ اسْتَوْعَبَ نظريَّتَهم، وبَشَّرَ

(١) الجُسور : المضاء والنفاذ.

(٢) زَحْلِفْها : ادفعها. وأزْفلها : أجْمعها.

(٣) تاريخ الطبري ٦ : ٥٠٦.

(٤) ديوان الفرزدق ١ : ٧٨.

بها، وانْتَصَرَ لها، فقد عَرَفُوا أسَاسها وما قامتْ عليه من مَذْهَبِ الجَبْرِ، وأحاطوا بما يَتَّصِلُ بها من صِفاتِ وليِّ العَهْدِ العَربيَّةِ، وهي تَتمثَّلُ في صَراحةِ النَّسَبِ وكَرَم الخُلُقِ، وصِفاتهِ الإسلاميَّة» وهي تَتمثَّلُ في صَفَاءِ العَقيدةِ، ونَقَاءِ السِّيرةِ، ووقفُوا على أهْدافِ الأمويِّينَ منها، وهي الاسْتِئثَارُ بالخلافةِ، وحمايةُ الإسْلامِ من الضَّعْفِ، وصِيانةُ الأمَّةِ من الاخْتلاف.

(٦) « خُلاصَةٌ وتَعْقيبٌ »

ويَتَّضِحُ مِنْ كلِّ مَا سَلَفَ مِنَ الأخْبارِ والأشْعارِ أنَّ نِظامَ وِلَايةِ العَهْدِ يُشْبِهُ في الأصْلِ نظامَ وِرَاثةِ المُلْكِ، فقد وَضَعَهُ معاويةُ بنُ أبي سفيانَ وطَبَّقَهُ بهذا المعنى، إذْ بَايَعَ لأبْنهِ يزيدَ، ثم بَايَعَ يزيدُ بنُ معاويةَ لابنهِ مُعَاويةَ، وبَايَعَ مروانُ ابنُ الحكمِ لِوَلَدَيْهِ عبدِ الملكِ وعبدِ العزيزِ[١]، وعندما كانت الخلافةُ تَخْرُجُ من بعض أوْلادِ مروانَ بن الحكم أوْ حَفَدَتهِ إلى إخوانهم بِعَهْدِ الخلفاءِ السَّابقين إليهم، كانوا يُحَاوِلُونَ رَدَّها إلى أبنائهم، فقد سَعَى عبدُ الملكِ بنُ مروانَ في عَزْلِ أخيه عبدِ الملكِ، وكادَ الشقاقُ يسْتَفْحِلُ بينهما، لولا مَوْتُ عبدِ العزيزِ[٢]، فلمَّا ماتَ بايعَ عبد الملك لابْنَيْهِ الوَليدِ وسليمان[٣]. وهمَّ الوليدُ بنُ عبدِ الملكِ بِتَنْحِيةِ أخيهِ سليمان عن ولاية العهْدِ، والبَيْعَةِ لابنهِ عبدِ العزيز، فَعَاجَلَهُ الأجَلُ قبلَ أنْ يَبْلُغَ بُغْيَتهُ، قال المدائني[٤]: « كان الوليدُ وسليمانُ وَلِيَّيْ عَهْدَ عبدِ الملكِ، فلما

---

(١) تاريخ خليفة بن خياط ص : ٣٢٨، وتاريخ االطبري ٥ : ٦١٠، والكامل في التاريخ ٤ : ١٨٩.

(٢) طبقات ابن سعد ٥ : ٢٣٣، وأنساب الأشراف ٥ : ١٨٣، وتاريخ الطبري ٦ : ٤١٢، والكامل في التاريخ ٤ : ٥١٣، والبداية والنهاية ٩ : ٥٩.

(٣) تاريخ خليفة بن خياط ص : ٣٧٧، وتاريخ الطبري ٦ : ٤١٦، والكامل في التاريخ ٤ : ٥١٤.

(٤) تاريخ الطبري ٦ : ٤٩٨، والكامل في التارخ ٥ : ١٠.

أفْضَى الأمرُ إلى الوليدِ، أرادَ أنْ يُبايعَ لابنهِ عبدِ العزيزِ، ويخلعَ سليمانَ، فأبَى سليمانُ فأرادَهُ على أنْ يَجْعَلَهُ له من بَعْدِهِ، فأبَى، فعرضَ عليه أموالاً كثيرةً، فأبَى، فكتب إلى عُمَّالهِ أنْ يُبَايِعُوا لعبدِ العزيزِ، ودَعا الناسَ إلى ذلكَ، فلم يُجْبِهُ أحَدٌ إلاَّ الحجاجُ وقُتَيْبَةُ، وخَوَاصٌّ من الناسِ. فَقَال عَبَّادُ بنُ زيادٍ: إنَّ الناسَ لا يُجِيبونَكَ إلى هذا، ولو أجَابُوكَ لم آمَنْهُمْ على الغَدْرِ بابنُكَ، فاكتبْ إلى سليمانَ، فليقدمْ عليكَ، فإنَّ لكَ عليه طاعةً، فأرِدْهُ على البَيْعةِ لعبدِ العزيز من بعدِهِ، فإنه لا يَقْدِرُ على الامْتناعِ وهو عندَكَ، فإنْ أبَى كانَ الناسُ عليه. فكتبَ الوليدُ إلى سليمانَ يأمُرُهُ بالقُدومِ، فأبْطأَ، فاعتزمَ الوليدُ على المسير إليه وعلى أنْ يَخْلَعَهُ، فأمَرَ الناسَ بالتأهُّبِ، وأمَرَ بِحُجرِهِ فأُخْرِجَتْ، فمرضَ ومات قبلَ أنْ يسيرَ، وهو يريدُ ذلكَ ».

وكان سليمانُ بنُ عبدِ الملكِ يُحِبُّ أنْ يُقْصِيَ أخَوَيْهِ مروانَ ويزيدَ عن ولايةَ العَهْدِ، وأنْ يَجْعَلَها لِوَلدِه، وكانَ يَنْتَظِرُ في ذلكَ الفُرَصَ، قال المدائنيُّ[1]: « كان عبدُ الملكِ أخَذَ على الوليدِ وسليمانَ أنْ يُبايِعَا لابنِ عاتكةَ ولمروانَ بنِ عبدِ الملكِ من بَعْدِهِ، قال: فَحدَّثني طارقُ بنُ المباركِ قال: مات مروانُ بنُ عبدِ الملكِ في خلافةِ سليمانَ مُنْصَرَفَهُ من مكةَ، فبايعَ سليمانُ حينَ ماتَ مروانُ لأيوبَ، وأمْسَكَ عن يزيدَ، وتَرَبَّصَ به، ورَجَا أنْ يَهْلِكَ، فهَلكَ أيوبُ وهو وَلِيُّ عَهْدِهِ »، فَفَكَّرَ في البَيْعةِ لأبنهِ داود، ثم مال عنه لأنه ابنُ أمةٍ[2].

ورَغِبَ يزيدُ بنُ عبد الملك في خَلْعِ أخيه هشامٍ عن ولايةِ العَهْدِ، والبَيْعَةِ لأبنهِ الوليدِ بن يزيدَ، وكان يقولُ كلما رأى ابْنَهُ[3]: « اللهُ بيني وبينَ مَنْ

---

(١) تاريخ الطبري ٦ : ٥٣١، وانظر الكامل في التاريخ ٥ : ٢٨.

(٢) تهذيب تاريخ ابن عساكر ٥ : ٢٠٦.

(٣) أنساب الأشراف المخطوط ٢ : ٢٣٧، وتاريخ الطبري ٧ : ٢٠٩، والعقد الفريد ٤ : ٤٤٢، والأغاني ٧ : ٢، والكامل في التاريخ ٥ : ٩١.

جَعَلَ هشاماً بَيْني وبَينك »، يَعْني مَسْلمةَ بنَ عَبْدَ الملك ِ، واحْتَالَ أن يَحْمِلَ هشاماً على خَلْعِ نَفْسِهِ، فلم يَقْدِرْ على ذلك منه، وتُوفّي دون أنْ يُحقّقَ أمْنِيَتَهُ (١).

وصَمَّمَ هشامُ بنُ عبدِ الملكِ على إبْعادِ الوليدِ بنِ يزيدَ بنِ عبدِ الملك عن ولايةَ العَهْدِ، والبَيْعةِ لابنهِ مسلمةَ بنِ هشامٍ، قال المدائنيُّ (٢): « لم يزلِ الوليدُ مُكرْماً عندَ هشامٍ، رفيعَ المَنْزلةِ مدةً، ثم طمعَ في خَلْعهِ، وعَقْدِ العَهْدِ بَعْدَهُ لابنهِ مسلمةَ بنِ هشامٍ، فجعلَ يذكرُ الوليدُ بنَ يزيدَ وتَهتُّكَهُ، وإدْمانَهُ الشَّرابَ، ويذكرُ ذلك في مَجْلِسِهِ، ويقومُ ويَقْعُدُ به »، وعَمِلَ في ذلك سِرّاً وجَهْراً، وظلَّ أسيراً لأمَلهِ بقيةَ حياتهِ، وماتَ ولم يَنَلْ ما أراد (٣).

وبايعَ الوليدُ بنُ يزيدَ بنِ عبدِ الملكِ لِوَلَدَيْهِ الحكمِ وعثمانَ وهما صَغِيرانِ لم يُدْرِكَا، لكي تَخْلُصَ الخلافةُ لهما في يُسْرٍ وصَفَاءٍ، وتَنْتَهِي إليهما بغيرِ عُسْرٍ ولا عناءٍ، قال أحَدُ مَواليه (٤): « دخلتُ إليه وقد عَقَدَ لابْنيهِ بعدَه ،...، فقلتُ له : يا أميرَ المؤمنين، أقُولُ قَوْلَ المَوْثوقِ بِنَصيحته أوْ يَسَعُني السُّكوت ؟ قال : قُلْ قَوْلَ المَوْثوقِ به، فقلتُ : إنَّ الناسَ قد أنكرُوا ما فعلتَ، وقالوا : يُبَايعُ لِمَنْ لمْ يَحْتَلِمْ ! وقد سمعتُ ما أكْرَهُ فيك ! قال : ......، أفأُدْخِلُ بيني وبينَ ابني غَيْري، فَيَلْقَى منه كما لقيتُ من الأحْولِ بعدَ أبي »!!

---

(١) تاريخ اليعقوبي ٢ : ٣١٤.

(٢) الأغاني ٧ : ٣، وانظر تاريخ الطبري ٧ : ٢٠٩، والكامل في التاريخ ٥ : ٢٦٥، وعيون التواريخ المخطوط ٥ : ١٦ظ.

(٣) انظر الوليد بن يزيد عرض ونقد ص : ٢٩٤.

(٤) الأغاني ٧ : ٧٠.

وبايعَ مروانُ بنُ محمدٍ لِوَلَدَيْهِ عبدِ الله وعُبَيْدِ الله حتى يَظْفَرَا بالخلافةِ دونَ غيرهما من حفدةِ مروانَ بنِ الحكَمِ (١).

فكلُّ الخلفاءِ الأمويِّينَ من سُفْيانيينَ ومَرْوانيينَ كانوا يَبْتَغُونَ البَيْعَة لأبْنائِهم، إلاَّ عمرَ بنَ عبدِ العزيز، فإنَّهُ شَذَّ عنهم، ولكنه لم يَسْتَطِعْ أنْ يُخْرِجَها منهم. وكانوا فَرِيقَيْنِ، فمنهم مَنْ عَهِدُوا إلى أبنائهم، وسَهَّلُوا لهم الطريقَ إلى الفَوْزِ بالخلافةِ، ومنهم من اشْتَهوا الخلافةَ لأبنائهم، وتأتَّوا لِصَرْفِها إليهم ولكنهم أخْفَقُوا في عَقْدِ العَهْدِ لهم، لأنهم عَجَزوا عن خَلْعِ أوْلياءِ العَهْدِ المُبَايعينَ.

ويشيرُ ذلك إلى أنَّ فَهْمَهم لِولايةِ العَهْد كان أقْرَبَ إلى وِرَاثَةِ المُلْكِ عندَ القَيَاصِرةِ والأكَاسِرةِ، وربما اقْتَبَسَ معاويةُ بنُ أبي سفيانَ هذا النظامَ منهم (٢)، فإنه كان له علمٌ بأخبارِ مُلُوكِ الرُّومِ والفُرْسِ وسِيَرِهم وسِياسَتِهم لِرَعيتهم (٣).

ولكن طبيعة الثقافةِ في زَمانِهم وما تَكَوَّنَتْ منه من جداولَ عربيةٍ وأخرى إسْلاميةٍ انعَكَسَتْ على أفكارِهم السياسيةِ، وتركَتْ فيها طوابعَ بَيِّنةٍ، وأثرتْ في فَهْمِهم لنظامِ ولايةِ العَهْدِ، وتَطْبيقهم له، فقد أفادُوا من تقاليدِ الزَّعامةِ القبليَّة، إذْ كانوا لا يُوَلُّون أبناءَ الإماءِ، إلَّا الوليدَ بنَ يزيدَ بنِ عبدِ الملكِ، فإنه « أوَّلُ مَنْ بايعَ لأبْنِ سُرِيَّةٍ أمَةٍ (٤) »، وكانوا في الأعم الأكْثرِ يَعْهَدُونَ إلى أحْصَفِ أبنائهم وإخوانهم ورِجالهم وأبْسَلِهم وأسْخَاهم وأسْمَحِهم.

---

(١) تاريخ الطبري ٧ : ٣١٤، والكامل في التاريخ ٥ : ٣٣٠.

(٢) تاريخ الأدب العربي، العصر الإسلامي ص : ٣٣٧.

(٣) مروج الذهب ٣ : ٤٠.

(٤) الأغاني ٧ : ٧١.

واستَمدُّوا من قَواعدِ الإمامةِ الإسلاميةِ، إذ كانوا في القليلِ النادرِ يَعْهَدُونَ إلى أصْلَحِهم وأفْقَهِهم وأعْدَلِهمِ وأزْهَدِهم.

وأضْفوْا على نِظامِ ولايةِ العَهْدِ الصِّبْغَةَ الدِّينيةَ، وأسْبغُوا عليه صِفَةَ الجَبْريَّةِ، إذ ادَّعَوْا إنَّ الله هَدَاهم إليه، وَوفَّقَهم إلى اختيار أوْلياءِ عُهُودِهم !! وجعلوا رَغْبَتَهم من رغْبةِ الله، وإرادَتهم من إرَادتهِ، وطاعَتَهم من طاعَته !!

ولم يُخْفُوا أنَّهم كانوا يَرُومُونَ من ذلك الانْفِرَادَ بالخلافة، والاسْتِبدادَ بها، ومَنْعَ غَيْرِهم منها. وأضَافُوا إلى ذلك أنَّهم كانُوا يُريدُونَ التمكينَ للإسْلامِ والحِفَاظَ على ائْتِلافِ المسلمينَ !

« الفَصْلُ الثَّالِثُ »

« السُّفْيانِيُّونَ »

(١) « استعمالُ معاويةَ الأوَّلِ للشِّدَّةِ والحِيلَةِ »

كانَ الثَّأْرُ لِمَقْتَلِ عثمانَ بن عَفَّانَ هو الأساسَ الذي بَنَى عليه معاويةُ بنُ أبي سفيانَ حَقَّهُ في وِراثةِ الملك (١)، ولم يزل يُعارِضُ علي بن أبي طالبٍ ويُنَاهِضُهُ حتى انتزعَ الخلافةِ من أهْلها، وغلبَ عليها. ثم تَصَدَّى لِمُخالفيه وللخارجينَ عليه، وحَارَبهم حتى قَضَى عليهم، إذْ كان هو وعُمّالُهُ لا يَكُفُّونَ عن النَّيْلِ من عَليٍّ، ونَسْبهِ إلى قَتْلِ عثمانَ، وإيوَاءِ قَتَلَتِه (٢) وضَيَّقَ عَلَى الشِّيعةِ بالكُوفة، ثم أعَدَمَ زعيمَهم جُحْرَ بن عَدِيٍّ الكِنْديَّ وبعضَ أصحابه (٣)، ورَفَضَ شفاعةَ مالكِ بن هُبَيْرَةَ السَّكُونيِّ الكِنْديِّ الشاميِّ فيه (٤). وجَاهَدَ عُمَّالُهُ الخوارج (٥) في الكوفةِ والبَصْرة وقَتَلُوهم، فأمَّا زيادٌ فكان يَقْتُلُ

(١) تاريخ الدولة العربية ص : ١٢٩.

(٢) أنساب الأشراف ٤ : ١ : ١٩، ٩٨، ٢١١، ٢٢٠، وتاريخ الطبري ٥ : ٣٥٣، ٣٥٤، والعقد الفريد ٤ : ٣٦٦، ومروج الذهب ٣ : ٢٣، ٤٢، والكامل في التاريخ ٣ : ٤١٤، ٤٧٢، وشرح نهج البلاغة ٤ : ٥٦، ٦٣.

(٣) طبقات ابن سعد ٦ : ٢١٨، وتاريخ خليفة بن خياط ص : ٢٥١، وتاريخ اليعقوبي ٢ : ٢٣٠، وتاريخ الطبري ٥ : ٢٧٥، ومروج الذهب ٣ : ١٢، وتهذيب تاريخ ابن عساكر ٢ : ٣٧٣، ٤ : ٨٨، والكامل في التاريخ ٣ : ٤٨٥.

(٤) أنساب الأشراف ٤ : ١ : ٢٢٤، وتاريخ الطبري ٥ : ٢٧٤، والكامل في التاريخ ٣ : ٤٨٣.

(٥) أوفى أخبار الخوارج في عهد معاوية في أنساب الأشراف ٤ : ١ : ١٣٨ ــ ١٦٣، وانظر تاريخ خليفة بن خياط ص : ٢٣٥، ٢٤٦، ٢٦١، وتاريخ اليعقوبي ٢ : ٢١٠، ٢٢٠، ٢٢١، ٢٣٢، والكامل للمبرد ٣ : ٢٥٣، ٢٦٠، ٢٦١، وتاريخ الطبري ٥ : ١٦٥، ١٧٢، ٢٢٨، ٣١٢، والكامل في التاريخ ٣ : ٤٠٧ ــ ٤١٣، ٤١٧، ٤٢٠، ٤٢٥، ٤٥٤، ٤٩١، ٥١٦، ٥١٧.

المُغْلِنَ، ويَسْتَصْلِحُ المُسِرَّ، ولا يُجَرِّدُ السَّيْفَ حتى تَزُولَ التُّهْمَةُ [1]»، وقال المدائنيُّ [2] : « كان زيادُ بن سُمَيَّةَ أوَّلَ مَنْ أخَذَ بالظِّنةِ، وعاقبَ على الشُّبْهَةِ، وأخافَ الناسَ [في] سُلْطانه ». « وكان عُبَيْدُ الله [بن زيادٍ] لا يُلْبِثُ الخَوارجَ، يَحْبِسُهم تارةً ويَقْتُلهم تارةً، وأكثر ذلك يَقْتُلهم، ولا يَتغافَلُ عن أحدٍ منهم، وسببُ ذلك أنه كان أطلقهم من حَبْسِ زيادٍ، لَمَا وليَ بَعدَهُ، فَخَرجوا عليه [3]».

وتدُلُّ طائفةٌ من الأخبار على أنَّ سادةَ القبائِل من أهلِ الكوفةِ والبصرةِ كانوا يَتَذَمَّرون من كَبْتِ معاويةَ لهم وسَطْوَتهِ عليهم، وأنهم كانوا في حَيْرةٍ من أمْرِهم، إذ لم يكونوا يَجْرؤونَ على مُصَارَحتهِ وإظهار آرائهم في سياسته، لأنهم كانوا يرهبون غَضَبَهُ وقَسْوَته، ولم يكونوا يَسْتَسِيغُونَ مُدَاهَنَتَهُ ومُنَافَقَتَهُ، لأنهم كانوا يتقون الله ويخشونه، وكانوا إذا طلب منهم أن يُبَيِّنُوا آراءهم في سيرته وبعض قراراته السياسية،وألح عليهم في ذلك إلحاحا شديداً،يجيبونه إجاباتٍ لطيفةً مُتحَفِّظَةً فيها لباقةٌ وكياسةٌ، وفيها تمْويهٌ ومُواربة، وقد يحتالون للخروج من المأزق، فيردون الأمر إليه، ويَجْعلونَ له الحكْمَ فيه، دون أن يكشفوا له عما في نفوسهم، قال اليعقوبي [4] : « دخل إليه عدي بن حاتم، فقال له : كيف زماننا هذا يا أبا طريف ؟ قال : إنْ صَدَقناكُمْ خِفْناكُم، وإن كَذَبناكم خِفْنَا الله ! قال : أقسمت عليك ! قال : عَدْلُ زمَانِكُمْ هذا جَوْرُ زمانٍ قد مَضَى، وجَوْرُ زمانكم هذا عَدْلُ زمانٍ ما

(١) الكامل للمبرد ٣ : ٢٦٠.

(٢) أنساب الأشراف ٤ : ١ : ١٨٧.

(٣) الكامل للمبرد ٣ : ٢٦٠.

(٤) تاريخ اليعقوبي ٢ : ٢٣٣.

يأتي »! وقال ابن سعد [1]: « ذكَرُوا عند معاويةَ شيئاً فتكلموا والأحنف ساكت، فقال معاوية : تَكَلّمْ يا أبا بَحْرٍ ! فقال : أخافُ اللهَ إنْ كَذَبْتُ، وأخافكم إنْ صَدَقْتُ »! وروى المدائني أن معاوية قال للأحنف بن قيْسٍ التميمي أيضا [2]: « ما ترى في بَيْعَة يزيد ؟ قال : نخافُكُمْ إنْ صَدَقناكم، ونَخَافُ اللهَ إنْ كَذَبْنا »! وقال له [3]: « أنت أعْلَمُ بيزيد في ليلهِ ونهاره، وسِرِّهِ وعلانيته، ومَدْخَلِهِ ومَخْرَجِهِ، فإنْ كنت تَعْلَمُه لله رضاً ولهذه الأمة فلا تُشَاوِرِ الناسَ فيه، وإنْ كُنْتَ تَعْلَمُ منه غير ذلك، فلا تُزَوِّدْهُ الدنيا وأنت تَذْهَبُ إلى الآخرة »!

وكان أقْصَى ما يَقْبَلُهُ من المُخَالِفِين له، ويَحْتَمِلُه من النَّاقمينَ عليه أن يَلُوموهُ ويُعَرِّضُوا به، ويهاجموا سياسته، فإذا تَعدُّوْا ذلك إلى اسْتِنْهاضِ الناسِ للثورةِ عليه بَطَشَ بهم، وقد وَضَّحَ ذلك في خُطبِه مِراراً، قال المدائني [4]: « قدم معاوية المدينة فَخَطَبهم فقال : إني رُمْتُ سيرةَ أبي بكرٍ وعمرَ فلم أُطِقْهَا، فسلكت طريقةً لكم فيها حظٌ ونَفْعٌ على بعض الأثَرة، فأرْضَوْا بما أتاكُمْ مني وإنْ قَلَّ، فإنَّ الخير إذا تَتَابَعَ عَنّي، وإنْ قَلَّ أغْنَى، وإنَّ السُّخْطَ يُكَدِّرُ المعيشةَ، ولست بباسطٍ يدي إلَّا إلى مَنْ بَسَطَ يده، فأمَّا القول الذي يَسْتَشْفِي به ذو غِمْرٍ فهو دَبْرَ أُذني وتحت قَدَمي، حتى يَرُوم العَوْجَاءَ »! ويقول في خطبة ثانية لأهل المدينة [5]: « إنَّا قَدِمْنا عليكم، وإنما قَدِمْنا على صديقٍ مُسْتَبْشرٍ، أو على عَدُوٍّ مُسْتَترٍ، وناسٍ بين ذلك يَنْظُرونَ

---

(١) طبقات ابن سعد ٧ : ٩٥، وانظر تهذيب تاريخ ابن عساكر ٧ : ٢٠.

(٢) العقد الفريد ٤ : ٣٦٩، ووفيات الأعيان ٢ : ٥٠٠، وانظر مثلاً آخر ص : ٥٠٣.

(٣) العقد الفريد ٤ : ٣٧٠.

(٤) أنساب الأشراف ٤ : ١ : ٣٨، وانظر نص الخطبة في العقد الفريد ٤ : ٨١، والبداية والنهاية ٨ : ١٣٢.

(٥) العقد الفريد ٤ : ٨٢.

ويَنْتظِرُونَ، « فإنْ أعْطُوا منها رَضُوا، وإن لم يُعْطوْا منها إذا هم يَسْخَطُون ». ولستُ واسعاً كلَّ الناس، فإن كانتْ مَحْمدةٌ فلا بُدَّ مِنْ مَذَمَّةٍ. فَلوْماً هَوْناً، إذا ذُكِرَ غُفِرَ، وإياكم والتي إنْ أُخِيفَتْ أوْبَقَتْ، وإنْ ذُكِرَتْ أوْثَقَتْ ». ويقول في خطبة ثالثةٍ لهم (١) : يا أهل المدينة، إني لست أحبُّ أن تكونوا كَخَلْقِ العِراقِ، يَعِيبُونَ الشيءَ وهم فيه، كلُّ امرىء منهم شيعةُ نَفْسِهِ، فَاقْبَلُونَا بما فينا، فإنَّ ما وراءكم شرٌّ لكم، وإنَّ مَعْرُوفَ زمانِنا هذا مُنْكَرُ زمانٍ مضى، ومُنْكَرُ زماننا مَعْرُوفُ زمانٍ لم يأْتِ، ولو قد أتى فالرَّتْقُ خَيْرٌ من الفَتْقِ، وفي كلٍّ بلاغٌ، ولا مُقامَ على الرَّزِيَّةِ »!

وظل معاوية يُزَاوِجُ بين الوَعْدِ والوَعيدِ في خُطَبِه لأهل الأمصار، وفي مقاماته المختلفة (٢). وكانت حِكْمَتُهُ السِّياسية المشهورة لا تَخْرُجُ عن ذلك، قال المدائني (٣): « قال معاوية : لا أضَعُ لساني حيث يكفيني مالي، ولا أضَعُ سَوْطي حيث يَكْفيني لساني، ولا أضَعُ سَيْفي حيثُ يَكْفِيني سَوْطي، فإذا لم أجِدْ من السَّيْفِ بُدّا رَكِبْتُهُ ». وكانت وصِيَّتُهُ السياسية لابنه يزيد تَدُورُ على ذلك، فهو يَنْصَحُ له فيها أن يَبرَّ أهْلَ الحجاز، وأنْ يُدَارِيَ أهْلَ العراق، وأن يَعْتَمِدَ على أهل الشامِ، وأنْ يَقْتُلَ عبد الله بن الزبير إن خرج

---

(١) العقد الفريد ٤ : ٨٢، وانظر أنساب الأشرا ٤ : ١ : ٢٤.

(٢) انظر سائر خطب معاوية السياسية في تاريخ خليفة بن خياط ص : ٢٥١، ٢٥٣، والأخبار الموفقيات ص : ١٨١، وتاريخ اليعقوبي ٢ : ٢١٦، والكامل للمبرد ٤ : ١١١، وتاريخ الطبري ٥ : ٣٠٤، وذيل الأمالي والنوادر ص : ١٧٥، والإمامة والسياسة ١ : ١٧١، ١٧٢، ١٧٤، ١٨٥، ١٨٨، والكامل في التاريخ ٣ : ٥٠٦، ٥١١، وشرح نهج البلاغة ٤ : ٧٢، ١٦ : ٤٧، ١٨٧، والبداية والنهاية ٨ : ١٣١، وتاريخ الخلفاء ص : ١٩٦، ١٩٧، ٢٠٦.

(٣) أنساب الأشراف ٤ : ١ : ١٧، وقول معاوية ناقص في أكثر الروايات، انظر عيون الأخبار ١ : ٩، وتاريخ اليعقوبي ٢ : ٢٣٨، والعقد الفريد ٤ : ٣٦٤.

عليه، إذ يقول له فيها[1]: « إني كفيتك الحَلَّ والتَّرحَال. وَوَطَّأْتُ لك الأشياء، وذَلَّلْتُ لك الأعِزَّاء، وأحضَعْتُ لك أعناقَ العرب، وجَمَعْتُ لك ما جَمَعَ واحدٌ. فانظر أهل الحجاز، فإنهم أصلك، فأكرم من قدم عليك منهم، وتَعهَّدْ من غابَ عنك منهم، وانظر أهل العراق، فإنْ سَأَلُوكَ أن تعزل عنهم في كل يوم عاملاً فافعَل، فإنَّ عَزْلَ عاملٍ أحبُّ إليك من أنْ يُشْهَرَ عليك مائة ألف سيف، وانظر أهل الشام، فليكونوا بطَانَتك وعَيْبَتَك[2]، وإذا أصبْتَ بهم عَدُوَّكَ فارْدُدْهُمْ إلى بلادهم، فإنهم إن أقاموا بغير بلادهم أخذوا بغير أخلاقهم. وإني لستُ أخاف عليك من قريش إلَّا الحسينَ بن علي، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير رضي الله عنهم، فأما الحسين فإن له رَحماً وحَقًّا عظيماً، فإنْ قَدَرْتَ عليه فاصْفَحْ عنه، فإني لو أوتَى به عفوت عنه، وأما ابن عمر فَيُقَيِّدُهُ إيمانُهُ، وأمَّا ابنُ الزبير فَخِبٌّ ضَبٌّ[3]، يَجْثُمُ لك جثومَ الأسدِ، ويَرُوغُ رَوغانَ الثَّعْلبَ، فإن أمْكَنَتْهُ الفُرْصَةُ وَثَبَ، فإنْ فَعَلَ فقدرت عليه أنْ تُقَطِّعَهُ إرباً إرباً فافْعَلْ ».

---

(١) المعمرون والوصايا ص : ١٥٥، وانظر هذه الرواية للوصية بقريب من ألفاظها في البيان والتبيين ٢ : ١٠٨، وأنساب الأشراف ٤ : ١ : ٨٣، ١٢٣، وتاريخ الطبري ٥ : ٣٢٣، والعقد الفريد ٤ : ٨٧. ويرد اسم عبد الرحمن بن أبي بكر في بعض روايات الوصية. انظر الأخبار الطوال ص : ٢٢٦، وتاريخ الطبري ٥ : ٣٢٢، والبداية والنهاية ٨ : ١١٥. وهو خطأ، لأن عبد الرحمن بن أبي بكر توفي سنة ثلاث وخمسين أو سنة أربع وخمسين، ويقال : بل سنة ثمان وخمسين، فلم يدرك موت معاوية. انظر وفيات الأعيان ٣ : ٧٠. وقال البلاذري : « روى بعضهم أن عبد الرحمن كان باقياً حتى مات معاوية، وذلك باطل » انظر أنساب الأشراف ٤ : ١ : ١٢٤. وقال ابن كثير : « الصحيح أنَّ عبد الرحمن كان قد توفي قبل موت معاوية بسنتين » انظر البداية والنهاية ٨ : ١١٥. وقد أشار معاوية إلى موت عبد الرحمن بن أبي بكر في بعض روايات الوصية التي نقلها البلاذري، إذ يقول : « وقد كفاك الله عبد الرحمن بن أبي بكر ». انظر أنساب الأشراف ٤ : ١ : ٨٣، ١٢٣.

(٢) العيبة : موضع سر الرجل.

(٣) الخب : المخادع الخبيث، والضَّب : الغل والحقد المستمكن من قلب صاحبه.

على أنَّ معاوية كانَ يَصْبِرُ على خُصُومِهِ بعدَ أن اسْتَقَامَ له الأمرُ وقَبْلَهُ، إذ كان فيه دَهاءٌ نادرٌ، وأناةٌ شديدةٌ، وكان يقول (١) : « إني لأَرْفَعُ نفسي عن أنْ يكونَ ذَنْبٌ أعظمَ من عَفْوي، وجَهْلٌ أكبرَ من حِلْمي، وعَوْرةٌ لا أواريها بِسَتْري، وإساءةٌ أكبرَ من إحساني »، وكان يقول (٢) : « لو أنَّ بيني وبين الناس شعرةً ما انْقَطَعَتْ. قيل : وكيف ذاك ؟ قال : كنتُ إذا مَدُّوها خَلَّيْتُها، وإذا خَلَّوْها مَدَدْتُها ». فكان يُرَاجِعُ خُصُومَهُ في مواقفهم من بني أمية في يوم أحدٍ، ويوم الدَّارِ، ويَوْم الجَمَلِ، ووقعةِ صِفِّينَ، وكان يسألهم عن أسباب مُعَارضتهم لخلافتهِ وسياسته، ويُجادلهم فيها، فكانوا يَتَحدَّوْنَهُ ويُصَرِّحُونَ بِعُيوبه، ويُفْحِمُونه، فكان يُبَادِلهم رَأْياً برأيٍ، وغَمْزاً بِغَمْزٍ، وَوَعِيداً بوعيدٍ، وتَهكُّماً بتهكمٍ، مُعْجَباً بشجاعتهم وحُضُورِ بَديهتهم، ومُغْضِياً على جَفائهم واسْتِعلائهم.

وأخبارُ مُنَاقشته لسادةِ العلويين والعباسيين والزبيريين والأنصار، وسادة سائر الأمصار، وطَعنِهم عليه، وتَجْريحهم له، وسُكوتهِ عنهم أكبرُ من أنْ يُحَاط بها في هذا المقام. وهي على اختلافِ مناسباتها وأشْخاصها يُكرِّرُ بعضُها بعضاً، ويَسُدُّ أحَدُها عن الآخر، وهي تَشْهَدُ بدهائه وتَدُلُّ على ذَكائِه (٣).

---

(١) أنساب الأشراف ٤ : ١ : ٢٠، وتاريخ الطبري ٥ : ٣٣٥، والبداية والنهاية ٨ : ١٣٥.

(٢) عيون الأخبار ١ : ٩، وتاريخ اليعقوبي ٢ : ٢٣٨، والعقد الفريد ٤ : ٣٦٤.

(٣) انظر أمثلة من مناقشة معاوية لخصومه ورفقه بهم في أنساب الأشراف ٤ : ١ : ١٦، ١٧، ١٨، ١٩، ٢٧، ٢٨، ٣١، ٣٧، ٣٨، ٤٠، ٤١، ٤٣، ٩٨، ووقعة صفين ص : ٥٥٤، وتاريخ اليعقوبي ٢ : ٢١٦، ٢٢٣، وتاريخ الطبري ٥ : ٣٣٣، ومروج الذهب ٣ : ١٣، ١٧، ٢٣، ٢٥، ٢٦، ٤٦، ٤٩، ٥٠، ٥١، ٥٢، وأخبار الدولة العباسية ص : ٦٢، ٧٥، ٨٢، وشرح نهج البلاغة ٢٠ : ١٢٦، ١٢٧، ١٣٥، ١٤٠، ١٤١، وتهذيب تاريخ ابن عساكر ٧ : ٢٠، ووفيات الأعيان ٢ : ٥٠٠، ٥٠٥، والبداية والنهاية ٨ : ١٣٥.

وكان يرى في مكاشفتهِ لِخُصُومِهِ ومُناظرتِهِ لهم، وتَحَامُلِهم عليهم، وتَنْدِيدهم به تَفْرِيغاً لحزازاتهم وضغائنهم، وتَنْفِيساً عن سُخْطِهم ونِقْمَتِهِم. وكان يَحْتَجُّ لذلك ويُدَافِعَ عنه إذا عُوتِبَ فيه، مُرَدِّداً أنه لا يستطيع أن يَمْنَعَ الناسَ من الكلام، وأنَّ كلامهم لا يُقَلِّلُ من هَيْبته وجَلَالَتِهِ، ولا يُضِرُّ بِسُلْطانه وخِلافته، فإذا جَاوَزُوهُ إلى الثَّورةِ عليه، وحَاوَلُوا انتزاعَ الحُكم منه فَتَكَ بهم، قال المدائني [1] : « أغْلَظَ رجلٌ لمعاوية وأسْرَفَ، فَحَلُمَ عنه، فقيل له : أتَحْلُمُ عن هذا ؟ فقال : إني لا أحُولُ بينَ الناسِ وألْسِنَتِهم ما لم يَحُولُوا بيننا وبينَ مُلْكِنا »!

(٢) « استخْدامُ يزيدَ الأوَّلِ للإقْنَاع والقَمْعِ »

وَوَازَنَ يزيدُ بن معاويةَ بينَ السَّماحةِ والخُشونة في سياستهِ، فقد دعا الناس إلى الطاعة، وحَبَّبَ إليهم فوائدها، وحَذَّرهم من الفِتنة، وخَوَّفَهم عواقِبها، وَوَعدهم إنْ يَنْظُر في حاجاتهم ويُنْفِذَها، وأنْ يَعْتَرِف بالأخطاء ويُصْلِحها، إذ يقول في خطبته الأولى التي خَطَبَها بعد موت أبيه [2]: « إن معاويةَ كان عبداً من عبيد الله، أنْعَمَ الله عليه ثم قَبَضَهُ إليه. وهو خيرٌ ممن بَعْدَهُ، ودُونَ من قَبْلَهُ، ولا أزكيِّهِ على الله فهو أعلم، فإنْ عَفَا عنه فبرَحمته،

---

(١) أنساب الأشراف ٤ : ١ : ١٧، وتاريخ الطبري ٥ : ٣٣٦، والكامل في التاريخ ٤ : ١٣.

(٢) أنساب الأشراف ٤ : ١ : ١٣٣، وانظر الخطبة في عيون الأخبار ٢ : ٢٣٩، والعقد الفريد ٤ : ٨٩، ٣٧٥، ومروج الذهب ٣ : ٧٥، والبداية والنهاية ٨ : ١٤٣. وقد حرَّف الرواة الجزء الأخير منها تحريفاً بيِّناً للتشهير بيزيد والتشنيع عليه، ففي عيون الأخبار، ومروج الذهب : « ولا أشتغل بِطَلَب علمٍ » ! وفي العقد الفريد : ولا آسى على طلب علمٍ » ! وفي البداية والنهاية : « لست آسى على طلب » !.

وإنْ عَاقَبَهُ فَبِذَنْبِهِ. ولن أني[1] عن طَلَبٍ، ولن اعْتَذِر[2] من تَفْرِيطٍ. وعلى رِسْلِكُمْ إذا أرادَ الله شيئاً كان ».

وفي بعض روايات خطبته أنه انتقد فيها جوانب من سياسة أبيه، فقد أقرَّ بأنه كان يكلِّفُ الناس من أمرهم عُسْراً، إذ كان يَحْمِلُهم على أن يُحاربوا في البحر، وكان يُجَمِّرُهُم ببلاد الروم في الشتاء، وكان يدفع لهم مُرَتَّباتهم على ثلاثة أقساطٍ، وتَعَهَّدَ بإنْصَافِهم وتَخْفِيفِ الأعباء عنهم، وضِمنَ لهم أن تستقيم حياتهم في أيامه على ما يُحِبُّون. فأثنى الناس على خُطَّته وسياسته، وتَعَلَّقُوا به، وقَدَّمُوه على أبيه، قال ابن كثير[3]: « قال لهم في خطبته هذه : « إن معاوية كان يُغْزِيكم في البحر، وإني لستُ حاملاً أحداً من المسلمين في البحر، وإنَّ معاويةَ كان يُشْتيكُم بأرض الروم، ولستُ مُشْتياً أحداً بأرض الروم، وإنَّ معاويةَ كان يُخْرِجُ لكم العَطاء أثلاثاً، وأنا أجْمَعُهُ لكم كُلَّه ». قال : « فافْتَرَقَ الناسُ عنه وهم لا يُفَضِّلُون عليه أحداً !

وكان يزيدَ يَتَرَيَّثُ في النَّظر في الأمور السياسيةِ والبَتِّ فيها تريُّثاً شديداً، ولم يكن يَميلُ إلى استعمال السيف إلَّا إذا أعْيَتْهُ الحيلةُ، وعَجزَ عن حَلِّها بالمُرَاجعةِ والمُشَاورةِ. ولكنه كان على تَريُّثِهِ قَويّاً لا يُفَرِّطُ في سلطان بني أمية، ولا يَتهاون في الذَّوْد عنه، قال عَوَانة بن الحكم[4]: « كان صحيحَ العُقْدةِ فيما يَرَى، مَاضِيَ العَزيمةِ، لا يَهُمُّ بشيءٍ إلَّا رَكِبَهُ ». وقد تأنَّى في الفصل في تَخَلُّفِ الحسين بن علي، وعبد الله بن عمر، وعبد الله ابن الزبير عن بَيْعَتهِ، فَلَجَأَ في أوَّل الأمر إلى التضييق عليهم، ليكرههم على

---

(١) لن أني عن طلب : لن أُقصِّر في طلب.

(٢) لن أعتذر من تفريط : لن أتنصَّل منه.

(٣) البداية والنهاية ٨ : ١٤٣.

(٤) أنساب الأشراف ٤ : ٢ : ١.

الرُّضُوخ له والدُّخول في طاعته. إذ كتب إلى الوليد بن عُتْبَة بن أبي سفيان عاملة على المدينة (١) : « خُذْ حُسَيْناً وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير بالبَيْعَة أخذاً شديداً، ليست فيه رُخْصَةٌ ولا هوادة حتى يُبَايِعُوا ». فلما أَصَرُّوا على مُخَالفته، وأجْمَعُوا على مُحاربته، أذن لِوُلاته وقَادَته في مُنَاجَزَتِهم. وكان الحسين بن علي قد أرسل ابنَ عَمِّهُ مسْلمَ بن عقْيل بن أبي طالب إلى الكوفة، لِيَسْتَوْثِق من أهلها، ويأخذ له البَيْعَة منهم، بعد أن كَتَبُوا إليه يَسْتَقْدمونه ويَدْعُونه إلى بَيْعته وخَلْعِ يزيد. وكان عبيد الله بن زياد والياً على البصرة، فَضَمَّ إليه يزيد الكوفة، وكتب إليه : « أن يَطْلُب مسلمَ بن عقيل فيَقْتُلَه إنْ وَجَدَه (٢) ». فَقَبَضَ ابنُ زيادٍ عليه وقتله (٣). ثم أقبل الحسين بن علي من مكة إلى الكوفة، ويقول مصعب الزبيري (٤) : « زعموا أنَّ يزيد كتب إلى عبيد الله بن زياد، وهو واليه على العراق: إنَّهُ بَلَغَني أنَّ حسيناً سار إلى الكوفة، وقد ابْتُلِيَ به بَلَدُك من بين البلدان، وابْتُلِيتَ به من بين العمال، ومنها تَعْتِقُ أو تعودُ عبداً كما تُعْتَبَدُ العَبيد ». وأمَّا اليعقوبي فيؤكد أن يزيد حَرَّضَ ابن زيادٍ على قَتْلِه، إذ يقول (٥): « كتب إليه : قد بلغني أن أهل الكوفة قد كتبوا إلى الحسين في القدوم عليهم، وأنه قد خرج من مكة مُتَوَجِّهاً نَحْوَهُم، وقد بُلِيَ به بَلَدُكَ من بين البلدان، وأيامك من بين الأيام،

---

(١) أنساب الأشراف ٤ : ٢ : ١٤، وتاريخ الطبري ٥ : ٣٣٨. وفي بعض روايات كتابه إلى الوليد بن عتبة بن أبي سفيان أنه أمره أن يضرب أعناق الحسين بن علي وعبدالله بن الزبير إن امتنعا عن بيعته. انظر تاريخ اليعقوبي ٢ : ٢٤١.

(٢) تاريخ الطبري ٥ : ٣٤٨.

(٣) الأخبار الطوال ص : ٢٤٠، وتاريخ الطبري ٥ : ٣٧٤، والعقد الفريد ٤ : ٣٧٨، ومروج الذهب ٣ : ٦٨، ومقاتل الطالبيين ص : ٩٧، والكامل في التاريخ ٤ : ١٩.

(٤) نسب قريش ص : ١٢٧، وانظر العقد الفريد ٤ : ٣٨١.

(٥) تاريخ اليعقوبي ٢ : ٢٤٢.

فإنْ قَتَلْتهُ، وإلَّا رَجَعْتَ إلى نَسَبِك وإلى أبيك عبيد، فاحْذَرْ أنْ يَفُوتَك »!

وأكثر الرِّواياتِ على أنَّ الحسين بن علي قَرَّرَ أنْ يُسَالِمَ ابن زياد بعد أنْ خَذَلَهُ أهلُ الكوفة، إذ قال لقائده عمر بن سعد بن أبي وقاص[1] : « اخْتَرْ واحدةً من ثلاث : إمَّا أنْ تَدَعُوني فأنْصَرِف من حيثُ جِئْتُ، وإما أنْ تَدَعُوني فأذهبَ إلى يزيد، وإما أن تَدَعُوني فأَلْحَقَ بالثُّغور ». فَمَنَعَهُ ابنُ زيادٍ من مُغَادَرةِ الكوفة إلَّا إذا اسْتَسْلَمَ له، فأبى وقَاتَلَ حتى قتِل[2].

وأَغْلَبُ الروايات على أن يزيد راجع نفسه في قَتْلِ الحسين بن علي، واسْتَفْظَعَهُ وَوَجَدَ على ابن زيادٍ لأنه أقدم عليه، يقول أبو عبيدة معمر بن المثنى[3] : « لما قَتَلَ عبيدُ الله بن زياد الحسينَ بن علي عليه السلام وبني أبيه بَعَثَ برؤوسهم إلى يزيد بن معاوية، فَسُرَّ بقتلهم أوَّلاً، وحَسُنَتْ بذلك منزلةُ عبيد الله عنده. ثم لم يلبث إلَّا قليلاً حتى ندم على قَتْل الحسين فكان يقول : وما كان عليَّ لو احتملت الأذى وأنْزَلْتُهُ معي في داري، وَحَكَّمْتُهُ فيما يريد، وإن كانَ عَلَيَّ في ذلك وَكَفٌ[4] وَوَهَنٌ في سلطاني، حِفْظاً لرسول الله ﷺ، ورعاية لِحقِّه وقرابته ! لَعَنَ الله ابنَ مرجانة، فإنه أخْرَجَهُ واضْطَرَّهُ، وقد كان سأله أنْ يُخَلِّيَ سبيلَهُ ويَرْجِعَ فلم يَفْعَل، أو يَضَعَ يده في يدي، أو يَلْحَقَ بِثَغْرٍ من ثغور المسلمين حتى يتوفاه الله عز وجل، فلم يفعل، فأبى ذلك ورَدَّهُ

---

(١) تاريخ الطبري ٥ : ٣٨٩، وانظر الأخبار الطوال ص : ٢٥١، وتاريخ اليعقوبي ٢ : ٢٤٤، والعقد الفريد ٤ : ٣٧٩، ومقاتل الطالبيين ص : ١١٤، والكامل في التاريخ ٤ : ٥٤، والإصابة ١ : ٣٣٤.

(٢) تاريخ خليفة بن خياط ص : ٢٨٤، وتاريخ اليعقوبي ٢ : ٢٤٣، والأخبار الطوال ص : ٢٥٢، وتاريخ الطبري ٥ : ٤٠٠، والعقد الفريد ٤ : ٣٧٨، ومروج الذهب ٣ : ٧٠، ومقاتل الطالبيين ص : ٩٥، والكامل في التاريخ ٤ : ٤٦، والبداية والنهاية ٨ : ١٧٢، والإصابة ١ : ٣٣٣.

(٣) تاريخ الطبري ٥ : ٥٠، وانظر الأخبار الطوال ص : ٢٦١، والعقد الفريد ٤ : ٣٨١، والكامل في التاريخ ٤ : ٨٤، والبداية والنهاية ٨ : ١٩١، ٢٣٢.

(٤) الوَكَفُ : العَيْبُ والنَّقصُ.

عليه وقَتَلَهُ، فبغضني بقتله إلى المسلمين، وزَرَعَ لي في قلوبهم العداوة، فَبَغَضَني البَرُّ والفَاجِرُ، بما اسْتَعْظَمَ الناس من قَتْلي حُسَيْناً، ما لي ولابن مرجانة لَعَنه اللهُ، وغَضِبَ عليه ».

ولم يَدْعُ ابنُ الزبيرِ إلى نَفْسهِ بالخلافةِ حتى مات يزيدُ بن معاوية، وكانَ قبلَ ذلك يَدْعُوا إلى الشُّورى[1]، وأيدَهُ أهْلُ المدينةِ. فهادَنَهُمْ يزيدُ وأجلهَم، لأنه اتَّعَظَ بما جَرَّ عليه قَتْلُ الحسينِ بنِ عليٍّ من بَرَمِ الناس به، وكُرْههم له، ثم أرْسَلَ إليهم وَفْداً من أهْلِ الشَّامِ فيهم النُّعْمان بنُ بشيرٍ الأنْصاريُّ، فاسْتَنهَى قَوْمَهُ من أنْفُسهم، وحَذَّرهم جُنودَ أهْلِ الشَّامِ، ورغَّبهم في بَيْعةِ يزيد، وكانَ مع النعمان كتابٌ من يزيدَ يُهَدِّدُ فيه أهْلَ المدينةِ، وقد أمَرَهُ بإظهاره إنْ لم يُذْعِنُوا له، وفيه يقول لهم[2]: « فقد أُنْظَرتُكُمْ حتى لا نَظرةَ، ورَفقْتُ بكم حتى عُجِّزْتُ عندكم، وحَمَلْتُكُمْ على رأسي ثم على عَيْني، ثم على نَحْري، وأيم اللهِ لئن وَضعْتُكُمْ تحتَ قدمي لأطأنكم وطأة أجْعَلُكمْ بها أحاديثَ تُؤْثرِ مع أحاديثِ عاد وثمُودَ ». فلم يَسْمَعُوا له، ثم هَتَفُوا بِخَلْعِه، وحَاصَرُوا بني أميَّةَ بالمدينةِ. فبعث إليهم مَسْلَم بن عُقْبةَ المريَّ في جيش أهل الشام، وأوصاه أنْ يُمْهِلهم ثلاثةَ أيامٍ، فإنْ أجابوه انْصَرفَ عنهم إلى عبد الله بن الزبير بمكة، وإلَّا قَاتَلُهمْ، فلما انْقَضَت الأيامُ الثلاثة التي ضَرَبَها لهم أجَلاً قال لهم[3]: « إنَّ أمير المؤمنين يَكْرَهُ إراقَةَ دمائكم، ولقد اسْتَدَامَكُمْ منذ زمانٍ، لأنكم أصْلُهُ، فاتَّقوا الله في أنفسكم، فَشَتَمُوه وشَتَمُوا يزيدَ وفجَّرُوهُ، وقالوا: بل نُحَارِبُ »، فنازَلَهم وهَزَمهم وقَتَل كثيراً منهم في وقعة الحرَّةِ،

---

(١) أنساب الأشراف ٤ : ٢ : ٥٨، وانظر ص : ١٤، ١٦، ١٧، ٢٧، ٤٧.

(٢) أنساب الأشراف ٤ : ٢ : ٣٢.

(٣) أنساب الأشراف ٤ : ٢ : ٣٥.

وأباح المدينة ثلاثة أيام، ثم تَوَجَّهَ إلى مكة، فمات قبل أن يَصِلَ اليها، وتَوَلَّى الحُصَيْنُ بنُ نُمَيْر السَّكونيُّ قيادة أهل الشام، فحَاصَرَ مكةَ، وَرماها بالمجانيق، ولم يزل يُحَاصِرُها حتى توفي يزيد بن مُعاوية، ثم رجع إلى الشام [١].

ويبدو أنَّ ما وقع من فِتَنٍ في أيام يزيدَ بنِ معاويةَ كان ثورةً على ما انتهت إليه حياة المسلمين السياسية أكثرَ مما كان ثورةً على يزيد نفسه، ولكن قيامَةَ بالخلافةِ، مع ما عُرِفَ من تَرفِهِ ولَهْوِهُ في حياتِهِ الخَاصَّةِ [٢] كان السَّبَبَ في الكُرْهِ له والتَّمَرُّدِ عليه، فقد كان المناوئون له يَبْتَغُونَ العَوْدَةَ إلى مبادىء الإسْلامِ التي تجعل إمامة المسلمين شورى بينهم، وكانوا يَتَوخَّوْنَ تصحيحَ الأخطاءِ السابقة التي أدَّتْ إلى أن يَظْفَرَ أقْوَى المسلمين بالخلافة، وأن يَتداوَلها ويتعاقبَ عليها أولاده وأقاربه. وكان التَّنافُسُ في الخلافة بين فُروع قريش وأُسَرِها، والتَّسابُقُ إليها بينَ أهلِ الحجازِ والعراقِ والشامِ من أسبابِ مُعَارضتهم له، وخُرُوجِهم عليه.

---

(١) تاريخ خليفة بن خياط ص : ٢٨٩، وطبقات ابن سعد ٥ : ٣٨، وتاريخ اليعقوبي ٢ : ٢٥٠، وأنساب الأشراف ٤ : ٢ : ٣٣ وتاريخ الطبري ٥ : ٤٨٢، والعقد الفريد ٤ : ٣٨٧، ومروج الذهب ٣ : ٨٩، والكامل في التاريخ ٤ : ١١١، والبداية والنهاية ٨ : ٢١٧، ٢٣٢.

(٢) لا تقف الروايات عند اتهام يزيد بن معاوية بالمجون والفحش، بل تتعدَّى ذلك إلى اتهامه بالزندقة والكفر، وقد أنكر ذلك الإمام الغزالي في فتوى طويلة. انظر وفيات الأعيان ٣ : ٢٨٧، وفوات الوفيات ٤ : ٣٢٩، وانظر البداية والنهاية ٨ : ٢٣٢.

(٣) « دَعْوَةُ مُعاوية الثاني إلى الشُّورَى »

ونَتَّفِقُ الرواياتُ المختلفةُ على أنَّ معاوية بن يزيد صَمَّمَ على إحياءِ مَبْدإ الشُّورَى في الخلافةِ، والاهتداءِ بسيرةِ الخلفاء الراشدين فيها، لِيُخَلِّصَ حياةَ المسلمين من المُنَافسات والمُنَازعاتِ السياسيةِ ويُصَفِّيهَا من الاجْتهاداتِ والمُمَارساتِ التي حَرفَتْهَا عن أصُولها الإسلامية، ولكن بعض الروايات الشيعيةِ تُضَخِّمُ نَقْدَهُ لِجَدِّه وأبيه تَضْخيماً شديداً، فهي تقطع بأنه هاجم جَدَّهُ لأنه خاصَمَ علي بن أبي طالب في الخلافة، وغالبه عليها حتى فاز بها واحْتَازَها، ولم يكن أهْلًا لها، ولأنه اسْتَبَدَّ بأمور المسلمين وتَسَلَّطَ عليهم، فَنَاهَضُوهُ ونَاهَضَهُمْ، وجَاهَدُوهُ وجَاهَدهُمْ، وهي تَقْطعُ بأنه عَابَ أباه، وأقَرَّ بأنه لم يكن يَصْلَحُ للخلافةِ، كما شَهَّرَ بِعُنْفِهِ بالعلويِّينَ، وسَفْكهِ للدِّماءِ، وانتهاكِهِ للمحارم، واقترافهِ للجرائمِ، وهي تُشير إلى ما تُجْمعُ عليه الرواياتُ من أنه تَنَازَل عن الخلافة، وخَوَّلَ المسلمينَ أنْ يُوَلُّوا على أنفسهم من يَرْضَوْنه إماماً لهم، قال اليعقوبي [1] : « كان له مَذْهَبٌ جميلٌ، فخطبَ الناسَ فقال : أمَّا بَعْد حَمْدِ الله والثناء عليه أيها الناسُ، فإنَّا بُلينَا بكم، وبُلِيتُمْ بنا، فما نَجْهَلُ كَرَاهَتكُمْ لنا، وطَعْنَكُمْ علينا. ألَا وإنَّ جَدِّي معاويةَ بن أبي سفيانَ نازع الأمرَ مَنْ كان أوْلَى به منه في القرابة برسولِ الله، وأحقَّ في الإسْلامِ، سابقَ المسلمينَ، وأوَّلَ المؤمنين، وابنَ عمِّ رسولِ ربِّ العالمين، وأبا بقيةِ خاتمِ المرسلين. فركبَ منكم ما تَعْلَمُونَ، وركبتمْ منه ما لا

(١) تاريخ اليعقوبي ٢ : ٢٥٤، وانظر النجوم الزاهرة ١ : ١٦٤.

تَنْكِرُونَ، حتى أتَتْهُ مَنِيَّتُهُ، وصارَ رَهْناً بِعَمله. ثم قُلِّد أبي، وكان غَيْرَ خليق للخير، فركبَ هَواهُ، واستَحْسَنَ خَطَأهُ، وعَظُمَ رجاؤه، فأخْلَفَهُ الأمَلُ، وقَصَّرَ عنه الأجَلُ، فَقَلَّتْ مَنَعَتُهُ، وانْقَطَعَتْ مُدَّتُهُ، وصار في حُفْرَتِهِ رَهْناً بِذَنبِهِ، وأسيراً بِجُرْمِهِ. ثم بكَى وقال : إن أعْظَمَ الأمورِ علينا عِلْمُنا بسوء مَصْرَعِهِ، وقُبْح مُنْقَلَبِه، وقد قَتَلَ عِتْرَةَ الرسول ، وأباح الحُرْمَة، وحَرَّق الكَعْبَة. وما أنا المُتَقلِّد أمورَكم، ولا المُحْتَمِلَ تَبِعاتِكم، فشأنُكُم أمركُمْ، فوالله لئن كانت الدنيا مُغنَماً لقد نِلْنَا منها حَظًّا، وإنْ تكن شراً فحسبُ آل أبي سفيان ما أصابُوا منها ».

وليس في الروايات الأموية وغير الأمويةِ ما يُسْتَشَفُّ منه أنه حَمَلَ على جَدِّه وأبيه وجَرَّحهما، بل فيها ما يفيدُ أنه كان مريضاً[1]، فعجز عن القيام بالخلافةِ، واعْتزَلَ، وتَحَرَّجَ منَ تَعْيين خَلَفٍ له، وفَوَّضَ إلى المسلمين أنْ يَنْتَخِبُوا إمامهم بأنفسهم، قال عوانة بن الحكم الكلبي الكوفيُّ[2] : « كان معاويةُ بنُ يزيدَ بن معاوية فيما بلغني أمرَ بَعد ولايته فنُوديَ بالشَّام : الصلاة جامعة ! فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أما بعد، فإني قد نظرتُ في أمركم فَضَعُفْتُ عنه، فابْتَغَيْتُ لكم رجلاً مثلَ عمرَ بنِ الخطابِ رحمة الله عليه حين فزعَ إليه أبو بكر فلم أجِدْهُ، فابْتَغَيْتُ لكم سِتةً في الشُّورى مثل ستةِ عمر فلم أجِدْها، فأنتم أوْلَى بأمركم، فاختاروا له من أحْبَبْتُم. ثم دخلَ منزله ولم يخرجْ إلى الناس، وتَغَيَّبَ حتى مات ».

---

(١) طبقات ابن سعد ٥ : ٣٩، وأنساب الأشراف ٤ : ٢ : ٦٢.

(٢) تاريخ الطبري ٥ : ٥٣٠، وانظر النص بقريب من لفظه في تاريخ اليعقوبي ٢ : ٢٥٤، ومروج الذهب ٣ : ٨٢، والكامل في التاريخ ٤ : ١٣٠، والبداية والنهاية ٨ : ٢٣٨.

وفيها ما يدلُّ على أنَّه تَخلّى عن الخلافة لأنه كان يعتقد أنه تَوَلَّاها بغيرِ حقٍ، وأنَّ غيره من أتقياء المسلمين وصُلحائهم وأشِدَّائهم أفْضَلُ منه، فهم أجْدَرُ بها وأقْدَرُ عليها، قال صاحب الإمامة والسياسة [1]: « جمعَ الناسَ، فحمد الله وأثْنَى عليه، ثم قال: أيها الناس، إني نَظَرْتُ بعدكم فيما صار إليَّ من أمركم، وقُلِّدْتُهُ من وِلايتكم، فَوَجَدْتُ ذلك لا يَسَعُني فيما بيني وبين رَبِّي، أن أتَقدَّمَ على قومٍ فيهم من هو خيرٌ مني، وأحَقُّهم بذلك، وأقْوَى على ما قُلِّدْتُهُ، فاخْتَارُوا مني أحدى خصلتين: إما أن أخرج منها، وأسْتَخْلَف عليكم من أراه لكم رضاً ومَقْنَعاً، ولكم الله علي ألَّا آلوكم نُصْحاً في الدين والدنيا، وإما أن تَخْتَارُوا لأنفسكم، وتُخْرِجُوني منها ».

وفيها ما يُؤَكِّدُ أنه ألْغى نظامَ ولايةِ العَهْدِ الذي اخْتَرَعَهُ جَدُّهُ، وأبْطَلَ العملَ به، ليَمْنَع آل أبي سفيان من أن يَتَوَارَثُوا الخلافة، ويجعلَ أمرَ المسلمين شُوَرى بينهم، حتى يختاروا خليفتهم، ويَقْتَسِمُوا أعباءَ ولايتهم، قال أبو أسماء السَّكْسَكيُّ [2]: « كان معاوية بن يزيدُ يُظْهِرُ التَّألُّهَ، وكان ضعيفاً في أمْر دُنْياهُ، فكنيَ أبا ليلى، فلما أفْضَى الأمرُ إليه قام خطيباً فقال: أيها الناس، إنْ يَكُنْ هذا الأمر خيراً فقد اسْتَكْثَر منه آل أبي سفيان، وإنْ يَكُنْ شراً فما أوْلَاهم بِتَرْكِهِ. والله ما أحبُّ أنْ أذْهَبَ إلى الآخرة، وأدعَ لهم الدنيا. ألَا فَلْيُصَلِّ بكم حسان بن مالك. وتَشَاوَرُوا في أمركم، عَزَم الله لكم على الرُّشدِ والخيرةِ في قضائه ». وقال نافع [3]: « لما ثَقُلَ معاوية بن يزيد

---

(١) الإمامة والسياسة ٢ : ١٣.

(٢) أنساب الأشراف ٤ : ٢ : ٦٤.

(٣) طبقات ابن سعد ٥ : ٣٩، وانظر النص بقريب من لَفْظِهِ في أنساب الأشراف ٤ : ٢ : ٦٢، ٦٣، ٦٥، والعقد الفريد ٤ : ٣٩١، والإمامة والسياسة ٢ : ١٣، ومروج الذهب ٣ : ٨٢، والكامل في التاريخ ٤ : ١٣٠، والبداية والنهاية ٨ : ٢٣٧، والنجوم الزاهرة ١ : ١٦٤.

قيل له : لو عَهِدْتَ إلى رجل عَهْداً، واستخلفتَ خليفةً ! فقال : والله ما نَفَعَتْني حَيّاً، فأتَقَلَّدُها مَيِّتاً، وإن كان خيراً، فقد استكثر منه آل أبي سفيان، لا تذهب بنو أمية بحلاوتها، وأتقلد مرارَتَها، والله لا يسألني الله عن ذلك أبدًا ».

وأنِفَ بنو أمية من قوْلِهِ ومَوْقِفِه، وخافوا أنْ يزولَ سلطانُهم، ومات ولم يَسْتَخْلِفْ أحداً. وقد تُنوزِعَ في سَبَبِ وفاتِهِ، فقيل : ماتَ حَتْفَ أنْفه، وقيل : طعنَ، وقيل : سُقِيَ سُمَّا [1].

(٤) « خُلَاصةٌ وتَعْقيبٌ »

ويَتَّضِحُ مِمَّا سَبَقَ أنَّ معاوية بن أبي سُفْيانَ هو الذي أنْشَأَ مُلْكَ بني أميَّةَ، فقد اسْتَقَلَّ بالشَّام بعدَ مَقْتَلِ عثمانَ بنِ عَفَّانَ، ونازعَ عليَّ بنَ أبي طالبٍ في الخلافةِ، ونَازَلَهُ بِصفِّينَ، وأسْفَرت الحَرْبُ بينهما عن مُحافظة معاوية على اسْتِقْلالِهِ بالشامِ، والْتفافِ أهْلِها حَوْلَهُ، ومُبَايَعتِهِم لهُ بالخلافة، وتَفرُّقِ أصْحاب عليٍ، ومُخَالفةِ بَعْضهم له، وخُرُوجهم عليه.

فلَمَّا اغْتِيلَ عليٌّ، احْتالَ معاويةُ للحسنِ بن عليٍّ حتى تَنازلَ له عن الخِلافةِ، فَصَفَا له الأمْرُ، وبَسَطَ سُلْطانهُ على سائرِ أمْصارِ الدَّوْلةِ، وجَدَّ في تَثْبيتِ مُلْكِهِ، فقَاوَمَ شيعةَ عليٍّ بالكوفةِ، وقَتَلَ بعضَ رُؤوسهم، وحاربَ الخوارج، وقضى على مَنْ ثارَ عليه منهم.

---

(١) تاريخ الطبري ٥ : ٥٣١، ومروج الذهب ٣ : ٨٢.

وأقامَ سياستَهُ على الوَعْدِ والوَعيد، والسَّماحةِ والقَسْوَةِ، فكانَ يَسَعُ بعضَ خُصُومه ويَتَغَاضَى عن نَقْدِهم لسياسَته، ويَتَغَافَلُ عن تَنْدِيدهم بِممُارسته، فإذا جَاوَزُوا ذلك إلى العَمل لإزَالة مُلْكِهِ، قَاتَلهم وفَتَكَ بهم.

وأحْدَثَ نظامَ وِلايةِ العَهْدِ، وأخذَ البَيْعَة لابنه يزيدَ، حتى تَخْلُصَ الخلافةُ لبني أميَّةَ، وتَسْتَقرَّ في آل أبي سُفْيانَ خاصةً.

وخَلفَهُ ابنُهُ يزيدُ فَوَعد النَّاسَ ومَنَّاهم، وبَشَّرهم بالتَّغْيير والإصْلاح، إذْ شَرَطَ لهم أنْ يَسُوسهم بالعَدْل وضَمِنَ لهم أنْ يَرْعَى شُؤُونَهم، ويُخَفِّفَ عنهم، وتَعَهَّدَ لهم أنْ يُقِرَّ بالتَّقْصيرِ، ويَرْجِع إلى ما يُرْضِيهم، على أنْ يَدْخُلُوا في طاعتهِ، ويَسْتَجيبُوا لأَمْرِهِ.

وبَنَى سياستَهُ على التَّرْغيبِ والتَّرْهيب، واللِّين والشِّدة، ولكنه كان حَرِيصاً على مُلْك بني أميَّة، صَلِيبا في الذَّوْدِ عنه.

وكانَ أهْلُ الحِجَاز كارِهينَ لِعَقْدِ العَهْدِ له، فلما قَامَ بالخلافةِ تَمرَّدَ عليه منهم الحسينُ بنُ عليٍّ، وعبدُ الله بنُ الزُّبير، وأنْصارُهم من أهْلِ الحجاز، وأبَوْا أنْ يُبَايِعُوا له، فحاوَل أنْ يَحْمِلَهم على المُبايعةِ له، فأصَرُّوا على مُنَاوأته، فَتَصَدَّى لهم، أمَّا الحسينُ بنُ عليٍّ فَقَتَلهُ عُبَيْدُ الله بنُ زيادٍ بالكوفة، وفي مَوْقِفِ يزيدَ من قَتْلِهِ اختلافٌ كثيرٌ، فمن المؤرخينَ مَنْ يَرَى أنَّهُ أذنَ لابنِ زيادٍ في قَتْلِهِ، ومنهم مَنْ يَرَى أنَّهُ لم يُسَوِّغْ له قَتْلَهُ، وأنَّ ابنَ زيادٍ تَصرَّفَ على هَواهُ، فلامَهُ يزيدُ وذَمَّهُ، ولكنه لم يَعْزِلْهُ عن عَمَلِهِ.

وأمَّا عبدُ الله بنُ الزُّبيرِ فَسَيَّر إليه جَيْشاً من أهْلِ الشام بقيادةِ مُسْلم بن عُقْبَةَ المُرِّيِّ، فَاحْتَلَّ المدينة، وانْتَهكَ حُرْمَتها، وسَفَكَ دِماءَ الثائرينَ من أهْلِها، ومَضَى إلى مكةَ، فمات في طريقهِ إليها، فَتَقَلَّدَ الحُصَيْنُ بن نُمَيْر

السكونيُّ قيادة الجيش ِ، وَوَاصَلَ السَّيْرَ إليها، فَبَلغَها وأحاطَ بها، وفي أثناء مُحَاصَرَتهِ لها تُوفِّي يزيدُ بنُ معاويةَ، فَعَرَض الحُصَيْنُ على ابن ِ الزُّبَيْرِ أنْ يُبايعَ له، ويَنْتَقِلَ معه إلى الشَّام ِ، فلم يَقْبَلْ منه، وفَضَّلَ أنْ يَظَلَّ مُقيماً بمكةَ، قال البلاذريُّ [1] : « وبَعَثَ الحُصيْنُ إلى عبدِ الله بن الزُّبير حين مات يزيدُ، وبَلَغَهُ مَوْتُ معاويةَ ابنه، فَوَاعَدَهُ بالأَبْطح ليلاً، فلمَّا اجْتَمعا قَالَ له الحُصَيْنُ : إنَّك أَحَقُّ النَّاس ِ بهذا الأمْرِ اليومَ، فَهَلُمَّ فَلْنُبايِعْكَ، ثم أخرجْ معنا إلى الشَّام ِ، فإني من أهْلِه بمكانٍ قد عَلِمْتَهُ، والجُنْدُ الذين معي أشْراف أهْل ِ الشَّام ووُجُوهُهُم وفُرْسانُهم، فليسَ يَخْتَلِفُ عليك منهم اثنان، والشامُ مَعْدِنُ الخلافةِ اليومَ، إذ نَقَلَهُ الله إليها. وجَعَلَ الحُصَيْنُ يقولُ له هذا القَوْلَ سِرًّا، وابنُ الزُّبيرِ يَرْفَعُ صَوْتَهُ بإبائه، فقالَ : لله أبُوكَ، ما عَرَفَ مَنْ نَسَبَكَ إلى الدَّهاءِ، أنا أُكلِّمكَ بمثْل ِ هذا سِرّاً، وتُجيبُني عليه عَلانيةً »!

وعلى هذا النَّحْوِ اسْتَفْرغَ يَزيدُ بنُ معاويةَ عَهْدَهُ في الذَّبِّ عن سُلطانه، وماتَ وقد ازْدادَ النَّاسُ بُغْضاً لبني أمية، ورَفْضاً لِسيَاسَتِهم، وسَعْياً لإسْقاطِ دَوْلَتهم.

وكانَ يَزيدُ بنُ معاويةَ قد عَقَدَ العَهْد لأبنهِ معاويةَ، فلما تَولَّى الأمْرَ خَالَفَ مَنْهَجَ أبيهِ وجَدِّهِ في الحُكْم، وأعْلَنَ أنَّ آل أبي سُفْيانَ اغْتَصبُوا الخلافة، واسْتَأْثَرُوا بها، ورأى أنَّ أمْرَ المسلمينَ في زَمانهِ لا يَصْلُحُ إلَّا بما صلح به أمْرُهم في زَمانِ الخلفاءِ الرَّاشدينَ، فَقَررَ أنْ يَعْمَلَ بمبدأ الشُّورى في الخلافة، فَتَنحّى وترك للنَّاس ِ أنْ يَخْتارُوا خَليفَتَهم بأنفسهم، ثم لم يَلْبَثْ أنْ مات، فاضْطرب الأمرَ، وأوشك مُلْكُ بني أمية على الأنْهيار.

وهكذا لم يُذعن المسلِمون للسُّفيانيين، ولم يَسْكُتوا عن اسْتِبْدَادِهم

---

(١) أنساب الأشراف ٤ : ٢ : ٥٢، وتاريخ الطبري ٦ : ٥٠٢، والكامل في التاريخ ٤ : ١٢٩.

بالخلافة، بل استَمرُّوا يُقاومُونهم ويُحَاربونهم، لأنَّ استِلابَهم للخلافةِ كان انتصاراً للمَفَايهم القبليَّةِ، وانْدِحَاراً للمبادىء الإسْلاميَّة [1]. وكان المُسْلمُونَ يَبْتَغُون تَوْليةَ الأكْفاءِ من أبناءِ الأمَّةِ، ولكنهم كانوا مُخْتَلفين فيمن يَتقلَّدُها منهم، إذْ كانَ وَلَدُ عليٍّ بن أبي طالبٍ يَرَوْن أنَّ الخلافة حَقٌّ لهم، لأنهم أسْباطُ الرَّسُولِ، وأهْلُ بيتهِ، فهم أوْلَى بوراثته، وأحقُّ بمقَامهِ [2] وكان شيعَتُهم يُقَدِّمُونَهم لِقَرابتهم من الرَّسولِ، وأنَّ والدَهم من أهْلِ السَّابقةِ والقُدْمةِ في الإسْلامِ، ومن المُهَاجِرين الأوَّلينَ، وأنهم من أهْلِ الصَّلاحِ والتَّقْوَى [3]. وكان الخَوارجُ يَدْعُونَ إلى أنْ تكونَ الخلافةُ شُورَى بينَ المسلمينَ يَتولَّاها أجْدَرُهم بها، وكانَ ابنُ الزُّبيرِ يَدْعو إلى ذلك في أوَّلِ الأمْرِ، ثم دَعَا إلى نَفْسِهِ بَعْدَ مَوْتِ يزيدَ بنِ معاويةَ [4]، وكان أنْصَارُهُ يُؤْثرونَهُ لأنه ابنُ حَواريِّ الرَّسُول، ورَجُلٌ له فَضْلٌ وحنْكَةٌ وفِقْهٌ وصَلاحٌ في دينه [5].

---

(١) مقدمة في تاريخ صدر الإسلام ص : ٦١.

(٢) تاريخ الطبري ٦ : ٣٥٧، ٤٠٢.

(٣) تاريخ الطبري ٦ : ٥٥٩.

(٤) تاريخ خليفة بن خياط ١ : ٣٢٤، وأنساب الأشراف ٤ : ٢ : ٥٨.

(٥) أنساب الأشراف ٥ : ١٢٨، ١٣٤، ١٤٤.

« الفَصْلُ الرَّابعُ »

« المَرْوَانِيُّونَ المُتَقَدِّمُونَ »

(١) « مُبَايَعَةُ اليَمانيةِ لمروانَ الأولِ بالخلَافةِ »

أخرجَ عبدُ الله بنُ الزُّبَيْرِ بني أُميَّةَ ومروانَ بنَ الحكمِ من المدينةِ، ونَفَاهُمْ إلى الشَّامِ، بعدَ مَوْتِ يزيدَ بنِ معاويةَ. ويقال: إنَّهم رَحَلُوا إلى تَدْمُرَ فَنَزَلُوها، ولم يَزَالُوا بها حَّتى تُوُفيَ معاويةَ بنُ يزيدَ (١).

وكان الضَّحاكُ بنُ قَيْسٍ الفِهْريُّ يُصَلِّي بأَهْلِ دمشقَ، ويقيمُ لهم أمْرَهم حتى يَجْتَمِعَ الناسَ على خَليفةِ. وكان يَهْوَى هَوَى ابنِ الزُّبَيْرِ، وكان يَمْنَعُهُ من إظْهارِ ذلك أنَّ بني أمية كانوا بِحَضْرته، فكان يَدْعُوا إليه سِرًّا. وكانَ النعمانُ بنُ بشيرٍ الأنصاريُّ بِحمْصَ يُبايعُ لأبنِ الزُّبيْرِ، وكان زُفرُ بنُ الحارثِ الكِلابيُّ بِقِنَّسْرِينَ يُبايعُ له أيضاً. وكان حَسَّانُ بنُ مالكٍ بنُ بَحْدَلٍ الكَلْبيُّ عاملاً لمعاويةَ ولابنهِ يزيدَ على فلسطينَ والأُرْدُنِّ، وكان نَاتِلُ بنُ قَيْسٍ الجُذاميُّ بفلسطين يميلُ إلى ابنِ الزُّبَيْرِ، وكان حسانٌ بها، ولكنه لم يكنْ له بها عَشِيرةٌ، فَخَرَجَ منها إلى الأُرْدُنِّ، واسْتَخْلَفَ عليها رَوْحَ بنَ زنباعٍ الجُذاميَّ، فَوثَبَ عليه ناتلٌ فأخْرَجُه منها، واسْتَوْلَى عليها، وبايَعَ لابن الزُّبَيْرِ (٢).

---

(١) طبقات ابن سعد ٥ : ٤١، وأنساب الأشراف ٥ : ١٤١، وتاريخ الطبري ٦ : ٥٤٠، والكامل في التاريخ ٤ : ١٥١.

(٢) أنساب الأشراف ٥ : ١٣٢، وتاريخ الطبري ٦ : ٥٣١، والعقد الفريد ٤ : ٣٩٤، والكامل في التاريخ ٤ : ١٤١، والبداية والنهاية ٨ : ٢٣٩.

فلمَّا رأىَ مَرْوانُ بنُ الحكمِ اختلافَ النَّاسِ وتَفرُّق أهْوَائهم، فكَّرَ في أنْ يَنْطَلِقَ إلى ابنِ الزبيرِ بمكةَ، فيبايعَ له، ويأخذَ منه أماناً لبني أميَّةَ، ويقال : إنَّهُ خرجَ إليه، وخرجَ معه عمرُو بنُ سعيد بن العاصِ ، فلمَّا كانوا بأذْرِعاتٍ، وهي مدينةُ البَثَنِيَّةِ من جُنْد دمشق لِقَيهم عبيدُ الله بن زيادٍ مُقْبلاً مِنَ العراقِ ، فسألهُ عنْ غايته، فأخْبَرهُ، فلامهُ وثَنَاهُ عن قَصْدِه، وأشارَ عليه أنْ يَدْعُو إلى نَفْسِه، وضَمِنَ له أنْ يَكْفِيَهُ قُرَيْشاً ومَوَالِيهَا، ولا يُخَالِفَهُ منهم أحدٌ، فاستَجابَ له، ورجعَ إلى تَدْمُرَ، فجمعَ بني أُميَّةَ، فبايَعُوهُ بالإمارةِ عليهم، وبايَعَهُ أهْلُ تَدْمُرَ [1].

وقَدِمَ عبيدُ الله بنُ زيادٍ دمشقَ، فأقامَ بها، وجَعَلَ يكيدُ للضَّحاكِ يريدُ أنْ يُزَهِّدَ الناسَ فيه، ويُنفِّرَهم منه، ويَصْرِفَهم عنه، ولم يَزَلْ يكيدُ له حتى أوْقعَ بينَهُ وبَيْنَهم، قالَ ابنُ سعدٍ[2] : « كانَ يَرْكَبُ إلى الضَّحاكِ بنِ قَيْسٍ كلَّ يومٍ فيُسَلِّمُ عليه ثم يَرْجعُ إلى مَنْزِلِه، فقالَ له يوماً : يا أبا أُنَيْسٍ ، العَجَبُ لك، وأنت شَيْخُ قريشٍ تَدْعُو لابنِ الزُّبيرِ، وتَدَعُ نَفسَك، وأنت أرْضَى عندَ الناسِ منه ! فادْعُ إلى نفْسِك ! فَدَعا إلى نَفْسِهِ ثلاثةَ أيامٍ ، فقالَ له الناسُ : أخذتَ بَيْعَتَنا وعُهُودَنا لرجلٍ ثم تَدْعُو إلى خَلْعِه عن غير حَدَثٍ أحْدثَهُ ! فلمَّا رأى ذلكَ عادَ إلى الدُّعاءِ لأبنِ الزُّبيرِ، فأفْسَدَهُ ذلك عندَ الناسِ ، وغيَّرَ قُلُوبَهم عليها ».

واستقرَّ حسانُ بنُ مالكِ بنِ بِحْدَلِ الكَلْبيُّ بالأرْدُنَّ بعدَ أنْ خَرَجَ من فلسطينَ، وكان يُمَالِئُ بني أميةَ، ويَتَحزَّبُ لهم، ويُحبُّ أنْ تكونَ الخلافةُ

---

(١) أنساب الأشراف ٥ : ١٤١، وتاريخ الطبري ٦ : ٥٤٠، وتهذيب تاريخ ابن عساكر ٧ : ١١، والكامل في التاريخ ٤ : ١٥١، وشرح نهج البلاغة ٦ : ١٥٦، والبداية والنهاية ٨ : ٢٤١.

(٢) طبقات ابن سعد ٥ : ٤٠، وتهذيب تاريخ ابن عساكر ٧ : ١١، والبداية والنهاية ٨ : ٢٤١، وانظر تاريخ الطبري ٦ : ٥٣٥، وشرح نهج البلاغة ٦ : ١٦٥.

فيهم، فقامَ بالأُرْدُنِّ فقال[1] : « يا أَهْلَ الأُرْدُنِّ، ما تَقُولونَ في عبدِ اللهِ بنِ الزُّبير، وقَتْلى أَهْلِ الحَرَّةِ ؟ قالُوا : عبدُ اللهِ مُنافِقٌ، وقَتْلَى أَهْلِ الحرَّةِ في النارِ ! قال : فما تقُولون في يزيدَ بنِ معاوية، ومَنْ قُتِلَ بالحرَّةِ منْ أهلِ الشَّامِ ؟ قالوا : يزيدُ في الجنة، وقَتْلانَا في الجنة ! فقال : لئن كانَ يزيدُ يومئذٍ على حقٍ إنَّ شيعَتَهُ على حقٍ، ولئنْ كانَ ابنُ الزُّبير يومئذٍ على باطلٍ إنه اليومَ لعلى باطل ! قالوا : صَدَقْتَ، نُبَايِعُكَ على قتالِ مَنْ خَالَفَكَ، وأَطاعَ ابنَ الزُّبير، على أنْ تُجَنِّبنا هذين الغُلامَيْنِ من خالدِ بنِ يزيدَ وأخيه عبدِ الله، فإنَّهما حَدِيثةٌ أَسْنانُهما، ونحنُ نَكْرَهُ أنْ يأتي الناسُ بِشَيْخٍ، ونَأتيهم بِصَبِيٍّ ».

وبلَغَ حَسَّاناً أنَّ الضَّحاكَ بنُ قَيْسٍ الفهْرِيَّ يُشَايِعُ ابنَ الزُّبير، ويُبَايِعُ له سِرًّا خَوْفاً من بني أميةَ وكلْبٍ، فكتب إليه حَسَّانٌ كتاباً « يَشْتِمُ فيه ابنَ الزُّبيرِ، ويُعَظِّمُ له حَقَّ بني أمية، ويُذكِّرُهُ إحْسَانَهم إليه واصْطِناعَهم له وبِرَّهُم به، وأَنْفذَ الكتابَ إليه مع رجلٍ يُقَالَ له ناعصةُ من وَلَدِ ثَعْلَبِ بنِ وَبرةَ إخوةِ كلبٍ، ودَفَعَ إليه نُسْخَتَهُ، وقالَ : إنْ لم يُظْهِر الضَّحاكُ هذا الكتابَ وكَتَمَهُ، فاقرأْهُ أنت على النَّاسِ. فأَوْصَلَ الكتابَ إليه، فقرأَهُ ولم يُظْهِرْهُ، فقرأَ ناعصةُ نُسْخَتَهُ، فقامَ الوليدُ بنُ عُتْبَةَ بنِ أبي سفيانَ فقالَ : صَدَقَ حَسَّانٌ وكذَّبَ ابنَ الزُّبيرِ وشَتَمَهُ، وقامَ يزيدُ بنُ أبي النِّمْسِ الغَسَّانيُّ فصَدَّقَ مَقَالَةَ حَسَّانٍ وكتابَهُ، وشَتَمَ ابنَ الزُّبير، وقامَ سفيانُ بن الأَبْرَد الكلبيُّ فقالَ مثلَ ذلك، ثم قامَ أبو رجاء عُمرُ[2] بنُ زَيْدٍ الحكميُّ، فَشَتَم حَسَّانَ بنَ مالكٍ وكَذَّبَهُ، وأَثْنَى على عبدِ اللهِ بنِ الزُّبيرِ، واضْطَرَب الناسُ بِنعالِهم. ثم أَمَر

---

(١) أنساب الأشراف ٥ : ١٣٢، وتاريخ الطبري ٦ : ٥٣١، والكامل في التاريخ ٤ : ١٤٦، وشرح نهج البلاغة ٦ : ١٥٧، والبداية والنهاية ٨ : ٢٤٠.

(٢) كذلك في أنساب الأشراف ٥ : ١٣٣، وفي سائر المصادر : عمرو.

الضَّحاكُ بالوليد بن عُتْبَةَ، ويزيدَ بن أبي النِّمْسِ، وسُفْيانَ فَحُبِسُوا، وجال بعضُ الناسِ في بعضٍ، ووَثَبَتْ كلبٌ على عمرَ بن يزيدَ الحَكَميِّ. وقامَ خالدُ بنُ يزيدَ بنِ معاوية على مِرْقاتَيْنِ من المِنْبرِ فتكلَّم وسَكَّنَ الناسَ، وجاءتْ كَلْبٌ فأخرجَتْ سفيانَ من الحَبْسِ، وجاءتْ غسانُ فأخرجَتْ بن أبي النِّمْسِ، فقال الوليدُ بنُ عُتْبةَ : لو كنتُ من كَلْبٍ أو غَسَّانَ أُخْرِجْتُ، فجاءَ خالدُ بنُ يزيدَ وعبدُ الله بنَ يزيدَ، ومَعَهما أخْوَالُهما من كَلْبٍ، فأَخْرَجُوا الوليدَ، فكانَ أَهْلُ الشامِ يُسَمُّونَ هذا اليومَ يومَ جَيْرُونَ [1]».

فاشْتَدَّ بُغْضُ الضَّحاك لبني أميةَ وشِيعَتهم من اليمانيةِ، وجعَلَ يَذُمُّ يزيدَ ابن معاويَة، فازْدَادَ الأمْرُ سُوءًا، إذْ ثارتَ العَصَبيَّةُ، واسْتَطارتِ المنافسةُ السياسيةُ بينهم، وسخطَ اليمانيةُ على الضَّحاكِ، ونالُوا منه، وآذوهُ، فاسْتكانَ لهم، واسْتَرْضَى بني أميةَ، ودعا إلى عَقْدِ مؤتمرٍ بالجابيةِ، يَحْضَرُهُ بنو أمية وشيعتُهم من اليمانيةِ، ليختارَ بنو أميةَ خليفةً منهم، وخرج من دمشقَ إلى الجابية، فلمَّا كان ببعضِ الطريقِ تَصَدَّى له القيْسيَّة، وأنكرُوا عليه تَخَليَهُ عن بَيْعَةِ ابنِ الزُّبيرِ، ولامُوهُ وأنَّبوهُ، فأذعَنَ لهم، وسارَ معهم إلى مَرْجِ راهطٍ فبايعَ لابنِ الزُّبير، وخَلَعَ بن أميةَ [2].

وصارَ بنو أميةَ إلى الجابيةِ، وَوَافَى حَسَّانٌ، فَصَلَّى بهم أربعينَ ليلةً، وهم يَتَشَاوَرونَ فيمن يَنتَخِبُونَ للخلافةِ ولم يزالوا يُفَاضِلُونَ بين المُرَشَّحِينَ، ويَتَبادَلُون الرأيَ فيهم حتى أطْبقوا على انْتِخابِ مَرْوَانَ بنِ الحكمِ، قال

---

(١) أنساب الأشراف ٥ : ١٣٢، وتاريخ الطبري ٦ : ٥٣٢، والعقد الفريد ٤ : ٣٩٥، وتهذيب تاريخ ابن عساكر ٧ : ١٠، والكامل في التاريخ ٤ : ١٤٦، وشرح نهج البلاغة ٦ : ١٥٨، والبداية والنهاية ٨ : ٢٤٠.

(٢) أنساب الأشراف ٥ : ١٣٣، وتاريخ الطبري ٦ : ٥٣٥، وتهذيب تاريخ ابن عساكر ٧ : ١٠، والكامل في التاريخ ٤ : ١٤٧، وشرح نهج البلاغة ٦ : ١٥٩، والبداية والنهاية ٨ : ٢٤٠.

عَوَانةُ بنُ الحكمِ الكلبيُّ (١) : « كانت الأهْواءُ بالجابيةِ مختلفةً : حُصَيْنُ بن نُمَيْرٍ [السكونيُّ] يَهْوَى أنْ يُولِّيَ مروانَ بنَ الحكمِ ، ومالكُ بنُ هُبَيْرَة [السكونيُّ] يَهْوَى أنْ يُوَلِّي خالدَ بنَ يزيدَ، فقال مَالكُ بنُ هبيرة لِلْحُصَيْنِ : هلم نبايعْ خالدَ بنَ يزيدَ، فقد عرفتَ مَنْزِلتَنا كانت من أبيه، فقال الحُصَيْنُ : لا واللهِ، لا تأتينا الناسُ بشيخٍ ، ونأتيهم بصبيٍّ، فقال مالكٌ : وَيْحَكَ ! إنَّ مروانَ وآلَ مروانَ يَحْسُدُونَك على سَوْطِكَ وشِراكِ نَعْلِكَ وظلِّ شجرةٍ تَسْتَظِلُّ بها، ومروانُ أبو عشرةٍ، وأخو عشرةٍ، وعَمُّ عشرةٍ، وإنْ بايعتموهُ كنتم عبيداً لهم، ولكن عليكم بابنِ أختكم خالدٍ، فقال : مَرْوانَ شيخُ قُريشٍ ، والطّالبُ بدمِ الخليْفةِ المَظْلومِ ، وهو يدبرنا ويَسُوسُنا، ولا يحتاجُ إلى أنْ نُدَبِّرَهُ ونَسُوسَهُ، وغيرُهُ يحتاجُ إلى أنْ يُدبَّر ويُسَاسَ. وذكرَ بعضُهم عبدَ الله بنَ عمرَ بن الخطابِ، فقالَ رَوْحُ بنُ زِنْباعٍ : إنكم تَذْكُرونَ عبدَ الله بنَ عمرَ وفَضْلَهُ، وهو كما ذكَرْتُمْ، إلَّا أنه ضعيفٌ، وليس صاحبُ أمةِ محمدٍ بالضعيف. وتذكرونَ ابنَ الزبيرِ، وهو واللهِ ابنُ حواريِّ رسولِ الله، وابنُ أسماءَ بنتِ أبي بكرٍ الصديق ذات النِّطاقينِ ، وهو بَعْدُ كما ذكرْتُمْ في قدمهِ، ولكنه منافقٌ خَلَعَ خَلِيفتَيْن، يزيدَ ابنَ معاويةَ ومعاويةَ بنَ يزيدَ، وسفَكَ الدماءَ، وشَقَّ العَصَا. وأمَّا مروانُ فما كان في الإسلامِ صَدْعٌ إلَّا كانَ ممن شَعَبَهُ، وهو الذي قاتَل عن أميرِ المؤمنين عثمانَ يومَ الدارِ، وقاتلَ عليَّ بنَ أبي طالبٍ يومَ الجمل، ورَمَى طَلْحَة فاسْتَقادَ منه، أفَنُبايعُ الصغير ونَدَعُ الكبيرَ ؟ فَتَمَّ رأيُهم على البَيْعَةِ لِمروانَ وأجْمَعُوا عليها، ثم لخالدِ من بعدِهِ، ثم لعمرو بن سعيدِ الأشدقِ من بعدِ خالدٍ، فَبُويع مَرْوانُ، فلم تَقَع البَيْعَةُ لغيره ».

وكانت كَلْبٌ تدعو إلى بني أميةَ، وإلى خالدِ بن يزيدَ، وتَتَعصَّبُ ليزيدَ

(١) أنساب الأشراف ٥ : ١٣٤، وتاريخ الطبري ٦ : ٥٣٥، والكامل في التاريخ ٤ : ١٤٧، وشرح نهج البلاغة ٦ : ١٦٠.

ابنِ معاويةَ، لأنه ابن أختهم [1]، وأظْهرَ حَسّانٌ الدُّعاءَ له، وعَزَمَ عليه [2]، فقالَ له عبدُ الله بن عِضاه الأشعريُّ بالجابيةِ [3] : « أراكَ تريدُ هذا الأمر لخالدِ ابنِ يزيدَ، وهو حَديثُ السِّنِّ، فقال : إنه مَعْدِنُ المُلْكِ، ومَقَرُّ السياسةِ والرئاسةِ، فأتى ابنُ عَضاه خالداً في جماعةٍ من نُظَرائِه من الوُجُوهِ، فَوَجَدَهُ نائماً مُتَصبِّحاً، فقال : يا قَوْمُ، أَتَجْعَلُ نُحُورُنا أغْراضاً للأسِنَّةِ والسُّهوم بهذا الغُلامِ، وهو نائمٌ في هذه الساعةِ، وإنَّما صاحبُ هذا الأمْرِ المُجدُّ المُشَمِّرُ الحازمُ المُتَيقظُ. ثم أتى مروانَ بنَ الحكمِ، فألفاهُ في فُسْطاطٍ له، وإذا دِرْعُهُ إلى جانبهِ، والرُّمْحُ مَرْكوزٌ بفنائه، وفَرسُهُ مَرْبُوطٌ إلى جانب فُسْطاطه، والمصحفُ بينَ يديهِ وهو يقرأ القرآن، فقال ابنُ عِضاهٍ : يا قومَ، هذا صاحِبُنَا الذي يَصْلُحُ له الأمْرُ، وهو ابنُ عَمِّ عثمانَ، أمير المؤمنينَ، وشيخُ قريشٍ وسِنُّها، فَرَجَعُوا إلى حَسَّانِ بنِ مالكٍ، فأخْبرُوهُ بِخَبرِ خالدٍ ومروانَ، وأعْلَمُوهُ أنهم مُجْمعونَ على مروانَ لأنه كبيرُ قُرَيشٍ وشَيْخُها، فقال ابنُ بَحْدَلٍ : رأيي لرأيكم تَبعٌ، إنَّما كرهتُ أنْ تُعْدَلَ الخلافةُ إلى ابنِ الزُّبيرِ، وتخرجَ من أهْل هذا البيت. ثم قام حسانٌ خطيباً، فحمدَ الله، وأثْنى عليه، ثم ذكرَ مروانَ فقال : هو كبيرُ قريشٍ وسِنِّها، وابنُ عمِّ الخليفةِ المَظْلُوم، والطَّالبُ بدَمهِ قبلَ الناسِ أجْمَعين، فَبَايِعُوهُ، رَحِمكم الله، فهو أوْلَى بميراثِ عثمانَ، وأحقُّ بالأمْرِ من المُلْحدِ ابنِ الزُّبيرِ الذي خَلَعَ الخِلافةَ، وجاهَرَ الله بالمَعْصية. فَسَارَعُوا إلى بَيْعَتهِ، ومَاسَحُوهُ [4] ودَعَوْا له، والْتَفَّتْ إليه بنو أميَّةَ فقالوا : الحَمْدُ لله الذي لم يُخْرِجْها مِنَّا »!

---

(1) أنساب الأشراف ٥ : ١٣٣، وتاريخ الطبري ٦ : ٥٣٣، والكامل في التاريخ ٤ : ٢٤٧، وشرح نهج البلاغة ٦ : ١٥٩، والبداية والنهاية ٨ : ٢٤٠.

(2) أنساب الأشراف ٥ : ١٢٨.

(3) أنساب الأشراف ٥ : ١٢٨، وانظر العقد الفريد ٤ : ٣٩٤، والإمامة والسياسة ٢ : ١٦.

(4) ماسحوه : صافحوه.

ودَعَا حَسَّانٌ خالداً فقال له [1] : « أبُنَيَّ أختي، إنَّ الناسَ قد أبَوْكَ لِحَداثة سِنِّكَ، وإني واللهِ ما أريدُ هذا الأمرَ إلَّا لك ولأهل بَيْتك، وما أبايعُ مروانَ إلَّا نَظراً لكم، فقالَ له خالدُ بن يزيدَ : بل عُجِّزْتَ عنا ! قال : لا، واللهِ ما عُجِّزْتُ عنك، ولكنَّ الرأيَ لك ما رأيتُ ».

وبذلك رأى رُؤساءُ اليمانيةِ المُوَالونَ لبني أميةَ بالشام أنَّ مَرْوانَ بنَ الحكم هو أصْلَحُ المُرَشَّحينَ للخلافةِ من أهْلِ الحجاز وأهْلِ الشامِ، فاختاروهُ، وأعْلَنُوا اتِّفاقِهم عليه ومبايعتهم له، وتَنَازلَ بعضُهم عن رغبتهم في مبايعة غيره. واجتمعَ إليه بنو أمية ومواليهم وأتْباعُهم من كلبٍ وغسانَ والسَّكاسكِ والسَّكونِ، فسارَ بهم من الجابيةِ إلى مَرْجِ رَاهطٍ لمحاربةِ الضَّحاك بنِ قَيْسٍ الفِهْرِيِّ.

وكانَ ابنُ الزُّبير قد وَلَّى الضَّحاكَ دمشقَ، وَوَلَّى النُّعمانَ بنَ بَشيرٍ الأنصاريَّ حمصَ، وَوَلَّى زفرَ بنُ الحارثِ الكِلابيَّ قِنَّسْرينَ، وَوَلَّى ناتِلَ بنَ قيسٍ الجُذاميَّ فلسطينَ بعدَ أنْ بلغَهُ أنهم دَخلُوا في طاعته وبايَعُوا له [2]، فأرْسَلَ إليهم الضَّحاكُ يَسْتَمِدُّهم، فأَمَدَّهُ النُّعْمَانُ بأهْلِ حِمْصَ، وأمَدَّهُ زفرُ بأهْلِ قِنَّسْرينَ، وأمَدَّهُ ناتلٌ بأهْلِ فلسطين [3]، ولكن أكثر أنْصَارِه كانوا من قَيْسٍ، إذْ كانتْ قَيْسٌ بالشَّامِ تَدْعُو إلى ابنِ الزُّبَيْرِ ونُصْرةِ الضَّحاكِ [4]،

---

(١) تاريخ الطبري ٦ : ٥٣٧، والكامل في التاريخ ٤ : ١٤٨، وشرح نهج البلاغة ٦ : ١٦١.

(٢) أنساب الأشراف ٥ : ١٢٧، وتاريخ الطبري ٦ : ٥٣٥، والعقد الفريد ٤ : ٣٩٤، وتهذيب تاريخ ابن عساكر ٧ : ١٠، والبداية والنهاية ٨ : ٢٤١.

(٣) أنساب الأشراف ٥ : ١٣٤، وتاريخ اليعقوبي ٢ : ٢٥٦، وتاريخ الطبري ٦ : ٥٣٥، والكامل في التاريخ ٤ : ١٤٩، وشرح نهج البلاغة ٦ : ١٦٠، والبداية والنهاية ٨ : ٢٤٣.

(٤) أنساب الأشراف ٥ : ١٣٣، وتاريخ الطبري ٦ : ٥٣٣، والعقد الفريد ٤ : ٣٩٥، ومروج الذهب ٣ : ٩٥، والكامل في التاريخ ٤ : ١٤٧، وشرح نهج البلاغة ٦ : ١٥٩، والبداية والنهاية ٨ : ٢٤٠.

وكان يزيدُ بنُ أبي النِّمْسِ الغسانيُّ مُخْتَبِئاً بدمشقَ لم يَشْهَدِ الجابيةَ، فَغَلَبَ على دمشقَ، وأخرجَ عاملَ الضَّحاكِ منها، وغلبَ على الخزائِنِ وبيوتِ الأموالِ، وبايعَ بها لِمروانَ، وأَمَدَّهُ بالأَمْوالِ والرِّجالِ والسِّلاحِ[1] واقْتَتَلَ الفريقانِ عشرينَ يوماً، فَقُتِلَ الضَّحاكُ، وقُتِلَ معه مِنْ قَيْسٍ مَنْ لم يُقْتَلْ مِثْلُهُمْ قَطُّ. وبَلَغتِ الهزيمةُ النعمانَ بِحِمْصَ، فخرجَ هارباً، فَطَلَبَهُ أَهْلُ حِمْصَ فَقَتَلُوهُ، وفَرَّ زُفَرُ من قِنَّسْرينَ فلحِقَ بِقَرْقيسْيا، فَدَخَلها وتَحصَّنَ بها، وهَرَبَ ناتِلٌ من فلسطينَ فَلَحِقَ بابن الزُّبير بمكةَ. وتحوَّلَ مروانُ إلى دمشقَ فاسْتَقَرَّ بها، وبَعَثَ عُمَّاله على الأجْنادِ، وبايعَ له أَهْلُ الشَّامِ جميعاً[2].

وخرجَ مروانُ بعدما اجتمعَ له أَمْرُ الناسِ بالشام إلى مصرَ، فَسيْطَرَ عليها، ونَفَى عاملَ ابنِ الزُّبيرِ منها، وأَخَذَ بَيْعةَ أَهْلِها، وَوَلَّى عُقْبَةَ بن نافع الفِهْرِيَّ حَرْبَها وصَلاتها وجبَاياتها. ثم شَخَصَ إلى دمشقَ، فلمَّا كان بالصِّنَّبْرَة من الأُرْدُنِّ بَلَغه أنَّ مالكَ بن هُبَيْرةَ السكونيَّ يقولُ : شَرطَ لي مروانُ بالمَرْجِ أنْ يَجْعَل لي ولِقَوْمي كُورة البَلْقاء، وأنَّ عمرَو بنَ سعيدٍ يقولُ : الأمرُ لي بعدَ مروانَ، وأنَّ خالدَ بنَ يزيدَ يقولُ أيضا : الأمر لي بعدَ مروانَ، فقال لحسانَ بنِ مالكِ بن بَحْدَلِ الكلبيِّ : إنَّ قَوْماً يَزْعُمونَ أني اشْتَرطْتُ لهم شروطاً وَوَعدْتُهم عِداتٍ، وإني أُريدُ البَيْعَة لعبدِ الملك ولعبدِ العزيز من بعده، فقال له حسانٌ : أنا أكفيكَ هذا الأمر، فلمَّا اجتمعَ الناسُ عند مروانَ

---

(١) أنساب الأشراف ٥ : ١٣٦، وتاريخ الطبري ٦ : ٥٣٧، والعقد الفريد ٤ : ٣٩٥، وتهذيب تاريخ ابن عساكر ٧ : ١١، والكامل في التاريخ ٦ : ١٤٩، وشرح نهج البلاغة ٦ : ١٦٢ والبداية والنهاية ٨ : ٢٤٢.

(٢) طبقات ابن سعد ٥ : ٤٢، وتاريخ خليفة بن خياط ١ : ٢٣٦، وأنساب الأشراف ٥ : ١٣٦، وتاريخ اليعقوبي ٢ : ٢٥٦، وتاريخ الطبري ٦ : ٥٣٦، والعقد الفريد ٤ : ٣٩٦، ومروج الذهب ٣ : ٩٥، والأغاني ١٩ : ١٩٦، والإمامة والسياسة ٢ : ١٦، وتهذيب تاريخ ابن عساكر ٧ : ١١، ومعجم البلدان : مرج راهط، والكامل في التاريخ ٤ : ١٤٩، وشرح نهج البلاغة ٦ : ١٦٢، والبداية والنهاية ٨ : ٢٤١.

قام حَسَّانٌ فقال : إنه يَبْلُغُنا أنَّ رجالاً يَتَمنَّوْنَ أمانيَّ ويَدَّعُونَ أباطيلَ، فَقُوموا فبايِعُوا لعبدِ الملكِ بن أميرِ المؤمنين بالعَهْدِ ولعبدِ العزيز من بعدِه، فقامَ النَّاسُ فبايَعُوا مُسَارِعينَ من عند آخرهم، وكان مروانُ قال لحسانٍ : بَلَغني أنَّك تقولُ : إني اشترطتُ على مروان أنْ يُوَلِّيَ خالد بن يزيدَ الخلافة بعدَهُ، فَحَداهُ ذلك على الجِدِّ في بَيْعةِ ابْنَيه ليكَذِّبَ ما أُبْلغَ مروانُ عنه [1].

وتُوفِّيَ مروانُ بدمشقَ في شَهْرِ رمضانَ سنة خمسٍ وستينَ، وقد تَنازع أهْلُ التواريخ وأصحابُ السِّيَرِ ومَنْ عُنيَ بأخبار بني أميَّة في سَببِ وفاته، فمنهم مَنْ رأى أنه ماتَ مَطْعوناً، ومنهم مَنْ رأى أنَّه مات حَتف أنْفِهِ، ومنهم مَنْ رأى أنَّ فاختة بنت أبي هاشم بن عُتْبة العَبْشَميَّة، أمَّ خالد بن يزيدَ هي التي قَتَلتْهُ، وكان تزوَّجها بعدَ أنْ أخذ البَيْعَةِ لِنفْسه لِيُصغِّر من شأن خالدٍ فلا يَطْلُب الخلافة. فَلمَّا عَزَلَ ابنها عن وِلاية العهْدِ، واسْتَخفَّ به، وأفحشَ له في القول، شكاهُ إليها، فأضْمرتْ أنْ تَنْتَقِمَ منه لابْنها ولِنَفْسها، فيقال : إنها وَضَعَت له سُمًّا في لَبَنٍ فَشَرِبَهُ فماتَ مَسْمُوماً، ويقالُ : إنَّها غَطَّتْ وَجْهَهُ بِوسادةٍ وهو نائمٌ فماتَ مَخْنُوقاً [2]. والقوْلُ الأخير أكثرُ وأشْهَرُ.

وهكذا اضْطَرَب الأمْرُ بالشَّام بعدَ مَوْتِ معاوية بن يزيدَ، لأنه لم يَعْقِدِ العَهْدَ لأحدٍ من قَوْمِه. واختلف أهْلُ الأجْنادِ فيمن يخْتَارُون للخلافة، وتَباينتْ آراؤُهم، وتَضَاربتْ أهْواؤُهم؛ وكانُوا يَصْدُرُونَ في ذلك عن تأثُّرهم

(١) أنساب الأشراف ٥ : ١٥٠، وتاريخ اليعقوبي ٢ : ٢٥٧، وتاريخ الطبري ٦ : ٥٤٠، ٥٤٤، ومروج الذهب ٣ : ٩٧، والإمامة والسياسة ٢ : ١٧، والكامل في التاريخ ٤ : ١٥٤، والنجوم الزاهرة ١ : ١٧٢.

(٢) طبقات ابن سعد ٥ : ٤٣، وتاريخ خليفة بن خياط ص : ٣٢٩، والمعارف ص : ٣٥٤، وأنساب الأشراف ٥ : ١٥٨، وتاريخ اليعقوبي ٢ : ٢٥٧، وتاريخ الطبري ٦ : ٦١١، والعقد الفريد ٤ : ٣٩٨، ومروج الذهب ٣ : ٩٧، والاستيعاب ص : ١٣٨٩، وأسد الغابة ٤ : ٧٤٩، والكامل في التاريخ ٤ : ١٩٢، وفوات الوفيات ٤ : ١٢٦، والبداية والنهاية ٨ : ٢٦٢، والإصابة ٣ : ٤٧٨، وتهذيب التهذيب ١٠ : ٩٢، والنجوم الزاهرة ١ : ١٧٠.

بالمبَادىء الإسْلاميَّةِ والمطامحِ القَبليَّةِ، وكان كُلُّ فريقٍ منهم يبْتغي أنْ يُعَزِّزَ مَكَاسِبَهُ السِّياسيَّة، ويُوَسِّع مَنافِعَهُ الماديَّة.

ويُلاحظُ انَّ القَيْسيَّةَ كانوا يُمالِئون ابن الزُّبيْر، وأنَّ اليَمانيَّة كانوا يُمالِئُون بني أُميَّةَ، على تَعَارُضٍ بينهم فيمن يُزكُّونَ منهم، إذ كانَ بعضُهم يريدُ أنْ يَجْعَل الخِلافة لخالدِ بنِ يزيد، وكانَ بعضُهم يريدُ أنْ يَجْعَلها لمروانَ بن الحكم.

واسْتَفْحلَ الخِلافُ بَيْنَ القَيْسيَّةِ واليَمانيَّـةِ، وتَحوَّلَ إلـى مُنَازَعـاتٍ ومُصَادَماتٍ قويَّةٍ، فاقْتَرح الضَّحّاكُ بنُ قَيْسٍ الفِهْرِيُّ عليهم أنْ يَجْتَمِعُوا بالجابيةِ لينظُرُوا في الأمْرِ، ويَتَشَاوَرُوا فيمن يُقَلِّدون الخلافة، ودَعَا أنْصارَ ابنِ الزُّبَيْر وأنْصَارَ بني أميَّةَ إلى الأجْتماع، ولكنه لم يلبثْ أنْ رَضَخَ لأنْصَارِ ابنِ الزُّبَيْر، وكان يَهْوَى هَواهم، فلم يَذْهبْ بهم إلى الجابيةِ، بل مَضَى بهم إلى مَرْجِ راهطٍ، فخلعَ بني أمية، وبايَعَ ابن الزُّبَيْر !

وسار بنُو أميَّة ومَواليهم وأنْصارُهم من اليمانيّةِ إلى الجابيةِ، فاجْتَمعُوا بها، وتَحاوَرُوا فِيمَنْ يُوَلُّونَ الخلافة. وكان اجْتِماعُهم اجْتماعاً حُرّاً [1] لأنهم لم يُرَشِّحُوا للخلافةِ رجالاً من أهْلِ الشام وَحْدهم، مِثْلَ خالدِ بن يزيدَ، ومروانَ بن الحكم، بل رَشَّحُوا لها مَعَهم رجالاً من أهْلِ الحجازِ أيضاً، مِثْل ابنِ الزُّبَيْر، وابنِ عُمَرَ، ويَبْدُو أنَّ فريقاً من اليَمانيَّةِ مِنْ أهْلِ الأرْدُنِّ مِمَّنْ حَضَرَ الاجْتماعَ كانوا يُؤْثِرون ابن الزُّبَيْر، ويُقَدِّمُونَهُ على غيرهِ، قال البلاذريُّ [2] : « يقالُ : إنَّ بَعْضَ أهْلِ الأرْدُنِّ قد كانُوا مَائلينَ إلى ناتلٍ، ومُنْحَرِفينَ عِن حَسَّانِ بن مالكٍ، وكانت الزُّبَيْريَّةُ بالشَّامِ تقولُ : ابنُ الزُّبير أوْلَى أهْلِ

---

(١) انظر عبد الملك بن مروان، لضياء الدين الريس ص : ٤٨.

(٢) أنساب الأشراف ٥ : ١٢٨.

زَمانه بالأمرِ، لأنَّهُ ابنُ حَواريِّ رسولِ الله، ﷺ، والطَّالبُ بدمِ عثمانَ، ورجلٌ له شَجَاعةٌ وسِنٌّ وفَضْلٌ ».

وكانَ اجتماعُهم اجتماعا حُرًّا، لأنهم سَمَّوْا مُرشَّحيهم، وأَدْلَوْا بِحُججِهم دونَ خَوْفٍ أَوْ إكراهٍ، ثم وازَنُوا بين المُرشَّحينَ، فنَوَّهُوا بِمحاسِنِ كلِّ منهم، ونَبَّهُوا على مَسَاوِئِه، على نَحْوِ ما يَظْهرُ فيما سلفَ من مُوَازنةِ عبدالله بنِ عِضاهِ الأشعريِّ بين خالد بن يزيد ومروانَ بنِ الحكَمِ، ومُوازنةِ رَوْحِ بن زِنْباع الجُذاميِّ بينَ المُرشَّحينَ الأربعةِ.

واحْتكمُوا في الموازنة إلى أسَاسَيْنِ :الأولُ الكفاءةُ والجدارةُ، والثاني مَصْلَحةُ بني أُميَّةَ ومَصْلَحةُ أهْلِ الشَّام. أمَّا ابنُ الزبير فأَقَرُّوا بفَضْلِهِ وتَقَدُّمه وعُلُوِّ مكانتِه، ولكنهم أَبْعَدُوهُ لِمُنَازَعَتِهِ بني أمية في الأمْرِ، وثوْرتِه عليهم، وَخَلْعِه خَلِفَتيْنِ منهم. وأمَّا ابنُ عمَر فاعْتَرفُوا بِسَابقتِهِ وصُحْبتِه وعِلْمِه وفِقْهِه، ولكنهم أسْقطوهُ لِضَعْفِهِ وتَردُّدِه. وأمَّا خالدُ بنُ يزيدَ فأخَّرُوهُ لِصِغَرِهِ وحَداثة سِنِّه وقِلَّةِ خِبْرتِه، ولكنهم جَعَلُوهُ وَليَّ العَهْدِ بعدَ مروانَ بن الحكمِ، مُراضاةً له ولأهلِ بَيْته من آلِ أبي سُفْيانَ، فهو ابنُ خليفةٍ وأخُو خَليفةٍ، وهم السَّببُ في مُلْكِ بني أميَّةَ، وسُلْطانِ أهْلِ الشَّامِ، ومُصَانعةً لأخوالِه من كَلْبٍ، فهم شِيعةُ بني أميَّة، وحُماةُ الدَّوْلةِ. وأمَّا مروانُ بنُ الحكمِ فرأَوْا أنّه أصْلَحُ المرشحينَ للخلافةِ، فهو « شَيْخُ قُرَيْشٍ وسَيِّدُ بني أميةَ، وهو ذُو رَأيٍ وحيلةٍ وتَجْربةٍ للحربِ [1] »، وهو رَجُلٌ له سِنٌّ وفِقْهٌ وفضلٌ [2]، وهو يُدَبِّرُ ويَسُوسُ، ولا يحتاجُ إلى أنْ يُدَبَّرَ ويُساسَ، وهو ابنُ عمِّ الخليفة المَظْلُومِ، والمُقاتِلُ عنه يومَ الدَّارِ، والطَّالبُ بِدَمِه، فهو أَوْلى بِوِراثتِه، وأحقُّ بالأمْرِ مِن غَيْرِه.

ولذلك اختارُوا مروانَ بن الحكمِ، وأطبقوُا عليه، وبايَعُوا له، وتَخَلَّوْا عن

---

(١) أنساب الأشراف ٥ : ١٢٨.

(٢) أنساب الأشراف ٥ : ١٤٤.

رَغَباتِهم الفرْديَّةِ والقَبلَّيةِ، لأنه اجْتمعَ فيه الشَّرْطانِ اللذانِ كانوا يَحْرصُونَ على تَوَافُرِهما فيمن يَقْبلُونَ أنْ يقوم بالخلافة، وهما شَرْطُ الكفاءةِ والجدارةِ، وشَرْطُ الأُمَويَّةِ والشاميَّة، على جدَّةِ نُزُولهِ الشام. فكان اختيارُهم له يَحْفَظُ مُلْكَ بني أمية ودَوْلَتَهم، ويَضْمنُ مَصالحَ أهْلِ الشام وسِيَادتَهم. وكان هَمُّ أهْلِ الشَّامِ أنَّ تَبْقى الخِلافَةُ في بني أميَّةَ بالشامِ، ولا تَنْتَقِلَ إلى غيرهم من أهْلِ الأمْصَارِ الأخرى، حتى لا يَزُول سُلْطانُهم، ولا تَقِلَّ فَوائِدُهم، قال أبو مَعْشر السِّنْديُّ [1] :« لمَّا مات معاويةُ بنُ يزيد بايع أهْلُ الشّامِ كلُّهم لابن الزُّبيرِ، إلَّا أهْلَ الأردُن » [2] وبايعَ أهْلُ مصرَ أيضاً ابنَ الزُّبيرِ، واسْتَخْلفَ ابنُ الزُّبيرِ الضَّحَّاكَ بن قَيْسٍ الفِهْريَّ على أهْل الشامِ، فلمَّا رأى ذلك رجالُ بني أمَّية وناسٌ من أشْرافِ أهْلِ الشامِ ووجوههمْ منهم رَوْحُ بنُ زِنْباعٍ وغيرُهُ، قالَ بعضُهم لبعضٍ : إنَّ المُلْكَ كانَ فينا أهْلَ الشَّامِ، فانْتَقَلَ عنا إلى الحجاز [3] ، لا نَرْضى بذلك ».

ويَدُلُّ ذلك على أنَّ مروانَ بَن الحَكَم انتُخب عن رَأْيٍ ومشورة من بني أميةَ وأنْصَارِهم من اليمانيةِ، وذكرَ الواقديُّ أنَّه لم يكنْ يَتطلَعُ إلى الخلافةِ في أوَّلِ مُقامِه بالشام، وأنَّ عبيدَ اللهِ بَن زياد هو الذي أغْراه بِطلبها، يقول [4]: « كان مروانَ بالشام لا يُحَدِّثُ نفسَهُ بهذا الأمْرِ حتى أطْمَعهُ فيه عُبيدُ اللهِ بَنُ زيادٍ حينَ قَدم عليه من العراقِ ». وأشار اليعقوبيُّ إلى أنه بُويِعَ له بالخلافةِ عن رِضاً واتفاقٍ من جماعةٍ من الأمَّةِ، يقول [5]: « قَدِمَ

---

(١) العقد الفريد ٤ : ٣٩٣، والإمامة والسياسة ٢ : ١٥.

(٢) انظر أنساب الأشراف ٥ : ١٢٨.

(٣) في الإمامة والسياسة : « أفينْتَقِلُ ذلك الى أهل الحجاز ».

(٤) تاريخ الطبري ٦ : ٥٣٤.

(٥) تاريخ اليعقوبي ٢ : ٢٥٥.

مروانُ، وقدمات معاويةُ بنُ يزيدَ، وأمْرُ الشام ِ مُضْطربٌ، فَدَعا إلى نفسِه، واجتمعَ الناسُ بالجابيةِ من أرض ِ دمشق، فتناظروا في ابنِ الزُّبير، وفيما تَقَدَّم لبني أميةَ عندهم، وتناظروا في خالِد بن يزيدَ بِن معاوية، وفي عمرو بن سعيد بن العاص ِ بعدَه،...، فبايعُو لمروان بِن الحكم ِ، ثم لخالِد بِن يزيد، ثم لعمرو بن سَعِيد ِ ». ولكن المسعوديَّ يُقررُ أنهُ اغتصبَ الخلافةَ اغتصاباً، يقول[1]: « كان مروانُ أوَّلَ مَنْ أخذَها بالسَّيْفِ كَرْهاً على ما قيل بغير ِ رضاً من الناس ِ، بل كُلٌ خَوَّفَهُ، إلاَّ عَدداً يسيراً حَمَلوهُ على وُثُوبِه عليها، وقد كان غيرُهُ مِمَّنْ سَلَفَ أخَذها بعدد ٍ وأعْوان ٍ، إلاَّ مروانَ، فإنه أخَذَها على ما وَصَفْنَاه ».

وعلى أنه نالَ الخلافةَ عن رأيٍ ومَشُورة ٍ من بني أميةَ وأنْصَار ِهم من اليمانيَّةِ، فإنه خرج على إرادَةِ الجماعةِ التي بايَعَتْ له ولِوَلِيِّي عَهْدِه، إذْ خَلعَ خالدَ بن يزيد وعمروَ بَن سعيد ٍ، وبايع لِوَلَدْيه عبدِ الملك ِ وعبدِ العزيز ِ بولايةِ العَهْد، وصنَعَ ذلك بعدَ أنْ صَفَتْ له الخلافةُ، واسْتَوْسَقَت له الشامُ ومصرُ، واحتال لحسان ِ بِن مالك ِ بِن بَحْدَل ِ الكلبيِّ، فَوَعدَهُ وهَدَّدهُ حتى أتَمَّ له ما أراد، قال المسعوديُّ[2]: « أحْضَرَ حسانَ بنَ مالك ٍ، وأرْغبهُ وأرْهَبَهُ فقام حسانٌ في الناس خطيباً، ودَعاهم إلى بَيْعةِ عبدِ الملك ِ بن ِ مروانَ، وَبيْعةِ عبدِ العزيز ِ بن ِ مروان بعدَ عبدِ الملك، فلم يُخَالِفْهُ في ذلك أحَدٌ »، وفَعَلَ ذلك لِيُثَبِّتَ الخلافةَ في وَلَدِه، ويمْنَع خُروجها منهم من بَعْدِه، وأكَّدَ به انْتِقَالَها من الأسْرةِ السُّفيانيَّة وتحوُّلها إلى الأسْرةِ المَرْوانيَّة.

---

(١) مروج الذهب ٣ : ٩٥.

(٢) مروج الذهب ٣ : ٩٧.

(٢) « مَيْلُ عبدِ الملكِ إلى السَّيْفِ والعُنْفِ »

وتَولَّى عبدُ الملكِ بنُ مَرْوانَ الخلافةَ بعدَ أبيه، وكانَ حَازِماً صارماً وجريئاً مِقْدَاماً، فَتَصدَّى لِخُصومِه وصَرَعَهم واحداً بَعْدَ الآخر، فقد قتلَ عمرو بن سعيد الأَشْدَق بدمشق، لأنه خَلعَه حين خَرَجَ لمحاربة مُصْعَبِ بن الزبير [١]، ثم سار إلى مُصْعبٍ فَقَتَله بِمَسْكِنَ على نهر دُجَيْل [٢]، ثم أَرْسَلَ الحجَّاجَ بنَ يوسفَ الثَّقفيَّ إلى مكةَ، فأَحْبَطَ ثورة عبدِ الله بنِ الزُّبيرِ، وقتلهُ وصَلَبَهُ، وجَالَدَ الحجاجُ وقادتُهُ وجُنُودُ أَهْلِ الشَّامِ الخوارجَ بالجزيرة الفُراتيةِ والكوفةِ والبصرةِ. فكَسَرُوا شَوْكَتَهم، ونَفَوْهَمْ عن العراق، وتَعَقَّبُوهم بفارس،

---

(١) تاريخ خليفة بن خياط ص : ٣٣٧، وأنساب الأشراف ٤ : ٢ : ١٣٨، وتاريخ اليعقوبي ٢ : ٢٧٠، وتاريخ الطبري ٦ : ١٤٠، والعقد الفريد ٤ : ٤٠٧، ومروج الذهب ٣ : ١٠٩، والإمامة والسياسة ٢ : ٢٦، والكامل في التاريخ ٤ : ٢٩٧، والبداية والنهاية ٨ : ٣١٠.

(٢) طبقات ابن سعد ٥ : ١٨٢، وتاريخ خليفة بن خياط ص : ٣٤٠، والأخبار الموفقيات ص : ٥٢٥، وأنساب الأشراف ٥ : ٣٣١، وتاريخ اليعقوبي ٢ : ٢٦٥، وتاريخ الطبري ٦ : ١٥١، والعقد الفريد ٤ : ٤١٠، ومروج الذهب ٣ : ١١٢، والإمامة والسياسة ١ : ٢٩، والكامل في التاريخ ٤ : ٣٢٣، وفوات الوفيات ٤ : ١٤٣، والبداية والنهاية ٨ : ٣١٧.

(٣) تاريخ خليفة بن خياط ص : ٣٤٢، وأنساب الأشراف ٥ : ٣٥٥، وتاريخ اليعقوبي ٢ : ٢٦٦، وتاريخ الطبري ٦ : ١٧٤، والعقد الفريد ٤ : ٤١٤، ومروج الذهب ٣ : ١١٩، والإمامة والسياسة ٢ : ٣٠، وتهذيب تاريخ ابن عساكر ٤ : ٥٢، والكامل في التاريخ ٤ : ٣٤٨، وفوات الوفيات ٢ : ١٧١، والبداية والنهاية ٨ : ٣٣٢.

فقتلوا زُعَماءهم، وألحقوا بهم هزائم ماحقة[1]، ونازل الحجاجُ وجنودُ أهلِ الشام عَبْدَ الرحمن بن محمد بن الأشعث الكندي، ومن نَاصَرَهُ من أهل الكوفة والبصرة، ووافقهُ على عَزْلِ عبد الملك، ولم يزالوا يُكافِحُونهم في وقائع مُتتاليةٍ حتى قَضَوْا على ثورتهم، وأعدمَ الحجاج أسراهم، وكان ابن الأشعث قد هرب إلى رتبيل ملك التُّرْك وحَالَفه، فَخَوَّفَهُ، الحجاجَ، فَبَعثَ إليه بابن الأشعث ومن كان معه من أهل بيته مُقَيَّدين، فألْقى ابنُ الأشْعَث نَفْسَه من فوق قَصْرٍ قبلَ أنْ يَصِلَ إلى عُمارة بن تميم اللخمي أحد قادة الحجاج، وضَرَبَ عُمارةَ أعناق الباقين[2]. ونهضت تَمِيمٌ بقَتْلِ عبد الله بن خازم السُّلمي بخراسان، وكان قد بايع لعبد الله بن الزبير، وأبَى أنْ يَنْكُثَ بَيْعَتهُ، ويَدْخُل في طاعة عبد الملك[3]. وأمَّا العَلَويُّونَ والعَبَّاسيون فأمَنَهُم عبد الملك، وأحْسَنَ إليهم، لأنهم بَايَعُوه ولم يُخَالِفُوه، ويقال إنه كتب إلى الحجاج أن لا يَعْرِضَ لمحمد بن الحنفية ولا لأحدٍ من أصحابه، وكان في كتابه : « جنِّبْني دماءَ بني عبد المطلب، فليس فيها شفاءٌ من الحرب، وإني رأيتُ بني حَرْبٍ سُلِبُوا مُلْكَهُمْ لمَّا قَتَلُوا الحسين بنَ عليٍ. فلم يَتَعَرَّض الحجاجُ لأحدٍ من الطَّالبيين في أيامه[4] ». وعندما حَجَّ عبد الملك « أتاهُ عليُّ بن

---

(١) أوفى أخبار الخوارج في عهد عبد الملك في أنساب الأشراف المخطوط ٢ : ٦٠ — ١٠٣، وانظر تاريخ خليفة بن خياط ص : ٣٤٧، ٣٥١، ٣٥٤، ٣٥٦، ٣٥٨، وتاريخ اليعقوبي ٢ : ٢٧٤، والكامل للمبرد ٣ : ٣٦٦، وتاريخ الطبري ٦ : ١٧٤، ٢١١، ٢١٥، ٢٢٤، ٢٦٧، ٢٨٤، ٣٠٨، ومروج الذهب ٣ : ١٤٦، والكامل في التاريخ ٤ : ٣٤٢، ٣٦٢، ٣٩٣ — ٤٤١.

(٢) تاريخ خليفة بن خياط ص : ٣٦٢، وأنساب الأشراف المخطوط ٢ : ١٥، وتاريخ اليعقوبي ٢: ٢٧٧ وتاريخ الطبري ٦ : ٣٣٤، ٣٤٦، ٣٥٧، ٣٦٦، ٣٨٩، ومروج الذهب ٣ : ١٣٨، والإمامة والسياسة ٢ : ٣٣، والكامل في التاريخ ٤ : ٤٦٧، ٥٠١، والبداية والنهاية ٩ : ٣٩.

(٣) تاريخ خليفة بن خياط ص : ٣٨٦، وتاريخ اليعقوبي ٢ : ٢٧١، وتاريخ الطبري ٦ : ١٧٦، والكامل في التاريخ ٤ : ٣٤٥.

(٤) العقد الفريد ٤ : ٤٠٠، وانظر مروج الذهب ٣ : ١٢٣، وتاريخ اليعقوبي ٢ : ٣٠٤.

عبد الله بن عباس، فذم إليه ابن الزبير، وأعلمه ما كان أبوه وأهْلُ بيته لقوا منه لامْتناعِهم من بَيْعتِه، وأنَّ أباه أوصاه ليلحق به، فأحْسَنَ عبدُ الملك إجابته، وحَمَلَهُ وحَمَلَ عيالَهُ إلى الشَّامِ، وأنْزلَهُ داراً بدمشق، ولم يزل يُجْري عليه أيَّامَهُ كلها »[1]

وبذلك أهلكَ عبدُ الملك عبدَ الله بَن الزبير، عَدُوَّ بين أمية اللَّدُودَ، الذي نَازَعهم في الخلافة منذ أيام يزيد بن معاوية، وَعاذَ بمكة، واستَقَلَّ بها، ثم دَانَتْ له مِصْرُ والكوفة والبصرة وخراسان وأكثر أجنادِ الشام بعد موت يزيد، وسَيْطرَ عليها، كما أفْنَى خُصُومَهُ الجُدَ الذين وَثبُوا به في دمشقَ والعراقِ ورَّسخَ سُلْطَانَ بني مَرْوانَ وَثَّبْتَهْ بالسيفِ.

وكان عبدالملكُ يراوِحُ بينَ التَّرْغيبِ والتَّرْهيبِ في خُطَبِهِ السِّياسيةِ لأهْلِ دمشقَ والكوفةِ ومكةَ والمدينةِ، إذ كان يُوصيهم بالطَّاعةِ، ويُزَيِّنُ لهم مَنافعها، وكان يَنْهَاهُمْ عن المَعْصِية، ويُبَغِّضُ إليهم وَيْلاتِها، وكان في خُطَبِهِ الأولى مُتجَبِّراً عاتياً، فَأَمَرَ أهْلَ دمشقَ بالصَّمْتِ، وهَدَّدَ مَنْ يَنْصَحُ له أو يَنْتَقِدُهُ منهم بالمَوْتِ، قال المدائنيُّ[2] « لمَّا ماتَ مروانُ، صلى عليه عبد الملك وَدَفَنَهُ، ثم صعد المنبر فقال : إني والله ما أنا بالخليفةِ المُصَانِعِ، ولا الخليفةِ المُسْتَضْعَفِ، ولا الخليفةِ المَطْعُونِ عليه. إنكم تأْمُرونا بِتَقْوَى الله، وتَنْسَوْنَ ذلك من أنفسكم، والله لَا يَأْمُرني أحدٌ بعدَ يوميَ هذا بِتَقْوَى اللهِ إلَّا ضَرَبْتُ عُنُقَه » !

وكَرَّرَ ذلك في خطبته لهم بعد أنْ ذَبَحَ عمرو بن سعيد الأشدق، وتَوَسَّع

---

(١) تاريخ اليعقوبي ٢ : ٢٧٤، وانظر أنساب الأشراف ٣ : ٥٣، وتاريخ الطبري ٧ : ١١١، وأخبار الدولة العباسية ص : ١٥٤، والبداية والنهاية ٩ : ٦٧.

(٢) أنساب الأشراف المخطوط ١ : ١١٦٤.

فيه وأسْهَب، قال المدائني، قال عوانة بن الحكم الكلبي (١) : « لما قتلَ عبدُ الملك بنُ مروانَ عمرَو بنَ سعيد بِن العاص، أَذِنَ للناس إذْناً عاماً، فدخلوا عليه، وجُثَّةُ عمرٍو في ناحيةِ البيتِ. فلما أخذوا مجالسهم تَكَلَّمَ عبدُ الملكِ فقال : ارْمُوا بأبْصاركم نحوَ مَصارِعِ أهْلِ المَعْصِية، واجْعَلُوا سَلَفَهُمْ لمن غَبَرَ منكم عِظَةً، ولا تكونوا أغْفالاً من حُسْنِ الاعْتبار، فتَنْزِلَ بكم جائِحةُ (٢) السَّطْوة، وتجُوسَ خِلالَكُمْ بَوادِرُ النِّقْمةِ، وتَطأَ رِقَابكم بثِقلِها المَعْصِية، فتَجْعَلُكم هُمَّداً رُفاتاً (٣)، وتَشْتَمِلَ عليكم بُطونُ الأرضِ أمواتا. إيَّايَ مِنْ قَوْلِ قائلٍ، وسَفَه جاهلٍ، فإنَّما بيني وبينكم أنْ أسْمَعَ النُّعْرَةَ (٤)، فأُصَمِّمَ تَصْمِيم الحُسام المَطْرُورِ (٥)، وأصُولَ صِيَالَ الحَنِقِ المَوْتُور، إنّما هي المُصَافَحةُ والمُكافَحةُ بِظُباتِ السُّيوف، وأسِنَّةِ الرِّماح، والمعاودةُ لكم بسُوءِ الصَّباح، فتابَ تَائِبٌ أو هَلكَ خائِبٌ، والتَّوبُ مَقْبُولٌ، والإحسانُ مَبْذُول لمن أبْصَرَ حَظَّهُ وعَرَفَ رُشْدَه، فانْظُرُوا لأنفسكم، وَاقبلُوا على حُظوظكم، وليكنْ أهْلُ الطاعةِ منكم يَداً على ذي الجَهْلِ مِن سُفَهائكم، واسْتَدِيمُوا النِّعْمَةَ التي ابْتَدأتكم بَرَغدِ عَيْشِها، ونَفِيسِ زِينَتها، فإنكم من ذلك بين فَضِيلَتَيْن : عاجل الخَفْض والدَّعَة، وآجلِ الجزاء والمَثُوبَة. عَصَمَكُمُ اللهُ من الشيطان وفِتْنَتِه ونَزْغِهِ (٦)، وأيَّدكم بِحُسْنِ مَعُونَتِهِ وحِفْظِه. انْهَضُوا رحمكم الله لِقَبْضِ أعْطياتكم غَيْرَ مَقْطوعة ولا مُكَدَّرةٍ عليكم إن

---

(١) الأخبار الموفقيات ص : ٥٦١، وانظر صبح الأعشى ١ : ٢١٨.

(٢) الجائحة : الشدة.

(٣) هُمَّداً : جمع هامد، وهو الساكن البالي. والرُّفات : الدقاق.

(٤) النُّعرة : صوت في الخيشوم، ويقال : نعر أي صاح وصوَّت بخيشومه.

(٥) صمم : قطع حتى بلغ العظم. والمطرور : المشحوذ المسنون.

(٦) نزغ الشيطان : وساوسه في القلب بما يسوِّل للانسان من المعاصي، التي تُفسِدُه على أصحابه.

شاء الله. قال: فخرجَ القومُ من عنده بداراً [1] كلهم يَخافُ أنْ تكونَ السَّطْوَةُ به »!

وفَعَلَ مِثل ذلك عندما قدم الكوفة بعد أنْ قَضَى على مصعب بن الزبير، فقد طلب من أهلها أنْ يَعْتَرِفُوا بخلافته، ويَسْتَسْلِمُوا لِحُكْمِهِ، وخَوَّفَهُمْ مَعاطِبَ الخُروجِ عليه، قال البلاذري [2] : « قال ابنُ الكلبيِّ والهَيْثَمُ بن عدي وغيرهما: لما دخل عبد الملك الكوفة قصد إلى المسجد، فخطب خطبةً ذكرَ فيها صُنْعَ الله له، وَوَعَد المُحْسِنَ، وَتَوَعَّدَ المُسيءَ، وقال: إنَّ الجَامِعة [3] التي وُضِعَتْ في عُنُقِ عمرو بن سعيد عندي، والله لا أضَعُها في عُنُقِ رجلٍ فأنْزَعُها إلَّا صَعَداً [4] ، لا أَفُكُّها عنه فكاً. فلا يُبْقِيَنَّ امرؤٌ إلَّا على نفسه، ولا يُولِغُني [5] دمَه » ! وقال أبو علي القالي [6] : « قال ابن الكلبي عن أبيه: لما قَتَلَ عبدُ الملك مصعبَ بن الزبير دخل الكوفة، فصعد المنبر، فحمد الله، وأثنى عليه، وصلى على النبي محمد صلى الله عليه وسلم، ثم قال: أيها الناس، إنَّ الحربَ صَعْبَةٌ مُرَّةٌ، وأنَّ السِّلْمَ أمْنٌ وَمَسرةٌ، وقد زَبَنَتْنَا [7] الحَرْبُ وَزَبِنَّاها، فعَرَفْناها وألِفْنَاها، فنحن بنوها، وهي أمُّنا. أيها الناس، فاسْتَقِيمُوا على سُبُلِ الهُدَى، ودَعُوا الأهواء المُرْدِيَة، وتَجَنَّبوا فِراقَ جماعاتِ المسلمين، ولا تُكَلِّفُونا أعمالَ المُهاجرين الأوَّلين، وأنتم لا تَعْمَلُون أعمالَهم ! ولا أظنُّكم تَزْدَادُونَ بعدَ المَوْعِظةِ إلَّا شَرّاً، ولن نزدَاد بعد

---

(١) بادر الشيء مبادرةً وبداراً أي أسرع إليه.

(٢) أنساب الأشراف ٥ : ٣٥٢.

(٣) الجامعة : القيد.

(٤) الصعد : المشقة، وعذاب صعد : شديد.

(٥) ولغ السبع والكلب : شرب ماءً أو دماً، وأوْلَغْتُ الكلب : جعلت له ماء يشرب فيه.

(٦) أمالي القالي ١ : ١١، وانظر البداية والنهاية ٨ : ٣١٦.

(٧) زبنتنا : دفعتنا.

الإِعْذارِ إليكم والحُجَّةِ عليكم إِلَّا عُقُوبةً. فمن شاءَ منكم أَنْ يَعُودَ لِمثْلِها فَلْيَعُدْ » !

ورَدَّدَ المعانيَ السابقةَ حين وفد إلى مكة حاجًا، إذ أمر أهلها أَنْ يُعْرِبُوا عن نَقْدِهم لسياسته، وأن يُعْلِنُوا تَذَمُّرَهم منها، وإنْكارَهم لها، ولكنه زَجَرَهُمْ عن العِصْيَانِ، وحَذَّرَهم التَّمَرُّدَ، وأَنْذَرهم بِعَذابٍ شديد، بل بِمَوْتٍ سريع يَتَخَطَّفُ نُفوسَهم ورُؤُسَهُم تَخَطُّفاً إن ثاروا عليه، قال محمد بن إسماعيل[١] : « قدم علينا عبدُ الملك حَاجّاً سنة خمس وسبعين، فصعد المنبر، فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال : أما بعد، فلست بالخليفة المُسْتَضْعَف، يعنى عثمان، ولا بالخليفة المُدَاهِن، يعني معاوية، ولا بالخليفة المَأْفُون، يعني يزيد، ألا وإنَّ مَنْ قَبْلي مِنَ الوُلاةِ كانوا يَأْكُلُون ويُؤْكَلُونَ، وإني والله لا أداويكم إِلَّا بالسَّيْف، فمنْ أَحَبَّ أَنْ يُبْدِيَ صَفْحَتَهُ فَلْيَفْعَلْ ! فلا تُكَلِّفُونا أَعْمالَ المهاجِرِينَ ولستم تَعْمَلُون أعمالَهم. فوالله ما زلتم تَزْدَادُونَ اسْتِجراحاً[٢] ، ونزدادُ لكم عُقُوبةً، حتى الْتَقَيْنا نحن وأنتم عند السيوف. هذا عمرو بن سعيد قال بِرَأْسِه كذا، فَقُلْنا بِسَيْفنا هكذا. ألا

(١) أنساب الأشراف المخطوط ١ : ١١٦٧، وانظر الخطبة بقريب من لفظها في تاريخ خليفة بن خياط ص : ٣٤٩، وكتاب الأوائل ص : ٢٠٢، والكامل في التاريخ ٤ : ٣٩١، وفوات الوفيات ٢ : ٤٠٣، والبداية والنهاية ٩ : ٦٤، وتاريخ الخلفاء ص : ٢١٨، وبعضها في البيان والتبيين ١ : ٢١٩، ٢ : ١٩٢، ورسائل الجاحظ للسندوبي ص : ٩٢، والعقد الفريد ٤ : ٩٠، ٤٠١، وشرح نهج البلاغة ٦ : ١٧، ١٥ : ٢٦٢. وذكر أبو هلال العسكري وابن الأثير أن عبد الملك ألقى الخطبة في أهل المدينة، وذكر ابن شاكر الكتبي أنه ألقاها في أهل دمشق، وذلك مخالف لأكثر الروايات وأقدمها.

(٢) قال الزمخشري في أساس البلاغة : جرح : « إِستَجْرَحَ فلان : استحَقَّ أن يُجْرَحَ ». وعن عبد الملك بن مروان : « وعظتكم فلم تزدادوا على الموعظة إلاَّ اسْتِجْراحاً ». وقال ابن منظور في اللسان : جرح : « يقال : جَرَحَ الحاكم الشاهد إذا عثر منه على ما تَسْقُطُ به عدالته من كذب وغيره. وقد قيل ذلك في غير الحاكم، فقيل : جرح الرجل : عض شهادته، وقد اسْتُجْرِحَ الشاهد. والاستجراح : النقصان والعيب والفساد، وهو منه، حكاه أبو عبيدة، قال : وفي خطبة عبد الملك : « وعظتكم فلم تزدادوا على الموعظة إلاَّ استجْراحاً »، أي فساداً، وقيل : معناه إلا ما يكسبكم الجرح والطعن عليكم ».

فلْيُبَلِّغِ الشاهدُ الغائبَ أنه ليست من لَغْبَةٍ[1] إلّا ونحن نَحْتَمِلُها، ما لم تَبْلُغْ أن تَكونَ صُعودَ مِنْبرٍ ونَصْبَ رايةٍ. ألا وإنَّ جامعةَ عمرو بن سعيد التي جعلناها في عُنُقِهِ عِندنا. وأني أُعطي اللهَ عَهْداً أنْ لا أجْعَلَها في عُنُقِ أحد فأُخْرِجَها منه إلّا صَعَداً» ! وقال ابنُ شاكر الكتبي[2] : وزادوا فيها : «والله لا يَأْمُرني أحدٌ بتقوى الله بعدَ مُقامي هذا إلّا ضَرَبْتُ عُنُقَهُ » !

وخَطَبَ أهلَ المدينة خطباً كثيرةً، أَكَّدَ فيها أنه أحَقُّ المسلمين بالخلافة، وأصْلَحُهم لها وأقْدَرُهُمْ عليها. وضَعَّفَ عبد الله بن الزبير وعَجَّزَهُ، وأخذ عليه تَبْذِيرَه لأموال المسلمين ! ! وطَعَنَ على عمرو بن سعيد، واتَّهَمَهُ بإثارةِ الشُّرور وتَهْييجِها، وتَفْريقِ الجماعةِ وتَمْزِيقها. ودَعَا أهلَ المدينة أن يَنْصَاعُوا لِسُلْطانه، ويُذْعِنُوا لِمَشيئَتِهِ، وأباحَ لهم كما أباح لأهْلِ مكة أنْ يُعَبِّروا عن ضيقهم به، وحَنَقِهم عليه، ثم هَدَّدَهم وتَوَعَّدَهم بالقتل إنْ وَثَبُوا به، قال اليعقوبي[3] :« خطب في أربعةِ أيامٍ في كل يومٍ خطبةً... وكان فيما خطب به في بعض أيامه أن قال : لقد قُمْتُ في هذا الأمر، وما أدْري أحداً أقْوَى عليه مني، ولا أوْلَى به، ولو وجدتُ ذلك لَوَلَّيْتُهُ. إنَّ ابنَ الزبير لم يَصْلَحْ أن يكون سائِساً، وكان يُعْطي مالَ الله كأنه يُعْطي ميراث أبيه. وإن عمرو بن سعيد أراد الفتنة، وأنْ يَسْتَحِلَّ الحُرْمَةَ، ويُذْهِبَ الدِّين، وما أراد صَلاحاً للمسلمين، فَصَرَعَهُ الله مَصْرَعَهُ. وإني مُحْتَمِلٌ لكم كلَّ أمْرٍ إلّا نَصْبَ رايةٍ. وإنَّ الجَامِعَةَ التي وَضَعْتُها في عُنُقِ عمرو عندي. وإني أقسمُ بالله لا أَضَعُها في عُنُق أحدٍ فأنْزعُها منه إلّا صَعَداً » !

---

(١) اللغبة : من قولهم لغب على القوم يَلْغَبُ لَغْباً : أفسد عليهم، وكلام لغب : فاسدٌ لا صائبٌ ولا قاصدٌ.

(٢) فوات الوفيات ٢ : ٤٠٤، وانظر الكامل في التاريخ ٤ : ٥٢٢.

(٣) تاريخ اليعقوبي ٢ : ٢٧٣.

وذكر اليعقوبي أنه خطبَ أهلَ المدينة عندما عاد من مكة، فَعَابَهُمْ وقَرَّعَهُمْ وعَضَّهُمْ بلسانه، وتَلاهُ خُطباءُ أهْلِ الشامِ، فَذَمُّوهُمْ ووَبَّخُوهم واسْتَفَزُّوهم. يقول [1] : « وقدم عبد الملك راجعاً إلى المدينة، فَوَافَاها في أوَّلِ سنةِ ستٍ وسبعين، فأغْلَظَ لأهلها في القول، وقام خطباؤه ونالوا من أهل المدينة، وقام محمد عبدالله القارئ فقال لبعض الخطباء، وهو يَتَكَلَّمُ : كَذَبْتَ : ! لسنا كذلك ! فأخَذَهُ الحَرَسُ فَجَرُّوهُ حتى ظَنَّ الناسُ أنهم قَاتِلُوهُ ! فأرسل إليهم أنْ كُفُّوا عنه وخَلُّوا سَبِيلَه ».

وفضَّلَ ابنُ سَعْدٍ الخبر، فَرَوَى أنَّ خُطباءَ أهلِ الشام نَالُوا من أهلِ المدينة وأهَانُوهم، وأشاروا إلى كُرْهِهم لبني أمية، ومُقاتلَتِهم لهم يَوْمَ الحرَّة، وبُغْضِهم لعبد الملك ومُعَاداتهم له، يقول [2] : « أخبرنا محمد بن عمر قال : حدثني عبد الرحمن بن أبي الزِّناد عن أبيه قال : أقامَ الحجَّ سنة خَمْسٍ وسبعين عبد الملك بن مروان، ثم صَدَرَ فَمرَّ على المدينة، فَخَطَب الناس على المنبر، ثم أقام خطيبا له آخر، وهو جالسٌ على المنبر، فَتَكَلَّمَ الخَطيبُ، فكان مما تَكَلَّمَ به يومئذٍ أنْ وَقَعَ بأهلِ المدينة، وذكر مِنْ خِلافهم الطاعة، وسُوءِ رَأيهم في عبد الملك وأهل بيته، وما فَعَلَ أهلُ الحَرَّة، ثم قال: « ما وَجَدْتُ لكم يا أهلَ المدينة مثَلًا إلَّا القرية التي ذكر اللهُ في القرآن، فإن الله قال : وضَرَبَ اللهُ مَثَلًا قريةً كانتْ آمِنةً مُطْمئنَّةً يَأْتيها رِزْقُها رَغَداً مِنْ كُلِّ مكانٍ، فكَفَرَتْ بأنْعُمِ اللهِ فأذَاقَها اللهُ لِباسَ الجُوعِ والخَوْف بما كانوا يَصْنَعُون »، فَبَرَكَ ابن عَبْدٍ فقال للخطيبِ : كَذَبْتَ ! كَذَبْتَ ! لسنا كذلك. اقرأ الآيةَ التي بعدها : « ولقد جَاءَهُمْ رسُولُ منهم فكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ العَذَابُ وهمْ ظَالِمُون » وإنَّا آمَنَّا باللهِ ورُسُلِهِ. فلما قال ذلك

(١) تاريخ اليعقوبي ٢ : ٢٧٤.

(٢) طبقات ابن سعد ٥ : ٢٣١.

ابنُ عَبْد وثَبَ الحرسُ عليه، فالتفُّوا به حتى ظَنَنا أنهم قَاتِلُوه، فأرسلَ إليهم عبد الملك فَرَدَّهم عنه ».

ونَصَحَ عبدُ الملكِ لأهلَ المدينة في خُطَبٍ أخرى أنْ يُعَاوِدُوا حياتهم الأولى، وأنْ يُطيعُوهُ ويَسْمَعُوا له، وَرَدَعَهُمْ عن الاشْتغالِ بالسِّياسَةِ، والشَّغَبِ عليه، ونَهاهُمْ عن التَّعَلُّقِ بالأحاديث المُفْتَعَلةِ التي تَطْعَنُ عليه وعلى أهْلِ بيته، وتُبَشِّرُ بانهيارِ سُلْطانهم وسُقُوطه، قال الواقدي[1] : « حدثني ابن أبي سَبْرة عن أبي موسى الحَنَّاط عن ابنِ كعبٍ قال : سمعت عبد الملك بن مروان يقول : يا أهلِ المدينة، إنَّ أحَقَّ الناس أنْ يَلْزَمَ الأمْرَ الأَوَّلَ لأنتم، وقد سَالَتْ علينا أحاديثُ من قِبَلِ هذا المَشْرِقِ لا نَعْرِفُها ولا نَعْرِفُ منها إلَّا قِراءَةَ القرآنِ، فَالْزَمُوا ما في مُصْحَفكم الذي جَمَعَكَمْ عليه الإمامُ المظلومُ، رحمه الله، وعليكم بالفَرائِضِ التي جَمَعكُمْ عليها إمامُكم المظلوم، رحمه الله، فإنَّه قد استَشَارَ في ذلك زيدَ بن ثابت، ونِعْمَ المُشيرُ كان للإسلامِ، رَحِمه الله، فأحْكَما ما أحْكَما، وأسْقَطَا ما شَذَّ عنهما ».

ولامهم وأنَّبهُم وحمل عليهم أيضاً، وأشار إلى أسْبابِ العداءِ المتأصِّلِ بين الأمويين من أهل دمشق، والقرشيين من أهل المدينة، فهم مُخْتَلِفُون في إمامةِ المسلمين، وهم مُتَنافِرُون كُلُّ منهم يَجْتَرُّ مَوْقِفَ خَصْمِهِ مِنهُ، ونِكَايته به، فالأمويون لا يَنْسَوْنَ مصرع عثمان، والقرشيون لا يَنْسَوْنَ قَتْلى يوم الحَرَّة، فانْطَوَتْ نفوسُهم على إحَنٍ وضَغَائنَ، استحكمت فيها، فهي لا تَزُولُ ولا تَفْنَى، قال الزبير بن بكار[2] : « حج عبد الملك في بعض أعوامه، فأَمَرَ للناس بالعَطاء، فَخَرَجَتْ بَدْرَةٌ مكتوبٌ عليها : من الصَّدفة، فأَبَى أهلُ المدينة من قَبُولها وقالوا : إنما كان عطاؤنا من الفَيْءِ. فقال عبد

---

(١) طبقات ابن سعد ٥ : ٢٣٣.

(٢) مروج الذهب ٣ : ١٢٨، وانظر ملحق الأخبار الموفقيات ص : ٥٧٤.

الملك وهو على المنبر : ... يا معشرَ قُريشٍ، وَليكُمْ عمر بُن الخطاب فكان فَظاً غليظاً مُضيِّقاً عليكم، فَسَمِعْتُمْ له وأطَعْتُم، ثم وليكم عثمان، فكان سَهْلًا لَيِّناً كريماً، فَعَدوْتُمْ عليه فقتلتموه. وَبَعَثْنا عليكم مُسْلِماً يومَ الحَرَّة، فَقَتَلْتُموه، فنحن نَعْلَمُ يا معشرَ قريشٍ، أنكم لا تُحِبُّوننا أبداً، وأنتم تذْكُرونَ يَوْمَ الحَرَّة، ونحن لا نحبكم أبداً، ونحن نذكرُ مَقْتَلَ عثمان » !

وأوصى عبدَ الملك ابنَه الوليدَ أنْ يكونَ صَليباً بَئيساً، وأنْ يفْتَتِحَ عَهْدَهُ بالشِّدَّةِ والعُنْفِ فَيضْرِبَ رقابَ الذين يتأخرون عن مبايعته، ويَجْهَرُونَ بمعارضته، حتى يُرْهِبَ الناسَ ويُرْعِبهم، ويُجْبِرَهم على الخضوع له، ويَفْرِضَ عليهم طاعَتَهُ فَرْضاً، إذ قال له[1] : « يا وليد، لا أعرفنك إذا وَضَعْتَني في حُفرتي تمْسَحُ عَيْنَيْكَ وتَعْصِرُهما فِعْلَ الأمة ! ولكن إذا وَضَعتني في حُفْرَتي، فَشَمِّر واتَّزِر، والْبَسْ جِلْدَ النِمر، ثم اصعد المنبر، فَادْعُ النَّاسَ إلى البَيْعة، فمن قال : كذا، وأوْمَأَ إليه : من قال : لا، فَاقْتُلْه ».

فعبدُ الملك يُعْلِنُ في خطبه الأُولَى أنَّه خَيْرُ المسلمين، وأحَقُّهم بالخلافة، وأقْوَاهم عليها، وأنَّ أحداً منهم لا يَتَقَدَّمُهُ فيها ولا يَحْجُبُهُ عنها، ويَرْفُض المُشَاوَرة والمناظَرَة في خلافته، ويَمْنَعُ انتقاد سياسته. وهو يَحْتَمِلُ في خطبه الأخرى التي ألْقاها بعد اسْتِقْرَارِ سلطانه أنْ يَحْتَجَّ الناس على حُكْمِهِ، ويَعْفُو عن إفحاشهم في الاحتجاج، ولا يُبَالي بكلامهم الذي يَسْتَشْفُون به، إذ لا ضَرَرَ منه، ولا خَطَرَ فيه على سُلْطانهِ، وأمَّا المُنَازَعةُ في الخلافة، والوُثُوبُ على المنابِر، ونَصْبُ الرَّايات فَيَهْتَمُّ له، ويَشْقى به، ويُعاقبُ عليه، ولا يَغْفِرُهُ، أذ فيه ما يُزَعْزِعُ مُلْكَ بني أمية، ويُنْذِرُ بضَيَاعِهِ وزَوَاله.

---

(١)المعمرون والوصايا ص : ١٦٠، وانظر الوصية في تاريخ اليعقوبي ٢ : ٢٨٠، والأخبار الطوال ص : ٢٣٥، والعقد الفريد ٤ : ٤٢١، ومروج الذهب ٣ : ١٧٠، والإمامة والسياسة ٢ : ٥٨، والبداية والنهاية ٩ : ٦٧، ١٦١.

وأخذ عبدُ الملك يَصفُح عن خُصُومه بَعْدَ أن اتَّسَقَ أمْرُهُ وتَوَطَّد، ولكنه لا يَبْلُغُ في الصَّفحِ عنهم مَبْلَغَ معاوية في الصَّفْحِ عن خُصُومه، قال المدائني [١] : « كان يقال : مُعاويةُ أحْلَمُ، وعبدُ الملك أحْزَم ». وقال الجاحظ [٢] : « كان عبد الملك سِنانَ قُريشٍ وسَيْفَها رأياً وحَزْماً ». وهو يوصَفُ بالغِلْظَةِ والقَسْوةِ أكثر مما يُوصَفُ بالرَّأْفةِ والرَّحْمة. وهو أكثر خليفةٍ اسْتَوْحَشَ وهَانَ عليه القَتْلَ، وهو يُثَبِّتُ سلطانَ بني أمية ويُحَامي عنه [٣]. وقد أعْتَرَفَ بأنه وَلَغَ في الدِّماء وشَرِبَها [٤]. وقال المدائني [٥] : « كان المنصورُ إذا ذَكَرَ بين مروان يقول : أما عبد الملك فكان جَبَّاراً لا يُبالي ما أقْدَمَ عليه، وأما الوليدُ فكان مَجْنوناً، وأما سليمان فكان هَمَّه بَطْنُهُ وفَرْجُهُ، وأما عمر بن عبد العزيز فكان أعْورَ بين عُميانٍ، ورَجُلُ القَوْمِ هشام » !

وأخبارُ عَفْوِهِ عن أعدائه الذين شَغَبوا عليه أو وَثَبُوا به معدودة، لأنه كان يَسْفكُ دماء أكثرهم، ويَسْتَبْقي أقلَّهم. وكان إذا قَدَرَ عليهم وغَفَرَ لهم، يُبْدي غَضَبَهُ ويُؤَنِّبهم ويَتَوَعَّدُهم حيناً، ويَكْظِم غَيْظَهُ، ويُلاينُهم ويُداريهم حيناً آخر. وكان يَغْفِرَ لهم لأسباب مختلفةٍ، فقد كان يُطْلِقُ بعضَ الخوارج إعجاباً بِظَرْفِهم ودُعَابتهم، قال الأصْمَعيُّ [٦] : « أُتي عبد الملك برجلٍ كان مع بعض من خَرَجَ عليه، فقال : اضربوا عُنُقه، فقال : يا أمير

---

(١) العقد الفريد ٤ : ٤٠١.

(٢) العقد الفريد ٥ : ٢٠.

(٣) البداية والنهاية ٩ : ٦٣.

(٤) البداية والنهاية ٩ : ٦٦.

(٥) أنساب الأشراف المخطوط ٢ : ٢٤١، وانظر الخبر في رسائل الجاحظ للسندوبي ص : ٨٩، وشرح نهج البلاغة ١٥ : ٢٥٣، وراجع أقوالاً مختلفة للمنصور في بني أمية في أنساب الأشراف ٣ : ١٩٢.

(٦) البداية والنهاية ٩ : ٦٥.

المؤمنين. ما كان هذا جزائي منك. فقال : وما جَزَاؤك ؟ فقال : والله ما خرجت مع فلان إلّا بالنَّظر لك، وذلك أني رجلٌ مَشئُومٌ ما كنت مع رجل قط ألّا غُلبَ وهُزِمَ. وقد بانَ لك صِحَّةُ ما ادَّعَيْتُ، وكنتُ عليك خيراً من مائة ألفٍ مَعك تنْصَحُك ! لقد كنت مع فلانٍ فكُسِر وهُزِمَ وتَفرَّقَ جَمْعُهُ. وكنتُ مع فلانٍ فَقُتِلَ، وكنتُ مع فلانٍ فَهُزِمَ حتى عَدَّ جماعةً من الأمراء، فضحكَ وخَلَّى سبيلَهُ » !

وكان يَسْتَحْيي بعض الخوارج، فكان يَسْجُنُهم ويَعْدِلُ عن قَتْلِهم تَقْديراً لِعِلْمهم وَرباطةِ جأشهم، وحُسْنِ إسلامهم، قال المبرد (١) : « ذكروا أنَّ عبدَ الملك بن مروان أُتِيَ برجلٍ منهم، فَبَحَثَهُ، فرأى منه ما شاء فَهْماً وعلْماً، ثم بَحَثَهُ، فرأى ما شاءَ إرْباً ودَهْياً. فَرَغِبَ فيه، فَاسْتَدْعَاه إلى الرجوع عن مَذْهبه، فرآه مُسْتَبْصِراً مُحَقِّقاً، فزادَهُ في الاسْتِدْعاء، فقال له : لِتُغْنِكَ الأولى عن الثانية، وقد قُلْتَ فَسَمِعْتُ، فَاسْمَعْ أَقُلْ. قال له : قُلْ، فجعل يَبْسُطُ له من قول الخوارج، وُيزَيِّنُ له مَذْهَبهم بلسانٍ طلِقٍ، وألفاظٍ بَيِّنةٍ، ومعانٍ قريبةٍ. فقال عبد الملك بعد ذلك على مَعْرفته : لقد كاد يُوقِعُ في خاطري أنَّ الجنة خُلِقَتْ لهم، وأني أَوْلى العِبادِ بالجهادِ معهم، ثم رَجَعْتُ إلى ما ثَبَّتَ الله عليَّ من الحُجَّةِ، وقَرَّرَ في قلبي من الحق : فقلت له : لله الآخرة والدنيا، وقد سلَّطَنَا الله في الدنيا، ومكَّنَ لنا فيها، وأراك لَسْتَ تُجيبُ بالقَبُول، والله لأَقْتُلَنَّكَ إنْ لم تُطِعْ، فأنا في ذلك إذ دُخِلَ عليَّ بابني مروان، قال أبو العباس : كان مروان أخا يزيد لأمه، أمهما عاتكة بنت يزيد بن معاوية، وكان أبياً عزيز النَّفْس، فدُخِلَ به في هذا الوقت على عبد الملك باكياً لِضَرْب المؤَدِّب أياه، فَشَقَّ ذلك على عبد الملك، فأقْبَلَ الخارجي فقال له : دَعْه يَبْكِ، فإنه أرْحَبُ لِشِدْقه، وأصَحُّ لِدماغهِ، وأذْهبُ

---

(١) الكامل للمبرد ٣ : ٢٣١، وشرح نهج البلاغة ٥ : ٨١، وبعض الخبر في البيان والتبيين ١ : ٢١٤.

لِصَوْته، وأَحْرَى أَلَّا تأْبَى عليه عَيْنُهُ إذا حَضَرَتْهُ طاعة الله، فاستَدْعى عَبْرَتَها. فأَعْجَبَ ذلك من قوله عبد الملك، فقال مُتَعَجِّباً : أما يَشْغَلُك ما أنت فيه وبِعَرَضِهِ عن هذا ! فقال : ما ينبغي أن يَشْغَلَ المؤمنَ عن قَوْلِ الحق شيءٌ ! فأمر عبد الملك بِحَبْسه، وصَفَحَ عن قَتْلِهِ، وقال بَعْدُ يَعْتَذِرُ إليه : لولا أنْ تُفْسِدَ بألفاظك أكثر رَعِيَّتي ما حَبَسْتُك ! ثم قال عبد الملك : من شَكَّكني وَوَهَّمني حتى مَالَتْ بي عِصْمَةُ الله فَغَيْرُ بعيدٍ أنْ يَسْتَهْوِي مَنْ بَعْدي »

وكان يَعْفُو عن بعض الخوارج مُصَانعةً لسادة قبائلهم، وكان يَمُنُّ بذلك عليهم، ويَحْتَسِبُهُ عندهم، قال عوانة بن الحكم الكلبي [1] : « دَخَلَ الهَيْثَمُ ابن الأسود النَّخَعِيُّ على عبد الملك، وقد أُتِي بخارجي من النَّخَع وعبدُ الملك يحلُف لَيَقْتُلَنَّهُ. فقال للهيثم : هذا رجلٌ من قومك ! قال : يَا أمير المؤمنين، فهل جاء في قومي لو أَقَدْتم ؟ قال : هو لك، فخرج للهيثم والخارجي معه » !

وكان يَصْفَحُ عن بعض من ندّدوا به، ويُغْدِقُ عليهم الهباتِ والصَلاتِ رِعايةً لِحِلْفِهم في قُريشٍ، قال الواقدي، حدثني عبد الله بن جعفر عن عبد الرحمن بنِ محمدِ بنِ عَبْدٍ قال [2] : « لما تَكَلَّم عبد الملك بما تَكلَّم به، وردَّ عليه أبي، وَهَبَّتِ الشُرْطَةُ إلى أبي فدخلوا به إلى عبد الملك بن مروان، قال : فأَغْلَظَ له بعضَ الغِلْظةِ بين يَدَيْ أهل الشام. قال : فلما خرج أهل الشام قال له : يا ابن عبد، قد رَأَيْتُ ما صَنَعْتَ، وقد عفوتُ ذلك عنك، وإياك أنْ تَفْعَلَها بوالٍ بعدي، فأخشى أن لا يَحْمِلَ لك ما حَمَلْتُ. إنَّ أَحَبَّ الناس إليَّ هذا الحيُّ من قريش، وحَلِيفُنا منا، وأنت أَحَدُنا. ما دَيْنُكَ ؟ قال :

---

(١) أنساب الأشراف المخطوط ١ : ١١٦٩.

(٢) طبقات ابن سعد ٥ : ٢٣٢.

خمسمائة دينار. قال : فأمر له بخمسمائة دينار، وأجازه بمائة دينار سوى ذلك، قال : وكساه كُسْوَةً فيها كساءُ خَزٍّ أخضرُ عندنا قطعة منه » !

وكان يَحْلُمُ عن بعض من انتقدُوهُ وهَدَّدُوه اعترافاً بِمُؤازَرتهم له، ومُقاتلتهم لأعدائه، قال المدائني [1] : « كتب عبيد لله بن زياد بن ظبيان إلى عبد الملك : أنه قد كان من بلائي ما قد رأيت، ولم يكن من جزائك إلّا ما علمت، فأنا كما قال الجَعْدي :

كفَيْنا بني كعبٍ فلم نَرَ عندهُـمْ لما كانَ إلّا ما جَزَى الله جازيَا

قالوا : وبلغَ عبدَ الملك قول عبيد الله بن زياد بن ظبيان [2] حين قال لما خَرَّ عبد الملك ساجداً حين أتاهُ برَأْسِ مصعب : هَمَمْتُ بِضَرْبِ رأسه، فأكون قد قَتَلْتُ مَلِكَيْ العرب ! فَحَجَبهُ، ثم أذن له فقال : يا أمير المؤمنين، إنَّا والله ما نَكْرَهُ سُخْطَ مَنْ رِضاهُ الجَوْرُ، فإنْ يَكُ لك علينا طاعة فيما أحْبَبْتَ، فإنَّ لنا عليك العَدْل فيما وليت، فلستَ مُسْتَكْمِلًا طاعَتَنا إلّا بِعَدْلِك ! فآثِرْ طاعة الله فينا تَسْلَمْ لك نَصائِحنا، وتخْلُصْ نِيَّاتُنا، ولا تَبْغِ الفسادَ في الأرض، الله بصيرٌ بِعَمَلِك، وإليه مَصيرُك ! فغضب عبد الملك غَضَباً شديداً وقال : لولا أنَّ خَيْرَ الأمور مَغَبَّةً، وأكرمَها عاقبةً العَفْوُ بعد القُدْرَة لأعلمتُ ذلك الجِلْفَ أيَّ مَوْرِدٍ تُورِدُهُ الجهالةُ والاسْتِطَالة » !

وكان يَسَع سادَة القبائل الذين يُلَمِّحُونَ إلى مَفاسِدِ العُمالِ تَلْميحاً، ولا يُصَرِّحون بها تَصْريحاً، اسْتِحْسَاناً لأدبهم وشجاعتهم، قال المدائنيُّ [3] : « قدم الحجاج على عبد الملك بن مروان وافداً، ومعه معاوية بن قرة

---

(١) أنساب الأشراف المخطوط ١ : ١١٧٧.

(٢) هو قاتل مصعب بن الزبير، انظر أنساب الأشراف ٥ : ٣٣٣، وتاريخ الطبري ٦ : ١٥٩، والكامل في التاريخ ٤ : ٣٢٨.

(٣) أنساب الأشراف المخطوط ١ : ١٧٦، والبداية والنهاية ٩ : ١٣٩.

أبو إباس، فسأله عبد الملك عن الحجاج فقال : إنْ صَدَقناكم قَتَلْتُمونا، وإنْ كَذَبْناكم خَشِينا الله ! فنظر إليه الحجاج، فقال له عبد الملك : لا تعرضْ له يا حجاج، فغَرَّبَهُ إلى السِّنْد » !!

وكان يَتَضَامَنُ لبعض الصحابة، ويَرْدَعُ عُمَّالَهُ عن الإساءة إليهم إجْلالًا لهم، فقد أخذ الحجاج مال أنس بن مالك، وهَدَّدَهُ، وأسْمَعَهُ القبيحَ من القول وآذاه، لأنه لم يكن يؤيد بني أمية، بل كان يُناوئهم، ويُؤَلِّبُ الناسِ عليهم، ولأنه قَعَدَ عن قتال الخوارج معه، ولأن ابنه عبد الله خرج مع عبد الله بن الجَارُود العَبْدي بالبصرة، وقُتل، فكتب إلى عبد الملك يشكو الحَجاجَ إليه، فَغضِبَ، وخافَ أن يَسْخطَ الناسُ عليه، وقال [1] : « ما أشدَّ أنْ تقول الرَّعيةُ : ضَعُفَ أميرُ المؤمنين وضَاقَ ذَرْعُهُ في رجلٍ من أصحابِ النبي ﷺ، لا يَقْبَلُ له حَسنةٌ، ولا يَتَجاوزُ له عن سيِّئةٍ » ! وكتب إلى أنسٍ يُعَظِّمهُ ويَترضَّاه ويَعِدُه أنْ لا يُصيبَه مكروه. وكتب إلى الحجاجِ يُعَنِّفُهُ ويأمره أنْ يأتي أنساً فيعتذر إليه حتى يَصْفَحَ عنه، وكان كتاب عبد الملك إلى الحجاج [2] : « أما بعد، فإنك عَبْدٌ قد طمت بك الأمورِ حتى عَدَوْتَ طَوْرَك. وأيْم الله، يا ابن المُسْتَفْرِمةِ بعجمِ الزَّبيب، لقد هممتُ أنْ أضْغَمَكَ [3] ضَغْمةً كبعض ضَغَمات اللُّيوث الثعالب، وأخبطكَ خَبْطةً تَوَدُّ أنك زاحمتَ مَخْرجكَ من بطن أُمِّك. قد بلَغني ما كان منك إلى أنسٍ، وأظنك أَرَدْتَ أنْ تُخْبِرْ أمير المؤمنين، فإنْ كان عنده غَيْرهُ، وإلَّا مَضَيْتَ قُدماً. فَلَعْنَهُ

---

(١) العقد الفريد ٥ : ٣٧.

(٢) الأخبار الموفقيات ص : ٣٣٠، وانظر الكتاب وخبر أنس مع الحجاج في البيان والتبيين ١ : ٢٩٦، وأنساب الأشراف المخطوط ٢ : ١١ ــ ١٢، والعقد الفريد ٥ : ٣٨، وتهذيب تاريخ ابن عساكر ٣ : ١٥١، والكامل في التاريخ ٤ : ٣٨٥، والبداية والنهاية ٩ : ٦٥، ٨٩، وصبح الأعشى ٦: ٣٨٩، ٤٧٨.

(٣) ضغم : عضّ.

الله عليك، أَخْفَش (١) العَيْنَيْنِ، مَمْسُوحَ (٢) الجَاعَرتَيْن، حَمسَ (٣) السَّاقيـن، كأنك نَسيتَ مكاتب آبائك بالطائف، وما كانوا عليه من الدَّناءاتِ واللُّؤْم، إذ يحفرون الآبار في المناهل بأيديهم، وينقلون الحجارة على ظهورهم ! فإذا أتاك كتابي، فالق أنساً في منزله، واعتذر إليه، ولولا أن أمير المؤمنين يظن أن الولد والكاتب كثروا على الشيخ لقد بعثت إليه من يَسْحَبُكَ ظهراً لبطنٍ حتى يأتي بك أنساً فَيحْكُمُ فيك، ولن يَخْفَى على أمير المؤمنين نَبَؤُكَ، « ولكلِّ نَبأ مُسْتَقَرّ، وسوفَ تَعْلَمُونَ ». فلا تخالف كتاب أمير المؤمنين، وأكرم أنساً وولَدَه، وإلَّا بعثتُ إليك من يهتك سترَكَ، ويُشْمِتَ بك عَدُوّك ». وحمل الكِتابين إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر مولى بني مخزوم، وأصْلَحَ بين أنسٍ والحجاج.

ويظهرُ أنَّ عبد الملك اتَّجهَ إلى مناقشة بعض القَدَرِيَّة والخوارج في آخر خلافته، وأخبارُ مناقَشَتَهِ لهم قليلة، لأنه لم يكن يُقدِّرُ أنْ يَتَحَوَّلَ من مُقاتلتهم وإخضاعهم بالسَّيْفِ إلى مناظرتهم وإقْناعهم بالحجَّة، والانصِياع لهم إذا عَلَوْهُ وغَلَبُوهُ، فقد دَفَعَتْهُ المُصادفةُ إلى مناظرتهم، وكان يَعْرِضُ عليهم أفكاره جازماً بسدادها، ومُلْزِمَاً لهم باتِّباعها، وقاطعاً بفسَاد أفكارهم، وآمراً لهم بالرُّجوع عنها، فإذا خَالفُوهُ ودَلُّلوا على خطأ رأيه، واحتَجُّوا لآرائهم، وأدْلَوْا بالبراهين التي تُثْبِتُ صِحَّتها، كابَرَ ومَارَى، ثم ثارَ وانْتَهَى إلى تَهْدِيدهم بالسَّيف ! !

ويبدو أنه ناقش القدرية في حُرِيَّة الإرادة الإنسانية، ويَدُلّ على ذلك

---

(١) أخفش العينين : ضيقهما ضعيفهما.

(٢) الجاعرتان : لحمتان تكتنفان أصل الذنب في الحيوان.

(٣) حمس الساقين : مهزولهما.

الرِّسالةُ التي يقال إنه بعث بها إلى الحسن البصري، يسألُهُ فيها عن رأيه في مسألة الجَبْرِ والاختيار، ورسالةُ الحسنِ التي رَدَّ فيها عليه. وإذا لم تكن الرسالتان مُفْتَعَلَتَيْنِ مَنْحُولَتَيْنِ، فإنهما تُشيران إلى أنه فَتَح بابْ الجِدالِ بينه وبين القدرية، وتكشف رسالته عن تَصَلُّبِهِ وتَشَدُّده، فهو يَرْفُضُ فيها مذهب القدرية، ويُنْكِرُ على الحسن اعْتقادَهُ به، وتأْييدَه له [1]!

وناقشَ الخوارجَ في مسألةِ الإمامة، وَرَوى المُبَرِّدُ خبرَ مناقشته للخارجي الذي سِيقَ إليه لِيَحْكُمَ فيه، وهو يُوَضِّحُ تَزَمُّتَ عبد الملك وتَعَصُّبَهُ، فإنه تَوَعَّدَ الخارجي بالموتِ حين تَمَسَّكَ بِرَأْيِهِ، وأبى أنْ يتنازل عنه، ثم تَوَقَّفَ عن قَتْله، وأمر بِسَجْنه، حتى يَحُولَ بينه وبين إفسادِ النَّاس عليه، لما رأى مِنْ رُسُوخِ إيمانهِ، وسعةِ مَعْرفتهِ، ودِقَّةِ مَنْطِقِهِ، ونفاذِ بَصَرِهِ، وسِحْرِ كلامهِ، وشِدَّةِ صَبْرِهِ !!

وهل أَبْيَنُ إبانةً عن ادِّعاء عبد الملك لمجادلة الخوارج، وضِيقِهِ بهم، وانْقباض نفسه عنهم، ونَفْيِهِ لهم من هذا الخبر الذي رواه الهيثم بن عدي الطائي فقال [2]: « أتى جَوَّازٌ الضَّبِّيُ الشامَ، وكان من رؤساءِ الخوارج مع من شَهِدَ حِصارَ ابن الزبير، وكان هارباً من الحجاج، فَنَزَلَ بالشام على عبد الله بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، وكان [أهل الشام] يُضَيِّفُونَ مَنْ يَعْرِفُونَ ومَنْ لا يَعْرِفُونَ، وكان عبد الله بن يزيد، وروح بن زنباع أكرمَ من بالشام أَضْيَافاً، وكانا يَتغدَّيانِ مع عبد الملك ويَتَعَشَّيانِ، فإذا انْصَرَفَا دَعَوَا بِطرفِ ما عندهما فأكَلَا مع أضيافهما. وكتب الحجاجُ إلى عبد الملك كتابًا يُعَظِّمُ فيه أمرَ خلافته، ويذكرُ أنَّ الخليفةَ أَعْظَمُ منزلةً عند الله من الملائكة المُقَرَّبينَ، لأنه جَعَل آدمَ خليفةً، ثم أمرَ الملائكة بالسجود له،

(١) انظر الحسن البصري، لإحسان عباس ص : ١٧٢.

(٢) أنساب الأشراف المخطوط ٢ : ١٠٣.

وجعلهم رُسُلاً إليه، فَحَسُنَ موقعُ ذلك من عبد الملك، وأعْجَبَهُ وأبْهَاهُ[1]، فقال : وَدِدْتُ أنَّ عندي بعضَ الخوارج، فأخاصِمُهُ بكتاب الحجاج. فلما انْصَرَف عبد الله بن يزيد حَدَّثَ أضيَافَهُ بما كان، فقال جَوَّازُ : تَوَثَّقْ لي منه، ثم أعْلِمْني. فراح إليه، فَتَوثَّقَ له، ثم أعْلَمَهُ ذلك. فلما أصبحَ جَوَّازٌ اغْتَسَلَ وتَحَنَّطَ، ولبسَ ثَوْبين، فأدْخَلَهُ إلى عبد الملك. فَدَعا بكتابِ الحجاج فقال : اقْرأْهُ، فقال جَوَّازٌ : جعلك مرة مَلَكاً، ومرةً نَبياً، ومرة خليفةً، فإن كنتَ مَلَكاً فَخَبِّرْنا متى نَزَلْتَ ؟ وإنْ كنتَ خليفة، فأعْلِمنا عن ملإٍ [1] من المسلمين اسْتُخْلِفَت. أم ابتزازٍ لأمورهم ؟ وكان أمية بن عبد الله بن خالد ابن أسيدٍ حاضراً، فقال : هو والله منهم ! فقال جَوَّاز : يا أمية، لو كنتُ منهم عَرَفتني يوم أبي فُدَيْك [2] حين هَزَمك ؟ ! فقال عبد الملك : قد أعطيناكَ عَهْداً ومَوْثقاً، فلا سبيلَ لنا إلى قَتْلك، ولكنك والله لا تُسَاكنني في بلدٍ ! الحَقْ بحيث شئت، قال : فإني أخْتَارُ مصر، فَنَزَلَ مصرَ، وأتى المغرب، فأفْسَدَ أهلَهُ، وكان يَرى رأيَ الصُّفْرِيَّة ».

(١) انظر رسائل الجاحظ للسندوبي ص : ٨١، وشرح نهج البلاغة ١٥ : ٢٤٠ : فقد ذكر الجاحظ أنَّ بني أمية جعلوا الرسول دون الخليفة !.

(٢) الملأ : الجماعة، وقيل : أشراف القوم وَوُجوههم ورؤساؤهم ومُقَدَّموهم الذين يرجع إلى قولهم. وقال الزمخشري في أساس البلاغة : ملأ : « ما كان هذا الأمر عن ملا منا أي ممالأة ومشاورة »، وقال ابن منظور في اللسان : ملأ : « ما كان هذا الأمر عن ملأ منا أي تشاور واجتماع ».

(٣) أبو فَدْيك : هو عبدالله بن ثور أحد بني قيس بن ثعلبة بن عكابة بن صعب بن علي بن بكر بن وائل. خرج سنة اثنتين وسبعين في أول ولاية خالد بن عبدالله بن خالد بن أسيد بن أبي العاصي بن أمية على البصرة، لعبد الملك بن مروان، فغلب على البحرين، وقتل نجدة بن عامر الحنفي، فاجتمع على خالد بن عبدالله نزول قطري بن الفجاءة الأهواز، وخروج أبي فديك بالبحرين، فبعث أخاه أمية بن عبدالله على جند كثيف إلى أبي فديك، فهزمه أبو فديك، وأخذ جارية له، فاتخذها لنفسه، وسار أمية على فرسٍ له حتى دخل البصرة في ثلاثة أيام، فكتب خالد إلى عبد الملك بحاله وحال الأزارقة. (انظر أنساب الأشراف المخطوط ٢ : ٧٦، وتاريخ الطبري ٦ : ١٧٤، والكامل في التاريخ ٤ : ٣٤٥).

ولذلك يُجْمعَ أكثرُ القدماء الذين عَرَضُوا لموْقف عبد الملك من المُناظرة والمشاورة على أنه لم يكن يُطِيقُ أنْ يُحَدِّثَهُ أحدٌ في المسائل السياسية، ولا يُجادِلَهُ فيها، وأنه أسْكَتَ النَّاس وكَبَتَهُم وعاقبهم على ذلك عقاباً شديداً، قال الجاحظ [١] : « كان عبد الملك بن مروان أوَّلَ خليفةٍ من بني أمية مَنَعَ الناسَ من الكلامِ عند الخلفاء، وتَقَدَّمَ فيه، وتَوَعَّدَ عليه »، وقال أبو هلال العسكري حين ذكر أوَّلَ من نَهَى الناسَ عن الكلام بحضرة الخلفاء [٢] : « أولِ من فعل ذلك عبد الملك بن مروان، وكان الناس قَبْلَهُ يُراجعُونَ الخليفةَ فيما يقول، ويَعْتَرِضُون عليه فيما يفعل، وأكثروا من ذلك على عثمان، ثم على معاوية، وكان يَجْري في مجلسه من المنازعات والخصومات ما يَجلُّ وَصْفُهُ، وكان يحتملُ ذلك تَحَلُّماً وإبقاءً على مُلْكِهِ، فلما صار الأمر إلى عبد الملك أخذ مأخذ ملوك الأعاجم، فنهاهم عن الكلام بحضرته، والمنازعة في مجلسه، وتَوَعَّدهم على مُخالفة رَسْمِه في ذلك، وكان يقول : لستُ بالخليفة المُسْتَضْعَف ، يعني عثمان، ولا الخليفة المداهن، يعني معاوية، ولا الخليفة المَأْفُون [٣]، يعني يزيد ». وقال [٤] إنه « أوَّلُ من نَهى عن الأمْرِ بالمَعْرُوف ».

(١) البيان والتبيين ٢ : ١٩٢.

(٢) كتاب الأوائل ص : ٢٠٣، والكامل في التاريخ ٤ : ٥٢٢، وفوات الوفيات ٢ : ٤٠٤، وتاريخ الخلفاء ص : ٢١٨.

(٣) رجل أفينٌ ومأفُونٌ : ناقصُ العَقْل، ضعيفُ الرَّأي.

(٤) كتاب الأوائل ص : ٢٠٢، وانظر الكامل في التاريخ ٤ : ٥٢٢، وفوات الوفيات ٢ : ٤٠٤، وتاريخ الخلفاء ص : ٢١٨.

(٣) « إسْرافُ الوَليدِ الأوَّلِ في الفَتْكِ والعَسْفِ »

واسْتقرَّ سلطانُ بني أمية في عَهْدِ الوليد بن عبد الملك، وهَدأتِ الأحوالُ السياسيةُ، وانْزوتِ الجماعاتُ المعارضةُ، وعَجزتْ عن التَّمردِ والثَّورةِ لِضَعْفِها وخَوفِها، وعلى الرغم من ذلك فإن عَهْدَ الوليد يُعَدُّ أسْوَأَ العهودِ السابقةِ واللَّاحقةِ، إذ كان أكثرها تَسَلُّطاً واسْتعباداً، وأشدُّها تعسُّفاً واضطهاداً، لأنَّ الوليد كان جَافياً مُتعَنِّتاً مُسْتَبِداً، وقد بدا كِبْرهُ وعُجْبُهُ قبل أنْ يَلِيَ الخلافة، فكان يَسْتَهِينُ بأهل مكة، ويُسْرِفُ في تقريعهم، مُذكراً لهم بِمُناهضَتِهم لبني أمية، ومظاهرتهم لعبد الله بن الزبير، ومُشيراً إلى عَفْوَ أبيه عنهم، ورِفْقِهِ بهم، ومُتَّهِماً لهم بإنكارِ فَضْلِهِ وجَحْدِ نِعْمتِهِ. وكان أبوه يَلُومُهُ على ذلك، وينهاه عنه ! قال الزبير بن بكار[1] : خرج الوليد حاجاً سنةَ ثمانٍ وسبعين، فدخل المدينة فنزل في دار مروان، « وسار من ذي الحُلَيْفةِ حتى انتهى إلى بَطْنِ مُرٍّ، فاستقبله وجُوهُ أهل مكة، فقال : ما منعكم أنْ تَسْتَقْبلوني بِعُسْفَان ؟ فَتَعَذَّرُوا إليه ببعض ما يَتَعَذَّرُ به الناس، فلم يَقْبَلْ ذلك وقال : لو كانت فِتْنةً لكنتم إليها سِراعاً ! خَالَفْتُمْ وشَقَقْتُم العَصَا، ونَازَعْتُمُ الأمْرَ أهلَه تسعَ سنين، ثم وَلِيَ أمير المؤمنين، فَصَفَحَ عنكم، وتَجاوزَ عن مُسيئكم، فلم تشْكُروا ذلك، ولم تَعْرِفُوا قَدْرَ ما فَعَلَ بكم ! فقال الحارث ابن عبد الله بن أبي ربيعة : أصلح الله الأميرَ ! إنهم قومُك وعشيرتُك، وليسَ كلُّهم على خِلافك، بل أكثرُهم مَعَك وإليك، ولكنهم غُلِبُوا وقُهِرُوا، فما

(١) الأخبار الموفقيات ص : ٣٢٤.

يَقْدِرُونَ على غير ما صَنَعُوا ! فقال الوليد : ما أَعْرَفَني بطاعتِك وطاعةِ من كان مِثْلَك ! فقال الحارث : فنحن على ما يُحِبُّ الأمير، قدم حاجاً مُتَبرِّراً مُعظِّماً لهذا البيت في الشهر الحرام، فإن رأى الأمير أَنْ يُعْرِضَ عن هذا فَعَلَ، ويُقْبِلَ عليهم بوجْهِهِ، فإن أمير المؤمنين عندَهُ احتمالٌ لهذا واتِّساعٌ. قال : أَفْعَلُ، فأَقْبَلَ عليه. وبلغَ عبدَ الملك ما صَنَعَ بهم قبلَ أَنْ يصلَ إليه، فكتب إليه كتاباً، وهو بالطريق، يُؤَنِّبُهُ ويقول : ما كان حَقك أَنْ تَفْعَلَ هذا بهم، وقد رأيتَني صفحْتُ عنهم، وأنا المُرادُ بهذا، وأنت لك العهد، ولأخيك مِنْ بعدك. وكان حَقُّك أَنْ تَلِينَ لهم وتُقَرِّبهم، وتَقْبَلَ عُذْرَهم، لعمري إنَّ هذا لمَوْضُوعٌ عنهم، وقد رأيتُ أميرَ المؤمنين معاوية، وقبلك أبي رحمه الله، والٍ على المدينة، ما يَسْتَقْبلونَهُ إلَّا بذي طُوى وشبِهِهاء واشتدَّ ذلك على عبد الملك، واغْتمَّ به ».

وكان يَأْنَفُ من مُطاولةِ بعض سادة القبائل لأبيه، ويَمْتَعِضُ من اجْترائهم عليه، مُغْرياً له أن ينكِّلَ بهم، لأنهم استَخفُّوا به، فقد حرَّض أباه على عبيد الله بن زياد البكري، وحَثَّهُ على قَتْلِهِ، لأنه ندَّد به، ونَصَحَهُ أَنْ يَسُوسَ الناس بالعَدْل، وأَنْ يَتَّقي الله في الحكم، قال المدائني (١) : « قال الوليد بن عبد الملك : يا أمير المؤمنين، ولم تستبقى مثله، ولم يَرَ لك هَيْبَةَ الخلافة، وجَلالَة السلطان، وواجبَ الطَّاعة، وإنْ كان ذا غِنىً ودَالةٍ، ولم يُوَقِّرْكَ توقير المسلمين إياك ؟ فقال عبد الملك : يا بني، ما كلُّ شيءٍ تَعْلَمُه » !

وعندما استُخْلِفَ الوليد زَجَرَ الناس عن التفكير في السياسة ومُزَاولتها، وخَنَقَهم خَنْقاً، وقاتل بقايا الجماعات المعارضة، وسحقها سَحْقاً. وقد ابتدأ عهدَهُ بِتَخْويف أهل الشام وأهل الأمصار الأخرى، مُحَذِّراً لهم من المَعْصيةِ

---

(٢) أنساب الأشراف المخطوط ٢ : ١١٧٦.

والفِتْنَةِ، ومُتَوَعِّداً بالفناء والإبادة كل من يَهْتِفُ بمعاداته أو يَتوانَى في مُوالاته، إذ يقول في خطبته الأولى التي خَطَبها بعد وفاة أبيه[1]: « أيها الناس، عليكم بالطَّاعةِ ولُزومِ الجماعة، فإن الشيطان مع الفَرْد. أيُّها الناس، من أبْدَى لنا ذاتَ نَفْسهِ ضَرَبْنا الذي فيه عَيْناه، ومَنْ سَكَتَ مات بدائه ». وظلَّ يَشُكُّ في أهل المدينة ومكة، ويَرْتَابُ منهم، ناقماً عليهم مُنَاصَرَتَهم لعبد الله بن الزبير، ومُوَبِّخاً لهم ومنذراً، قال اليعقوبي[2]: « حج الوليد سنة إحدى وتسعين لينظر إلى البيت وإلى المسجد وما أُصْلِحَ منه، فلما قَرُبَ من المدينة، خرج عمر [بن عبد العزيز] فتلقاه بِأشراف المدينة... وصلى بها الجمعة، وصَفَّ الجنْد صَفَّيْنِ، وصلى في دُرَّاعةٍ وقَلَنْسُوة في غير رداء. وخَطَبَ قاعداً، وتَوعَّد أهل المدينة فقال: إنكم أهل الخِلافِ والمَعْصية. فقام إليه قوم فَكَلَّموه، وكَلَّمُه أبو بكر بن عبد الرحمن. فقال: ما نَجْهَلُ ما تقولون، ولكنْ في النفُوسِ ما فيها! وصار إلى مكة، فَخَطَبَ بها خطبةً بَتْراءَ ذكَرَ فيها الوَعيدَ والتَّهْدِيدَ ».

وسَوَّى بين خصومه الذين كانوا يُناوِئُونَهُ بألسنتهم، وخصومه الذين كانوا يقاتلونه بسيوفهم، فلاحقهم وضَيَّقَ عليهم، وسَامَهم سُوءَ العذاب، يَجْلِدُهم مرةً، ويَحْبِسَهم مرةً، وأكثر ذلك يُهْدِرُ دماءهم، ويَضْرِبُ رِقَابهم. وقد جَالَد الحجاجُ الخوارجَ بالعراق، فَمَزَّقَ زياداً الأَعْسَم العبديَّ ومن خَرَجَ معه من الأزارقة بالبصرة تمزيقاً[3]، وقَطَّعَ هُيْصَمَ بن جابر التَغْلبيَّ ومنحوراً الخارجيَّ تَقْطيعاً[4]. ولم يكن الحجاجُ يَعْفو عن أحدٍ من

---

(١) تاريخ الطبري ٦: ٤٢٣، والعقد الفريد ٤: ٩١، والعيون والحدائق ٣: ٢، والكامل في التاريخ ٤: ٥٢٣، والبداية والنهاية ٩: ٧٠، وقارن بما ورد في تاريخ اليعقوبي ٢: ٢٨٣، ومروج الذهب ٣: ١٧١، والإمامة والسياسة ٢: ٥٨.

(٢) تاريخ اليعقوبي ٢: ٢٨٥، وانظر العيون والحدائق ٣: ٧.

(٣) أنساب الأشراف المخطوط ٢: ١١٨، والعيون والحدائق ٣: ١٤.

(٤) أنساب الأشراف المخطوط ٢: ١١٨، وتاريخ الطبري ٦: ٤٨٥، والعيون والحدائق ٣: ١٥.

أسْرَى الخوارج، بل كان يَقْتُلهم جميعاً، وكان نبراسٌ الغَنَوِيُّ يَضْرِبُ أعناق الخوارج بين يدي الحجاج [1].

وكان الوليد يُعْدِمُ من يُدْفَعُ إليه من أسْرَى الخوارج أيضاً، لأنهم كانوا يَلْعَنُونَ الخلفاءَ الأمويين ويُجَرِّمونهم، وكان عمر بن عبد العزيز يكثر أنْ يُراجِعَهُ في مَوْقِفِهِ منهم، وعُنْفِهِ بهم، كافًّا له عن قَتْلهم، ومُزَيِّناً له حَبْسَهم، لأنَّ سَبَّهُمْ للخلفاء لا يَسْتَوْجِبُ قتلهم، فلم يكن يَنْتَصِحُ، وكان يَسْتَاءُ من كلام عمر، ويَسْخَطُ عليه، قال المدائني [2]: « دَخَلَ بعضُ الخوارجِ على الوليد بن عبد الملك فَكَلَّمَهُ، فَشَتَمَهُ الخارجيُّ وشتَمَ أباه، فقال الوليد لعمر ابن عبد العزيز : ما تَرَى ؟ قال : أظنه مَغْلُوباً على عَقْله، فإن فَعَلْتَ ما يُشْبِهُكَ ويُشْبِهُ من أنت منه خَلَّيْتَهُ ! فقال الوليد لعمر : حَرُورِيٌّ والله، قال عمر : مَجْنُونٌ والله، فاخترط خالد بْن الرَّيَّان [3] سَيْفَهُ، وهو يرى أنَّ الوليد يأمره بقتل عمر ! فقام الوليد مُغْضَباً، فدخل على أم البنين أخت عمر فقال : ألَا تَرَيْن إلى ما قال لي أخوك الحروري الأحمق ! قالت : أنت أوْلَى بما قلت له، ما سَقَطَ عمرُ سَقْطةً مذ كان غلاماً، وقال لعبد العزيز ابنها : اخرج إلى خالد بن الريان، فَاصْرِفْهُ. وقال عمر لخالد : كنت قاتلي لو أمرك الوليد ؟ قال : إي والله ! قال : إنك لجريء على طاعةِ المخلوقِ في معصية الخالق، وأرسلت أم البنين إلى خالد : أن اخْرُجْ من العسكر، فخرج فكان مع سليمان في عسكره ». وروى ابن عبد الحكم عن الليث بن سعد

---

(١) أنساب الأشراف المخطوط ٢ : ١١٩، والعيون والحدائق٣ : ١٦.

(٢) أنساب الأشراف المخطوط ٢ ١١٤.

(٣) خالد بن الريان مولى بني محارب، كان على حرس عبد الملك بن مروان، وعلى حرس الوليد وسليمان ابني عبد الملك. ثم عزله عمر بن عبد العزيز، فذل وخمد ذكره. (انظر تاريخ خليفة بن خياط ص : ٣٩٥، ٤١٩، ٤٣٢، وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم ص : ٣٠، وتهذيب تاريخ ابن عساكر ٥ : ٣٧، وسيرة عمر لابن الجوزي ص : ٣١، وتاريخ الخلفاء ص : ٢٤٠).

قال [1] : « قال عمر بن عبد العزيز : أرسل إليَّ الوليد بن عبد الملك في الظهيرة، في ساعةٍ لم يكن يرسل إلي في مثلها، فوجدته في قَيْطونٍ [2] صغير له بابان، بابَ يدْخُل منه، وباب خَلْفَ ظَهْرِه يَنْحَرِفُ منه إلى أهله، قال : فدخلت عليه، فإذا هو قاطِبٌ بين عَيْنَيْهِ، فقال لي : اجلس ها هنا، فأجْلَسني بين يديه مَجْلِسَ الخَصْمِ، وليس عنده إلَّا خالد بن الريان قائماً بسَيْفِهِ فقال : كيف ترى فيمن سَبَّ الخلفاء ؟ أترى أنْ يُقْتَلَ ؟ قال : فَسكَتُّ فانْتَهَرني وقال : ما لك لا تتكلم ؟ فسكتُّ فعادَ لِمِثْلِها فقلت : أمْسِكْ [3] يا أمير المؤمنين، قال : لا، ولكنه سَبَّ الخلفاء، قلت : فإني أرى أنْ يُنَكَّل به بما انتهك مِنْ حُرْمةِ الخلفاء. قال : فَرَفَعَ الوليدُ رأْسَهُ إلى ابن الرَيَّانِ وقال : ما أظنه إلَّا أنْ يقول له : اضرِبْ عنقه، فقال : إنه فيهم لَتَائهُ، ثم حَوَّلَ وِرْكَيْهِ فدخَلَ على أهله، فقال لي ابن الريان بيده : انصرف، وكان ابن الرَّيَّانِ لعمر حافظاً، قال : فانصرفت وما تَهُبُّ ريحٌ من ورائي إلَّا وأنا أظن أنه رسولٌ يَرُدُّني إليه » ! وقال ابن عبد الحكم [4] : بعث الحجاج حَرورياً جافياً إلى الوليد، « فدخل الحروري على الوليد وعنده أشراف أهل الشام، وعمر فيهم، فقال له الوليد : ما تَقُول فيَّ ؟ قال : ظالمٌ جائرٌ جَبَّارٌ ! قال : ما تقول في عبد الملك ؟ قال : جَبَّارٌ عاتٍ ! قال : فما تقول في معاوية ؟ قال ظالم. قال الوليد لابن الريان : اضربْ عُنُقَهُ، فضَرب عُنُقَه، ثم قام فدخلِ منزله، وخرجِ الناس من عنده. فقال : يا غلام، ارْدُدْ عليَّ عمر، فرده

(١) سيرة عمر عبد العزيز لابن عبد الحكم ص : ٢٩، وسيرة عمر لابن الجوزي ص : ٣١.

(٢) القيطون : بيت في بيت.

(٣) في الأصل : أفتك.

(٤) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبدالحكم ص: ١٣٦، وانظر البداية والنهاية ٩ : ١٣٥. وقارن بما ورد في تهذيب تاريخ ابن عساكر ٥ : ٣٧، ففيه أن سليمان بن عبد الملك هو الذي أمر بضرب عنق الحروري، وابن عساكر لا يدقق في بعض ما يروي من الأخبار !.

عليه فقال : يا أبا حَفْصٍ : ما تقول بهذا ؟ أصَبْنَا فيه أم أخطأنا ؟ فقال عمر : ما أصبْت بقتله، ولَغَيْرُ ذلك كان أرْشَدَ وأصْوَبَ، كنت تسجنه حتى يُراجِعَ الله عز وجل، أو تُدْرِكَهُ مَنِيَّتُهُ، فقال الوليد : شتمني وشتم عبد الملك، وهو حَرُورِيّ، أَفَتَسْتَحِلُّ ذلك ؟ قال : لعمري ما أسْتَحِلُّه، لو كنت سَجَنْتُه إنْ بدا لك أو تَعْفو عنه. فقام الوليد مُغْضِباً، فقال ابن الرَّيَّان لعمر : يَغْفِرُ الله لك يا أبا حفْصٍ، لقد رادَدْتَ أمير المؤمنين حتى ظننت أن سيأمرني بِضَرْبِ عُنُقك ! فقال عمر : ولو أمرك كنت تفعل ؟ قال : إي لعمري، قال عمر : اذْهَبْ إليك » !

ونَقَضَ الوليد عهد أبيه لبعض الخوارج الذين آمنهم ونفاهم من الشام، فقد قبَضَ على جَوَّازٍ الضَّبيِّ وأرسله إلى الحجاج فقتله، قال الهيثم بن عدي الطائي [(١)] : « لما مات عبد الملك كتب الحجاج إلى الوليد، إنَّ ذِمَّةَ أمير المؤمنين عبد الملك قد وَفَتْ، ولا أمان لِعَدُوِّ الله جَوَّازٍ الضَّبِّيِّ، وإنْ رأى أمير المؤمنين أنْ يبعث إليَّ به، وكانت بنو أمية لا تقتل خارجياً بالشام والجزيرة، لئلا تُتَّخَذَ دارَ هِجْرةٍ. فكتب الوليد إلى قُرَّة بن شُرَيْكٍ [(٢)] : أنْ ابعث إليَّ بجوازٍ الضَّبيِّ، فبعث به إليه، فلما دخل عليه قال : انطلقا به إلى الحجاج، فقال : إني في أمان أبيك وذِمَّته، قال : لا بُدَّ من الحجاج، قال : مثلك والله أخْفَرَ [(٣)] الناس أباه، واسْتَخَفَّ بذمته وأخْفَرها ! فلما قُدِمَ به على الحجاج قال : بلغَ من أمْرِكَ يا جوازُ أنْ تَرِدَ على أمير المؤمنين ! قال : « اقْضِ ما أنتَ قاضٍ إنما تَقْضي هذه الحياةُ الدنيا »، فأمَر به فَقُتِل !

---

(١) أنساب الأشراف المخطوط ٢ : ١٠٤.

(٢) قرة بن شريك العبسي من أخوال الوليد بن عبد الملك، وكان والياً له على مصر. (انظر تاريخ خليفة ابن خياط ص : ٤١٦، والنجوم الزاهرة ١ : ٢٢١.

(٣) أخفر أباه : نقض عهده ونكث به.

وعَنُفَ الوليد ببعض سادة الزُّبَيْريِّينَ والعَلَوِيِّينَ والعباسيين، لأنهم كانوا يُنَاهِضُونَهُ، إذ أمر عمر بن العزيز وهو والٍ على المدينة أن يجلدَ خُبَيْبَ بن عبد الله بن الزبير، لأنه كان يُبَشِّرُ بسقوط دولة بني أمية، قال المدائنيُّ [1] : « كتب الوليد إلى عمر : أن اضربْ خُبَيْباً، لأنه كان يقول : ملك بني مروان زائلٌ عن قريب، وكانت عنده أحاديث. فضربه عمر لذلك، فمرض وبَرَأ، ثم مَرِضَ فمات، فظن عمر أنه مات من ضرْبِهِ، فأعْتَقَ ثلاثين رَقَبةً » ! وقال ابن الجوزي [2] : « قال العلماء بالسِّيَر : كان خُبَيْبُ بن عبد الله بن الزبير قد حدَّثَ عن النبي ﷺ أنه قال : إذا بلغ بنو أبي العاص ثلاثين رجلاً، اتَّخذُوا عبادَ الله خَوَلاً ومال الله دُوَلاً »، فبعث الوليد بن عبد الملك إلى عمر بن عبد العزيز وهو واليه على المدينة أنْ يَضْرِبَه، فضربه فمات، فكان عمر إذا قيل له : أبْشِرْ، قال كيف بِخُبَيْبٍ على الطريق » !

وناصَبَ أبا هاشم عبدالله بن محمد بن علي بن أبي طالب العداء وسَجَنَهُ، لأنه كان يدعو إلى نفسه، وكان له أنصارٌ يعتقدون بإمامته، وكان أبو هاشم قد خاصم زيد بن حسن بن علي بن أبي طالب في صدقات علي، قال محمد بن عبدالله القطان [3] : « ولما تَوَجَّهَ القضاءُ بالمدينة لأبي هاشم على زيد بن الحسن، شخص زيد إلى دمشق، وقدم على الوليد، فوشى بأبي هاشم، وذكر أنَّ له شيعةً من أصحاب المختار، وأنهم يأتَمُّونَ به، ويَحْملُونَ صدَقاتهم إليه. وزعم بعض من حكَى حديثَ حَبْسِ أبي هاشم أن التشاجر بينه وبين زيد بن حسن بن علي قد كان تفاقم حتى شخص الوليد حاجاً

---

(١) أنساب الأشراف المخطوط ٢ : ١١٤، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص : ٢٧.

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز، لابن الجوزي ص : ٢٦، وانظر جمهرة نسب قريش ص : ٢٤٠، ورسائل الجاحظ، للسندوبي ص : ٨٩، وشرح نهج البلاغة ١٥ : ٢٥٤.

(٣) أخبار الدولة العباسية ص : ١٧٤.

سنةَ إحدى وتسعين، فلما قدم المدينة حَضَرَهُ أبو هاشم وزيد بن حسن، فقال الوليد لأبي هاشم : لقد أسرع إليك الشيب، فقال أبو هاشم : إنه لَيُسْرِعُ إلى ذي السِّنِّ. فقال زيد بن حسن بن علي : ذاك يا أمير المؤمنين لِغاليةٍ [1] تهدى إليه من الكوفة يَغْتَلِفُ [2] بها ! فارتفع القول بينهما إلى أن رماه زيد بانتماءٍ من شيعته من أهل الكوفة. فلما صَدَرَ الوليد عن الموسم فمر بالمدينة، أشخص معه أبا هاشم إلى دمشق، فحبسه بِوِشَايةِ زيد بن حسن ». ولم يزل محبوساً حتى تَشَفَّعَ له عليٌ بن الحسين بن عليٍ بن أبي طالب، فَخلَّى الوليدُ سَبيلَهُ، وأمَرهُ بالمُقام عنده [3] !

وحاصَرَ الوليدُ عليَّ بن عَبد الله بن عباس، وضَرَبَهُ في تَزَوُّجَهُ لبابة بنت عبد الله بن جعفر بعد أنْ طَلَّقها عبد الملك بن مروان، وقال له : إنما تتزوجُ أمهات أولاد الخلفاء لتضع منهم، لأن مروان بن الحكم تَزَوَّجَ أمَّ خالد بن يزيد بن معاوية ليضع منه [4] ، وضَرَبَهُ في ادِّعائه الخلافَة، وقوله إنها سَتَصِيرُ إلى ولده، قال محمد شجاع البلخي [5] : « رأيت علياً مضروباً بالسوط يُدارُ به علي بَعِير، وَوَجْهُهُ مما يلي ذَنَبَ البَعِيرِ، وصائحٌ يصيحُ عليه : هذا علي بن عبدالله الكذاب ! قال : فأتَيْتُهُ فقلت : ما هذا الذي نَسبُوكَ فيه إلى الكذِب ؟ قال : بلغهم قولِي : إن هذا الأمرَ سيكُون في

---

(١) الغالية : نوع من الطيب مُرَكَّب من مِسْك وعَنْبَر وعود ودُهن.

(٢) تَغَلَّف بالغالية واغتلف : لطخ لحيته بها، وكرهها بعضهم وقال : إنما هو غلاَّها. وقال بعضهم : تَغَلَّف بالغالية إذا كان ظاهراً، فإذا كان داخلاً في أصول الشعر قيل تغلَّل.

(٣) أخبار الدولة العباسية ص : ١٧٦آ

(٤) الكامل للمبرد ٢ : ٢١٧، وأخبار الدول العباسية ص : ١٣٩، والكامل في التاريخ ٥ : ٢٥٧، ووفيات الأعيان ٣ : ٢٧٥، وشذرات الذهب ١ : ١٤٨.

(٥) الكامل للمبرد ٢ : ٢١٨، والعقد الفريد ٥ : ١٠٣، وأخبار الدولة العباسية ص : ١٣٩، ووفيات الأعيان ٣ ٢٧٦، وشذرات الذهب ١ : ١٤٩.

وَلَدي » ! وضَرَبَهُ في قَتْلِ سليط بت عبدالله بن عباس بِغيرَ بيِّنةٍ قاطعةٍ، ونَفاه إلى الحُمَيْمَةِ، فلم يزل بها حتى مات الوليد[(١)] .

وكان عبد الملك بن مروان وازَنَ في الوظائف بين القبائل القيسية واليمانية، فَوَلَّى الحجاجَ على العراق، والمهلبَ بن أبي صفرة على خراسان، ثم استعمل عليها يزيد بن المهلب، وغَلَّ يدَ الحجاج وقيَّدها وحَدَّ من سُلْطانه، ورَدَعَهُ عن العَصَبِيَّة[(٢)] ، وسَفْكِ الدماء، وتَبْذِيرِ الأموال[(٣)] ، وأمَّا الوليد فانحازَ إلى أخواله من القَيْسِيَّةِ وحاباهم، فَغَلَبُوا على الوظائف في العراق وخراسان وسائر المشرق واليمن ومصر[(٤)]. وأطلق يَدَ الحجاج، فظَلَمَ اليَمانيَة وحاسب المهالبة حساباً عسيراً وعذَّبهم عذاباً شديداً[(٥)].

وأضْفَى الوليدُ على نفسه هالةً من القَداسة، حتى لقد حَرَّمَ على الناس مُنَاقشته ومُخالفته، ومَنَعهم من مُنَادَاته باسمه ! ! وخَوَّفَهم وقَتَلهم على ذلك !! قال اليعقوبي[(٦)] : « كان الوليد يقول : لا ينبغي لخليفةٍ أنْ ينَاشَدَ ولا يُكَذِّبَ ولا يُسَمِّيَه أحدٌ باسْمِهِ ». وقال المدائني[(٧)] : « قيل لسعيد بن المُسَيَّب : إنَّ ابنَ شهابٍ حَدَّثَ الوليدَ عن قَبِيصةَ بن ذؤيب عن المغيرة بن

---

(١) رسائل الجاحظ للسندوبي ص : ٧٩، وتاريخ اليعقوبي ٢ : ٢٩٠، وأنساب الأشراف ٣ : ٧٦، والكامل في التاريخ ٥ ٢٥٦، ووفيات الأعيان ٣ : ٢٧٨، وشذرات الذهب ١ : ١٤٩.

(٢) أنساب الأشراف المخطوط ٢ : ١٩، ٢٠، وتاريخ الطبري ٦ : ٣٠٣، ٣٢٧، ٣٣٩، ٣٩٥، ٣٩٧.

(٣) مروج الذهب ٣ : ١٤٢، وتهذيب تاريخ ابن عساكر ٤ : ٦٧، وفوات الوفيات ٢ : ٤٠٣، والبداية والنهاية ٩ : ١٢٧.

(٤) انظر ولاته في تاريخ خليفة بن خياط ص : ٤١٤ ــ ٤١٩.

(٥) المعارف ص: ٤٠، وتاريخ اليعقوبي ٢ : ٢٨٥، وتاريخ الطبري ٦ : ٤٤٨، والكامل في التاريخ ٤ : ٥٤٥، ووفيات الأعيان ٦ : ٢٧٨.

(٦) تاريخ اليعقوبي ٢ : ٢٩٠.

(٧) أنساب الأشراف المخطوط ٢ : ١١٠.

شعبة عن النبي ﷺ أنه قال: « لا ينبغي للخليفةِ أنْ يُنَاشَدَ ». فقال ابن المسيب: لعنةُ الله على ابن شهابٍ إنْ كان حَدَّثَ بهذا! لقد أَعْظَمَ الدنيا! أَيُحَدِّثُ الوليدَ بِمثْل هذا، وهو يَعْرِفُ الوليدَ ويْحَه!... أفيُنَاشَدُ رَسُولُ الله ﷺ ولا يُنَاشَدُ الخليفة »! وقال محمد عبدالله القطان [1]: « كان الوليد أوَّلَ ملوك بني أمية تَكَبَّرَ في نفسه، وسار في الناس بالجَبْرِيَّةِ والخُيَلَاءِ خَلَا ما كان عليه مَنْ كان قَبْلَهُ، وما كان الناسُ يكلّمونَ به معاوية ويزيد وعبد الملك من دُعَائهم بأَسْمَائهم، وانْتصَافهم منهم في كَلامهم. وقامَ بذلك خطيباً على منبره فقال: إنكم كنتم تُكَلِّمُونَ مَنْ كانَ قَبْلي من الخلفاء بكلام الأكفاء، وتَقُولُونَ: يا معاوية ويا يزيد، وإني أعطي الله عَهْداً يأخُذُني بالوفاء به: لا يُكَلِّمُني أحدٌ منكم بِمِثْلِ ذلك إلَّا أَتْلَفْتُ نَفْسَهُ، فلعمري إنَّ استخفافَ الرعية براعيها سيدعوها إلى الاستخفاف بطاعته والاستهانةِ بمعصيته. فَبَلغنا أنَّ رجلًا من بني مُرَّة قال: اتَّقِ الله يا وليد، فإن الكبرياء لله، فأمر به فَتُوُطِّيء حتى مات، واتَّعَظَ الناس به، وهابوه لذلك »!

وَيتَّفِقُ بعضُ إخوته وأكثر المؤرخين على أنه كان مُتَطرِّفاً مُتَهوِّراً، قال سليمان بن عبد الملك [2]: « كان الوليد جبَّاراً عنيداً »، وقال سعيد بن عبد الملك [3]: إنَّ أَوَّلَ من افْتَتَحَ الجَبْرِيَّةَ في بني أمية الوليد، قال يوماً لأهل بيته وأنا معهم: لا يُحِدَّنَّ الرجلُ منكم إليَّ نَظَره في مجلس عامةٍ كأني وإياه متكافئان، فيوشك الرجلُ الأثيرُ في نفسه عندي أن يَفْعَلَ فلَا يرْجِعُ إليه

(١) أخبار الدولة العباسية ص: ١٧٧.

(٢) فوات الوفيات ٢: ٦٩، والبداية والنهاية ٩: ١٨١.

(٣) أخبار الدولة العباسية ص: ١٧٨.

نَظَرُه » ! وقال الواقدي [1] : كان جَبَّاراً عنيداً » وقال المسعودي [2] : « كان الوليد جبَّاراً عنيداً، ظلُوماً غشُوماً »، وقال أيضاً [3] : كان شديدَ السَّطْوةِ، لا يَتَوَقَّفُ عند الغَضَبِ، ولا ينْظُرُ في عاقبةٍ، ولا يُكَلَّمُ عند سَطْوتِهِ، تَهُونُ عليه الدِّماء » !

والتَّبَايُنُ ظاهرٌ في سيرةِ الوليد وجَوانبِ شخصيته، فقد كان ضَيِّقَ الأُفُقِ في النواحي الفكريَّةِ السياسيَّةِ، فَحَظَر على الناس الخَوْضَ في المسائل السياسية، وسَلَبهم حُرِيَّةَ التفكيرِ والقَوْلِ ، وعَنُفَ بمن عَارضَهُ، وعَصَفَ به عَصْفاً، وربما كان سببُ ذلك ضَعْفَ ثقافتِهِ، وإحساسَه بالعَظَمةِ. وكان بَعِيدَ الهِمَّةِ، ماضيَ العَزِيمةِ في الأمور العسكرية، فأُنْجِزَتْ في أيامه فُتوحُ كبيرةٌ في المشرق والمغرب [4]. وكان مُدَقِّقاً مُتشدِّداً في الشؤن المالية [5]، وكان ثَاقِبَ النَّظَرِ، مُرْهَفَ الشُّعور في الميادين الاجتماعيَّةِ والصِحيَّةِ والتَّعْليميَّةِ والعِمرانيَّةِ، فَشُيِّدتْ في زمانه منشآت ضَخْمةٌ، ومَرافِقُ كثيرةٌ، ونال الناس غيرَ قليلٍ من الفوائدِ والمنافعِ، فكان عند أهل الشام أفْضَلَ خُلفائهم [6] ، وإنما مكَّنَهُ من إحْرازِ ذلك وبُلوغِهِ قُوَّةُ الدَّوْله في أيامه.

---

(١) الطبري ٦ : ٤٢٣، والكامل في التاريخ ٤ : ٥٢٣، وانظر تاريخ الإسلام ٤ : ٦٧.

(٢) مروج الذهب ٣ : ١٦٦، وانظرتاريخ الخلفاء ص : ٢٢٣.

(٣) التنبيه والإشراف ص : ٢٧٤، وانظر العيون والحدائق ٣ : ١٢.

(٤) انظر تاريخ خليفة بن خياط ص : ٣٩٧ ـــ ٤١٢، وتاريخ اليعقوبي ٢ : ٢٨٥ ـــ ٢٨٧، وتاريخ الطبري ٦ : ٤٢٨، ٤٣٦، ٤٣٩، ٤٤٢، ٤٥٤، ٤٦٨، ٤٨٣، ٤٩٢، ٥٠٠، ومروج الذهب ٣ : ١٨٢، والعيون والحدائق ٣ : ٢ ـــ ٤، والإمامة والسياسة ٢ : ٧٥ ـــ ٨٣، والكامل في التاريخ ٤ : ٥٢٧، ٥٢٨، ٥٣٣، ٥٣٥، ٥٤٣، ٥٥٣، ٥٧١، ٥٨١، ٥٨٣، والبداية والنهاية ٩ : ١٦٥، وتاريخ الخلفاء ص : ٢٢٤، وشذرات الذهب ١ : ١١٢.

(٥) أنساب الأشراف المخطوط ٢ : ١١١، وتاريخ الطبري ٦ : ٤٩٨.

(٦) أنساب الأشراف المخطوط ٢ : ١٠٨، وتاريخ اليعقوبي ٢ : ٢٩٠، تاريخ الطبري ٦ : ٤٩٦، والعقد الفريد ٤ : ٤٢٤، والعيون والحدائق ٣ : ١١ ـــ ١٢، والكامل في التاريخ ٤ : ٥٣٣، وفوات الوفيات ٤ : ٢٥٤، والبداية والنهاية ٩ : ١٦٤، والنجوم الزاهرة ١ : ٢٢٠، وتاريخ الخلفاء ص : ٢٢٣.

(٤) « خُلاصةٌ وتَعْقِيبٌ »

وَيبْدو مما تَقَدَّم أنَّ الخِلافةَ انْتَقَلَتْ من الأُسْرةِ السُّفيانيَّةِ إلى الأُسْرةِ المَرْوانيَّةِ باتِّفاقِ بني أميَّة وأتْباعِهم من القَبائِلِ اليَمانيَّةِ الشَّامية على مَرْوانَ ١ابنِ الحكم، فقد اختارُوهُ وآثَرُوهُ على غيرِه، لأنه كان نِدّاً لعبدِ الله بن الزُّبير في المكانةِ، إذْ كانَ كبيرَ بني أُميَّةَ، والمَنْظُور إليه منهم، والقَادِرَ على جَمْعِ شَمْلهم، وتَوْحيد كَلِمتهم، وحِمايةِ مُلْكِهم، ورِعايةِ مَصَالِحهم، فأَلْقَوْا إليه مَقَاليدَ أمْرِهم، فَقَادَهم في مَرْجِ راهطٍ، وهزمَ الضَّحَّاكَ بنَ قَيْسٍ الفِهْريَّ وأنْصارَ عبدِ الله بن الزُّبير، واسْتَخْلَصَ بلاد الشام من أيْدِيهم. ثمَّ بَسَطَ سُلْطانَهُ على مصرَ، وعَقَدَ العَهْدَ لابْنَيْهِ عبدِالملكِ وعبد العزيز، لِيُوَطِّدَ تحوُّل الخلافةِ إلى وَلَدِه، ويَضْمَنَ بَقَاءَها فيهم من بَعْدِه.

وتَوَلَّى الخلافة ابنُهُ عبدُ الملكِ، فَقَتَلَ عمرو بن سعيدٍ الأشْدَقَ بدمشقَ، لأنه ثارَ عليهِ وعَزَلَهُ، واسْتَرَدَّ العراقَ بنفسهِ، وقَتَلَ مُصْعَبَ بنَ الزُّبيرِ. واسْتَعَادَ الحجاجُ بنُ يوسفَ الحجازَ، وقَتَلَ عبدَ الله بنَ الزُّبيرِ، وكَفَتْهُ تميمٌ عبدَ الله ابنَ خازمٍ بخراسانَ، فَقَتَلَهُ ودَخلَتْ في طاعتِه، وناجَزَ قادتُهُ الخوارجَ، وتَغَلَّبُوا عليهم، وشَتَّتُوا مَنْ سَلِمَ منهم، وقَضَوْا على ثَوْرةِ عبدِ الرحمنِ بنِ محمد بنِ الأشْعَث، فَقَتَلَ نفسَهُ، وقَتَلُوا كثيراً من رُؤُوسِ أصْحابِه، فاسْتَقَامَ له الأمرُ في جميع أمْصار الدَّولةِ، وتَوارَى مَنْ نَجا مِنْ أعْدائِهِ وانزَوَوْا، وضَعُفُوا واسْتَخْفَوْا.

واُعْتَمَدَ في سِياسَتِهِ على الإنْذارِ والتَّحْذير، والتَّخْويفِ والتَّهْديد، ولم

يكنْ يَصفَحُ عن خُصُومهِ إلَّا قليلاً، فلمَّا صفَا له المُلكَ، جَعَلَ يُعْرِضُ عن إنْكارِ الناسِ لِسياستِهِ، ويَصْبِرُ على تَشْهيرهم بِسيرته، فإذا تخطَّوْا ذلك إلى التأليبِ عليه، والسَّعْي لانْتزاعِ المُلْكِ منه، حَارَبَهم وبَطَشَ بهم.

وقد تَغَيَّر عبدُ الملكِ كثيراً بعدَ أنْ تَولَّى الخلافةَ، اذْ كانَ في المدينةِ مُتفرغاً لِلعِلْمِ جادًّا في تَحْصِيليه، وكانَ حييًّا خَجُولاً، ومُتَواضِعاً نَبِيلاً، وعَفِيفاً جَلِيلاً، قال نافعٌ مَوْلى ابنِ عمر[1]: « لقد رأيتُ عبدَ الملك بنَ مروانَ، وما بالمدينةِ شَابٌ أشَدُّ تَشْميراً ولا أطْلَبُ لِلْعِلْمِ منه »، وقال أيضاً[2]: « لقد رأيْتُ المدينةَ وما بها شَبابٌ أشَدُّ تَشْميراً ولا أمْلَكُ لنفسهِ ولا أظْهَرُ مروءةً من عبدِ الملكِ ». ولم يزلْ يطْلُبُ العِلْم، ويُجالِسُ العُلماءَ والفُقهاءَ ويَحْفَظُ عنهم[3]، حتَّى صارَ أحدَ فُقَهاءِ المدينةِ الكِبار، قال أبو الزِّناد[4]: « كُنَّا نَعُدُّ فُقَهاءَ المدينةِ أرْبعةً: سعيدَ بنَ المُسيَّبِ، وعُرْوةَ بنَ الزُّبيرِ، وقبيصةَ بن ذؤيبٍ، وعبدَ الملكِ بن مروانَ ». وكان صالحاً دَيِّناً، وزاهداً تَقِياً، قال الوَاقديُّ عن رجالهِ من أهْلِ المدينة[5]: «كان عَابداً نَاسكاً قبلُ الخلافةِ »، وقال نافعٌ مَوْلَى ابن عمر[6]: « كان يُقالُ لعبدِ الملكِ: حَمَامةُ المَسْجِدِ لعبادَته »، ولذلك لم يَشْهَدْ مَرْجَ راهطٍ تَحَوُّباً

---

(١) طبقات ابن سعد ٥ : ٢٣٤.

(٢) أنساب الأشراف المخطوط ١ : ١١٦٣، وانظر تاريخ بغداد ١٠ : ٣٨٩، والبداية والنهاية ٩ : ٦٢، وتاريخ الخلفاء ص : ٢١٦، وتهذيب التهذيب ٦ : ٤٢٢، وشذرات الذهب ١ : ٩٧.

(٣) طبقات ابن سعد ٥ : ٢٢٦، وانظر تاريخ دمشق المخطوط ١٠ : ٢٥٢، والبداية والنهاية ٩ : ٦٢.

(٤) أنساب الأشراف المخطوط ١ : ١١٦٣، وتاريخ بغداد ١٠ : ٣٨٩، وطبقات الفقهاء، للشيرازي ص : ٦٣، وتاريخ دمشق المخطوط ١٠ : ٢٥٣، وفوات الوفيات ٢ : ٤٠٢، والبداية والنهاية ٩ : ٦٢، وتهذيب التهذيب ٦ : ٤٢٣، وتاريخ الخلفاء ص : ٢١٦.

(٥) طبقات ابن سعد ٥ : ٢٣٤.

(٦) أنساب الأشراف المخطوط ١ : ١١٦٣.

وتأثُّماً، قال الهيثمُ بنُ عَدِيٍّ الطَّائيُّ [1] : « لم يَحْضُرْ عبدُ الملك يومَ المَرْجِ تَوَرُّعاً ». فلمَّا تَولىَّ الخلافة فارقَ سيرَتَهُ الأُولَى، وأصْبَحَ غليظَ القَلْبِ، فَظَّ النَّفْسِ، سَفَّاكاً للدِّماءِ، فتَّاكاً بالأعْداءِ، فَمحقَ كُلَّ منْ خرجَ عليه، وتَحَامَى كُلَّ مَنْ نَدَّدَ بهِ، ولكنه وَادَعَ الهَاشِمِيِّينَ من العَلَوِيِّنَ والعَبَّاسِيِّينَ، وأحْسَنَ إليهم، لأنَّهم دَخلوا في طَاعَتِهِ، وسَالَمُوهُ، فلم يَشْغَبُوا عليهِ، ولم يَثِبوا بهِ، ولأنَّه كانَ يَتَطيَّرُ مِنْ مُحَاصَرتِهم، ويَتَشَاءَمُ بمعاداتِهم، ويَخافُ أنْ يَزُولَ سُلْطانُهُ إذا قَتَلَهُمْ !!

ولَاحَظَ بعضُ المُحَدِّثين من أَهْلِ التَّقْوى والوَرَعِ، الذينَ يَكْرهُونَ التَّحَوُّلَ مِنْ حياةِ الفِقْهِ والعِلْمِ إلى مُمَارسةِ السِّياسةِ أنه تَغيرَّ بعدَ أنْ تَولَّى الخلافَةَ، قَال عُبَيْدُ الله بنُ محمدِ التَّميمي البصريُّ المعروفُ بابنِ عائشة [2] : « أَفْضى الأمْرُ إلى عبدِ الملكِ بنِ مروانَ والمُصْحَفُ في حِجْرِهِ فأطْبَقَهُ وقال : « هذا فِرَاقُ بَيْني وبيْنِكَ ».

وأقَرَّ عبدُ الملك أنَّ السُّلْطانَ قد غَيَّرَهُ، إذْ حَملهُ على قَطْعِ المَوَادَّاتِ القَدِيمةَ، والتَّنكُرِ للصَّداقاتِ الحَميمةِ، ودَفَعَهُ إلى اللُّجوء إلى السِّلاحِ، ومُحَاربةِ أحبِّ النَّاسِ إليه وأخْلَصِهم له قَبْلَ أنْ يتولَّى الخلافةَ، فقد قَال لِرَوْحِ بنِ زِنْباعٍ الجُذاميِّ وهو يَجْمعُ جُنودَهُ، ويَتجَهَّزُ لِقتالِ مُصْعَبِ بنِ الزبيرِ بالعراقِ [3] : « واللهِ إنَّ في أمْرِ هذهِ الدُّنيا لَعَجَباً، لقدْ رَأيتُني ومُصْعَبَ ابنَ الزُّبَيْرِ. أَفْقِدُهُ الليلةَ الواحدةَ من المَوْضعِ الذي نَجْتَمعُ فيه فكأني وَالِهٌ ! ويَفْقدني فَيفْعَلُ مثلَ ذلك. ولقد كنتُ أُوتى باللَّطَف [4] فما أراه يَجُوزُ لي

---

(١) أنساب الأشراف ٥ : ١٣٦.

(٢) فوات الوفيات ٢ : ٤٠٢، والبداية والنهاية ٩ : ٦٣، وتاريخ الخلفاء ص : ٢١٧.

(٣) طبقات ابن سعد ٥ : ٢٢٦.

(٤) اللَّطَفُ : من طُرَفِ التُّحف.

أكْلُهُ حتى أبعثَ به إلى مُصْعَبٍ أوْ بِبَعْضِهِ، ثم صِرْنا إلى السَّيْف ! ولكنَّ هذا المُلكَ عقيمٌ، ليس أحدٌ يُرِيدُهُ مِنْ وَلَدٍ ولا وَالدٍ إلَّا كان السَّيْفُ » !!

وعلى ما اشْتُهِرَ به عبدُ الملكِ مِنْ سَعَةِ مَعَارِفِهِ الدِّينيَّةِ والتَّاريخيةِ والأدبيَّةِ، وما ذُكِرَ من فِطْنَتِه وكيَاسته وتَواضُعِهِ وَوَرعه، في شبابه، فإنَّه لم يَسْتَطِعِ التَّوْفيقِ بينَ قَوْمِه وخُصومهم من زُعماء الأَحْزاب السِّياسيَّة، بحيث يَضْمَنُ أنْ يكونَ المُلْكُ لبني أميَّةَ، ويُحقِّقُ لِخُصومهم بعض مَطالبهم الإصْلاحيَّةِ، بل كان حفيظاً علىٰ سُلْطانِ قَوْمه، مُتأهِّباً للدِّفاعِ عنه، حريصاً على تَقْوِيَته، مُجْتَهِداً في التَّمكينِ له، كما كان يَضِيقُ عن أنْ يُحَاوِرَهُ أحدٌ في الإمَامَةِ، ولا يُطيقُ أنْ يُجَادِلَهُ في حَقِّ قَوْمِه في الخَلافةِ.

وعهدَ عبدُ الملكِ إلى ابْنَيْه الوليد وسليمان بالخلافةِ، وتَقَلَّدَ الوليدُ الخلافةَ بعدَ مَوْتِه، وكان ضَحْلَ الثَّقافةِ مُتكبِّراً في نَفْسِهِ، فَتَحَامَلَ على خُصومِهِ، وضَرَبَ أعْناقَ كثيرٍ من الخوارج الذين سِيقُوا إليه، ونكثَ عَهْد أبيهِ وميثاقَهُ لبعضهم، وسَفَكَ دِمَاءَهم، وضَيَّقَ على بعْض الزُّبَيْرِيِّينَ والعَلَوِيِّينَ والعَبَّاسيِّينَ، وأساءَ إليهم، ونكَّل بهم. وتَحَزَّبَ لأخْوالهِ من القَيْسيَّة، فَخَصَّهُمْ بالأعْمالِ والوِلَايات، وحَكَّمهم في رِقابِ اليمانيَّةِ، فاضْطهدُوهم وجَارُوا عليهم.

وبذلك كان زمانُهُ أشدَّ من زَمانِ أبيه قَسْوةً، إذْ شاعَ فيه التَّسلُّطُ والإرْهابُ والقتْلُ، فقد أخذَت الوليدَ العِزَّةُ بِقُوَّةِ سُلْطانه، وأسْبَغَ على نَفْسِهِ هالةً من الجلالةِ والقَدَاسةِ، وأحَسَّ أنَّهُ أرْفَعُ من النَّاس، فاسْتَعْلى عليهم، وأمَرهم أنْ لا يُعاملُوه على أنَّهُ واحدٌ منهم، وأفْرَطَ في قَهْرِهم وقَمْعِهم.

وهكذا أسْرفَ المَرْوانيُّونَ المُتَقَدِّمُونَ في العُنْفِ والعَسْفِ، وسبَبُ ذلك أنَّهم اسْتَغْرقُوا شَطْراً كبيراً من أيَّامهم في تَثْبيت مُلكهم، وأنَّهم كانُوا

يَرُومونَ تَرْسيخَ سُلْطانِهم بعدَ أنْ رَدَعُوا خُصُومَهم، واسْتَرْجَعُوا سَائِرَ الأمْصَار منهم.

« الفَصلُ الخَامِسُ »

« المَرْوَانِيُّونَ المُتَوَسِّطُونَ »

(١) « افْتِتاحُ سُليمانَ لِلْمُوَادَعةِ والمُصَالحةِ »

كان سليمانُ بن عبدِ الملك على النَّقِيضِ من أخيه الوليد في اليُسْرِ والسَّماحةِ. ويمثلُ عَهْدُهُ بِداية مَرْحَلةِ الانْفِراجِ، والتَّحَوُّلِ من التَّجبُّر والقَهْرِ والبَطْشِ، إلى التَّواضُعِ والعَدْلِ والمُسَالمةِ. وقد بَيَّنَ خُطَّتَه في الحُكْمِ في خطبته التي خطبها بعد أن استُخْلِف، فقد دَعا فيها الناس إلى الوَرعِ والرُّجوع إلى القرآن الكريم والالتزام له دونَ تَهْديدٍ لهم أو استهانةٍ بهم، إذ يقول [١] : « اتَّخذُوا كتابَ الله إماماً، وارْضَوْا به حَكماً، واجْعَلُوهُ لكم قائداً، فإنه ناسخٌ لما قَبْله، ولن يَنْسَخَهُ كتابٌ بَعْدَهُ ».

وقَرَّبَ العلماءَ والفُقهاءَ، وأخذَ يَسْتَضيءُ بأفكارهم، ويَصْدُرُ عن آرائهم، ومنهم رَجَاءُ بنَ حَيْوَةَ الكندي، فَقِيهُ أهْلِ الشام، قال ابن عبد الحكم [٢] : « كان من أعْبَدِ أهلِ زمانه، وكان مَرْضِيًّا حكيماً ذا أناةٍ ووقار، وكانت الخلفاءَ تَعْرِفُهُ بِفَضْلِه، فَيَتَّخِذُونَهُ وزيراً ومُسْتشاراً، وَقيِّماً على عُمَّالهم وأولادهم، وكانت له من الخَاصَّةِ والمَنْزِلةِ عندَ سليمان بن عبد الملك ما ليسَ لأحدٍ، يَثِقُ به، ويَسْتَرِيحُ إليه »، وقال اليعقوبي [٣] : إنه كان غالباً عليه.

---

(١) أنساب الأشراف المخطوط ٢ : ١٢١، وانظر الخطبة في البيان والتبيين ١ : ٢٤٤، والعقد الفريد ٤ : ٩١، ومروج الذهب ٣ : ١٨٤، والعيون والحدائق ٣ : ٣٥، والبداية والنهاية ٩ : ١٧٩.

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز ص : ١٣٩.

(٣) تاريخ اليعقوبي ٢ : ٢٩، وانظر تهذيب تاريخ ابن عساكر ٥ : ٣٧١، ووفيات الأعيان ٢ : ٣٠٢، والبداية والنهاية ٩ : ١٨١، ٣٠٤، والنجوم الزاهرة ١ : ٢٧١، وشذرات الذهب ١ : ١٤٥.

وعندما حَجَّ سنةَ سبعٍ وتسعينَ بحثَ عن المُعَمَّرِينَ من كبار التَّابعين وخِيارهم من أهل الأمصار المختلفة، وسألهم عن آرائهم في خلافة بني أمية وسيرتهم، وعَمَّا تَصْلُحُ به أمورُ الناس وتَسْتَقيمُ، فلقي أبا حازمٍ سَلَمَةَ بن دينارٍ مَوْلَى بني مخزومٍ، وكان عالمَ المدينةِ وزاهدَها وواعظَها [1]، فرغب إليه أنْ يَصْدُقَهُ الرَّأْيَ والقَوْلَ في خلافة بني أمية، وأنْ يُصْفِيَهُ النُّصْحَ والمشورةَ فيما يَنْبغي له أن يَتمسَّكَ به في حُكْمِ المسلمين، وسأله أنْ يَشْخَصَ معه إلى دمشق، فَيُرافِقَهُ ويكونَ من خاصَّتهُ يُساعِدُه ويُرْشِدُه، فأَبَى وامْتَنَع. ومما قاله أبو حازمٍ لسليمان مُقَوِّماً سيرةَ خُلَفاءِ بني أمية ومُمَارساتهم السياسية والمالية، ومُبَصِّراً له وهَادِياً [2]: « ما أقول في سُلْطَانٍ اسْتَوْلَى عَنْوةً بلا مَشُورةٍ من المؤمنين ولا اجتماع من المسلمين، فَسُفِكَتْ فيه الدماء الحرام، وقُطِّعَتْ به الأرحام، وعُطِّلَتْ به الحُدودُ، ونكِثَتْ به العُهُود. وكل ذلك على تَنْفِيذِ الطِّينة، والجَمْعِ لِمتاعِ الدنيا المَشِينة، ثم لم يَلْبَثُوا أن ارْتَحلُوا عنها، فيا لَيْتَ شعري ما تقولون ؟ وماذا يُقَالُ لكم ؟ فقال بعض جلسائه : بئسَ ما قلت يا أَقْوَرُ ! أميرُ المؤمنين يُسْتَقْبَلُ بهذا ؟ فقال أبو حازم : اسكُتْ يا كاذب، فإنما أهلَك فرعونُ ما هانَ، وما هانُ فروعونَ، إنَّ الله قد أخذ على العلماء لَيُبَيِّنُنَّهُ للناس ولا يَكْتُمونَه، أي لا يَنْبُذُونَهُ وراءَ ظُهُورهم. قال سليمان : يا أبا حازم : كيف لنا أن نُصْلِحَ ما فَسَدَ منا ؟ فقال : المَأْخَذُ في ذلك قريبٌ بسيرٌ يا أمير المؤمنين، فاستَوَى سليمانُ جالساً من اتِّكائِه، فقال : كيف ذلك ؟ فقال : تأْخُذُ المالَ من حِلِّهِ، وتَضَعَهُ في أهْلِهِ، وتكفُّ

---

(١) طبقات خليفة بن خياط ص : ٢٥٩، والمعارف ص : ٤٧٩، والبداية والنهاية ١٠ : ٧٥، وتهذيب التهذيب ٢ : ٨٨، وشذرات الذهب ١ : ٢٠٨.

(٢) الإمامة والسياسة ٢ : ١٠٦، وحلية الأولياء ٣ : ٢٣٥، ووفيات الأعيان ٢ : ٤٢٢، وبعض نُصْحِ أبي حازم لسليمان في العقد الفريد ٣ : ١٦٣، ومروج الذهب ٣ : ١٨٧، وتذكرة الحفاظ ١ : ١٣٣.

الأكُفَّ عما نُهِيَتْ، وتُمْضِيها فيما أُمِرَتْ به. قال سليمان : ومَنْ يُطِيقُ ذلك ؟ فقال أبو حازم : مَنْ هَرَبَ من النار إلى الجنة، ونَبذَ سُوءَ العادةِ إلى خَيْرِ العبادة. فقال سليمان : اصْحَبْنَا يا أبا حازم، وتَوَجَّهْ معنا، تُصِبْ منا ونُصِبْ منك، قال أبو حازم : أعوذ بالله من ذلك ! قال سليمان : ولِمَ يا أبا حازم ؟ قال : أخافُ أنْ أرْكنَ إلى الذين ظلموا، فَيُذيقَني اللهُ ضَعْفَ الحياة وضَعْفَ المَماتِ : فقال سليمان : فَتَزُورُنا ؟ قال أبو حازمٍ : إنا عَهِدْنَا الملوكَ يأتونَ العلماءَ، ولم يكن العلماءُ يأتونَ المُلوكَ، فصارَ في ذلكَ صَلاحُ الفَرِيقين، ثم صِرْنَا الآن في زمانٍ صار العلماءُ يأتونَ الملوكَ، والملوك تَقْعَدُ عن العلماء، فصار في ذلك فَسَادُ الفريقين جميعاً » !!

وهل أقوَى تَنْديداً بِعُيوب بني أمية وَمَثالبهم، وأدَقُّ تَسْدِيداً لسياستهم من قَوْلِ أبي حازمٍ ؟ وهل أحْسَنُ استماعاً، وأجْمَلُ تواضعاً، وأصْدَقُ خُضوعاً لِقَوْلِ الحَقِّ من سليمان ؟

ولقيَ سليمانُ بمكة أيضاً طاوُوسَ بن كَيْسان الهَمْدانيَّ، فَقِيهَ أهلِ اليمن وعالمهم [1]. وقد أشارَ طاووسٌ إلى شِدَّةِ الخلفاءِ الأمويين السَّابقين وقَسْوَتهم، وما ارْتُكِبَ في أيامهم من المُخالفاتِ السِّياسية والمالية، ونَهى سليمان عن المُضيِّ في طريقهم، ودَعاهُ إلى الرِّفْقِ بالناس وإنْصافِهم، والابتعاد عن ظُلْمِهم، وحَذَّرَهُ عَذاب النار، فوَسِعَهُ سليمانُ وأجَّلَهُ، وكان يَسْتَزِيدُه كلما سَكَت، قال رجاء بن حيوة الكندي : قال طاووس في مجلس سليمان [2]: « أتَعْلَمُونَ مَنْ أبْغَضُ الخَلْقِ إلى الله ؟ قلنا : لا،

(١) انظر ترجمته في طبقات ابن سعد ٥ : ٥٣٧، وطبقات خليفة بن خياط ص : ٧٣٢، وطبقات الفقهاء للشيرازي ص : ٧٣، وتذكرة الحفاظ ١ : ٩٠، والبداية والنهاية ٩ : ٢٣٤، وتهذيب التهذيب ٥ : ٨، ووفيات الأعيان ٢ : ٥٠٩، وشذرات الذهب ١ : ١٣٣.

(٢) الإمامة والسياسة ٢ : ١٠٥، وانظر البداية والنهاية ٩ : ٢٣٧.

فقال : إن أبْغَضَ الخَلْقِ إلى الله تعالى عَبْدٌ أشْرَكَهُ الله في سلطانه فعمل فيه بِمَعاصِيه، ثم نَهَض. قال رجاء : فأظلم عَلَيَّ البيت، فما زلت خائفاً عليه حتَّى تَوارَى، فرأيتُ سليمانَ يَحُكُّ رأسَهُ بيده، حتى خشيتُ أنْ تَجْرَح أظفارهُ لحمَ رأسه » ! ورَوَى الزُّهري [١] : « أنَّ سليمان رأى رجلاً يَطُوفُ بالبيت، له جمالٌ وكمالٌ، فقال : من هذا يا زهري ؟ فقلت : هذا طاووس، وقد أدرك عدةً من الصحابة. فأرسل إليه سليمان فأتاه، فقال : لوما حَدَّثْتَنا ؟ فقال : حَدَّثَني أبو موسى قال : قال رسول الله ﷺ : « إنَّ أهْوَنَ الخَلْقِ على الله عزَّ وجل مَنْ وَلِيَ من أمور المسلمين شيئاً فلم يَعْدِلْ فيهم ». فَتَغَيَّرَ وَجْهُ سليمان، فأطْرَق طويلاً، ثم رفع رأسه إليه فقال : لو ما حَدَّثْتَنا ؟ فقال : حدثني رجل من أصحاب النبي ﷺ، قال ابن شهاب : ظننت أنه أراد علياً، قال : دعاني رسول الله ﷺ إلى طعام في مجلس من مجالس قريش ثم قال : « إنَّ لكم على قريش حقاً، ولهم على الناس حق، ما إذا استُرْحِمُوا رَحِمُوا، وإذا حَكَمُوا عَدَلُوا. وإذا أُتُمِنُوا أدَّوْا، فمن لم يَفْعَلْ فعليه لعْنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه صَرْفاً [٢] ولا عَدْلا [٣] ». قال : فَتَغَيَّرَ وَجْهُ سليمان، وأطْرَقَ طويلاً، ثم رَفَعَ رأسَهُ إليه وقال : لو ما حَدَّثتنا ؟ فقال : حدثني ابن عباس أنَّ آخر آيةٍ نزلت من كتاب الله : « واتَّقوا يوماً ترجعونَ فيه إلى الله ثم تُوَفَّى كلُّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ وهم لا يُظْلَمُون » !

وهذا نَمطٌ جديدٌ في الحِرْص على مُقَابَلةِ الصُّلَحاء والأتقياءِ للإفادة من عِلْمِهم، والانْتِفَاعِ بآرائهم ! وهو نَمَطٌ جديدٌ أيضاً في الاسْتِكانةِ لهم،

---

(١) البداية والنهاية ٩ : ٢٣٧، وانظر حلية الأولياء ٤ : ١٥.

(٢) الصَّرف : التوبة.

(٣) العدل : الفداء.

والإغْضَاءِ على تَعْرِيضهم، والصَّمْتِ عن نَقْدِهم، مهما يَبْلُغْ من الوُضوحِ والقُوَّة !

واتَّخَذَ سليمانُ عمر بَن عبد العزيز مُسْتشاراً له ووزيراً، فكان يُمْضي رَأْيَهُ ويُنْفِذُه في أكثر ما يُرْفَعُ إليه من القضايا(1)، قال سعيد بن عبد العزيز(2) : « إن سليمان ولي وهو إلى الشَّبابِ والتَّرَفِ ما هو، فقال لعمر بن عبد العزيز : يا أبا حَفْصٍ، إنا قد وَلِينَا ما تَرَى، ولم يكن لنا بِتَدْبيرِه عِلْمٌ، فما رأيت من مَصْلَحةِ العَامَّة فَمُرْ به يُكْتَبْ، فكان من ذلك عَزْلُ عُمَّالِ الحجاج، وإخْراجُ من في سُجُونِ العراق، وكان يسمعُ من عمر بن عبد العزيز جميعَ ما يَأْمُرُهُ به ».

وامْتَنَعَ سليمانُ عن التَّضْييقِ على خُصوم بني أمية وسَالَمَهم، فتَغافَلَ عن الخوارج واقْتَصَرَ على سَجْن من يَسُبُّون الخلفاء منهم(3)، إذ كان يَسْتَشِيرُ عمرَ بن عبد العزيز في أمرهم، ويَسْتَجيبُ لِحُكْمِهِ فيهم، وكان عمر يقول له(4) : « أمَّا إذْ سَأَلْتني فلا أعْلَمُ سَبَّةً أحَلَّتْ دَمَ مُسْلمٍ إلَّا سَبَّةَ نَبِيٍّ »، وكان يقول له(5) : « ضَمِّنْهُم الحَبْسَ حتى يُحْدِثُوا تَوْبَةً ». ويُنْسَبُ إليه أنه كان يقتلُ الخوارجَ، ويبدو أنَّ ذلك من وَهْم الرُّواة، لأنهم يَخْلِطُون بين أخباره وأخبار أخيه الوليد، ويَنْحَلُونَهُ بعضَها، فإن الرِّواياتِ التي تُشِيرُ إلى قَتْلِهِ للخوارج(6) هي الرِّواياتُ نَفْسُها التي تَتَحدَّثُ عن قَتْلِ الوليد

(1) البداية والنهاية ٩ : ١٧٧، وتاريخ الخلفاء ص : ٢٢٥، وشذرات الذهب ١ : ١١٦.

(2) فوات الوفيات ٢ : ٦٩، والبداية والنهاية ٩ : ١٧٨، وانظر شذرات الذهب ١ : ١١٦.

(3) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم ص : ١٣١.

(4) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم ص : ١٣٢، وانظر طبقات ابن سعد ٥ : ٣٦٩.

(5) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص : ٣٠، وتاريخ الخلفاء ص : ٢٤٠.

(6) تهذيب تاريخ ابن عساكر ٥ : ٣٧، وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص : ٣٠، وتاريخ الخلفاء ص : ٢٤٠.

لهم[1] !! ولكن وُلاتَهُ من المهالبة ظلوا يُحَارِبُون الخوارج بالبصرة، ويَقْضُون على المُتَمرِّدِينَ منهم[2].

وسكتَ عن العلويين وشيعتهم، وليس من الثابت أنه تَحامَى أبا هاشمٍ عبد الله بن محمد بن الحنفية، وأَرْصَدَ له من سَمَّه، فإنَّ بعضَ الروايات الشِّيعيةِ والعبَّاسيَّة هي التي تَقْطَعُ بذلك[3]، وأمَّا أكثر الروايات الأمويَّةِ والشيعيَّةِ والعَباسِيَّةِ فإنها تَدلُّ على أنه توفي حتف أنفه[4]. وذكر صاحب أخبار الدولة العباسية ما وقع من اختلافٍ وتحريفٍ في موت أبي هاشمٍ، ونَفَى أنْ يكون مات مسموماً، إذ يقول[5]: « زعم بعض الناس أنَّ سَبَبَ موتِ أبي هاشمٍ كان أنَّ الوليد دس إليه حين شَخَصَ عن دمشق من سَقَاهُ شربةَ لبن مسموم، فكان موته بذلك. ولم يذكر ذلك إسحاق بن الفضل ولا غيره ممن كان يُخْبِرُ أمرَهُ. وذكر أنه مات كمداً لِمَا رأى من استخفافِ الوليد بأمره ».

ورَدَّ سليمانُ عليَّ بنَ عبد الله بن عباس من مَنْفاهُ بالحُمَيْمَةِ إلى دمشق، ولَطَفَ به[6]. وأطلق سَراحَ المسجونين، وعفَا عن سائر المَنْفِيِّينَ، قال البلاذري[7]: « كان جميلَ المَذْهَبِ، حَسَنَ السِّيرةِ، أخرجَ المُحَبَّسِينَ،

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم ص : ١٣٦، والبداية والنهاية ٩ : ١٣٥.

(٢) أنساب الأشراف المخطوط ٢ : ١٢٧، ١٢٨، والعيون والحدائق ٣ : ٣٦.

(٣) تاريخ اليعقوبي ٢ : ٢٩٧، والعقد الفريد ٤ : ٤٧٥، ووفيات الأعيان ٤ : ١٨٨.

(٤) طبقات ابن سعد ٥ : ٣٢٨، والمعارف ص : ٢١٧، وأنساب الأشراف ٣ : ٨٠، وأخبار الدولة العباسية ص : ١٦٧، ١٧٣، ١٨٣، ومقاتل الطالبيين ص : ١٥٩، ووفيات الأعيان ٤ : ١٨٧.

(٥) أخبار الدولة العباسية ص : ١٨٨.

(٦) أنساب الأشراف ٣ : ٧٨، والكامل في التاريخ ٥ : ٢٥٧.

(٧) أنساب الأشراف المخطوط ٢ : ١١٩، وانظر العيون والحدائق ٣ : ١٧.

ورَدَّ المُسَيَّرِينَ، وأنْصَفَ من الظالم »، وقال المدائني [1] : « كان الناس يقولون : سليمان مفتاح الخير، ذَهَبَ عنهم الحجاج، فَوَلِيَ سليمان، فأطْلَقَ الأسارى، وخَلَّى أهلَ السُّجُون، وأحْسَنَ إلى الناس، واسْتَخْلَفَ عمرَ بن عبد العزيز ».

وكان لسليمان خُؤولةٌ في قَيْسٍ، إذ كانت أُمُّهُ من عَبْسٍ [2]، ومع ذلك فإنّه حَدَّ من نُفوذِ القَيْسِيَّةِ، لأنهم وافقوا أخاه الوليد على خَلْعِهِ مِن ولاية العَهْد [3]، ولأنهم استَغلُّوا سُلْطَانَهم، فاسْتَطَالُوا على اليمانيةِ وأساءُوا إليهم، وتَسَلَّطُوا عليهم، فَعَزَل من بَقِيَ من عُمَّالِ الحجاج، وحاسَبَهم، واقْتَصَّ للناس منهم [4]، وقَسَمَ الوَظائفَ بين القَيْسِيَّة واليَمانِيَّة [5]، وأعادَ للمهالبة ما فَقَدُوهُ من مكانةٍ ونَباهةٍ، وراقَبَ وُلاتَه مُراقَبةً دقيقةً، ولم يكن يُمْهِلُهم إذا جَارُوا في الحكم، بل كان يَفْصِلُهم ويُعَاقِبُهم [6].

(١) تاريخ الطبري ٦ : ٥٤٦، وانظر العقد الفريد ٤ : ٤٢٥، والكامل في التاريخ ٥ : ٣٧، ووفيات الأعيان ٢ : ٤٢٠، وفوات الوفيات ٢ : ٧٠، والبداية والنهاية ٩ : ١٧٨.

(٢) كانت ولادة بنت العباس بن جزء بن الحارث بن زهير بن جذيمة العبسي إحدى أزواج عبد الملك بن مروان، وهي أم الوليد وسليمان وعائشة. انظر نسب قريش ص : ١٦٢، وأنساب الأشراف المخطوط ١ : ١١٦٠، وتاريخ الطبري ٦ : ٤١٩، والعقد الفريد ٤ : ٤٢٠، وجمهرة أنساب العرب ص : ٩١، والكامل في التاريخ ٤ : ٥١٩، ووفيات الأعيان ٢ : ٤٢٠، والبداية والنهاية ٩: ١٦١.

(٣) الطبري ٦ : ٤٩٨، ٥٠٦، والعقد الفريد ٤ : ٤٢٣، والعيون والحدائق ٣ : ١٧، والكامل في التاريخ ٥ : ١٢، والبداية والنهاية ٩ : ١٦٦.

(٤) أنساب الأشراف المخطوط ٢ : ١٢٢، ١٢٥، وتاريخ اليعقوبي ٢ : ٢٩٤، وتاريخ الطبري ٦ : ٥٠٧، ٥٦٤، والعقد الفريد ٤ : ٤٢٧، ومروج الذهب ٣ : ١٨٦، والإمامة والسياسة ٢ : ٩١، والكامل في التاريخ ٥ : ١١.

(٥) تاريخ خليفة بن خياط ص : ٤٢٨ ــ ٤٣٢.

(٦) تاريخ اليعقوبي ٢ : ٢٩٤، وتاريخ الطبري ٦ : ٥٢٢، ٥٢٩، والعقد الفريد ٣ : ٤٢٨، والأغاني ٢٢ : ١٩، ومروج الذهب ٣ : ١٩٠، والكامل في التاريخ ٥ : ١١.

وقد تَبيَّنَ الناسُ محاسنَ سياسة سليمان، وما عَمَّهُمْ في أيامِه من أمْنٍ وطمأنينةٍ، وما تَحققَ لهم من حرية التَّفْكِير والتَّعْبيرِ عن آرائهم، فَلَهِجَ سادتهم بذلك في مجالسه، ونوَّهُوا به، وكانوا قبلَ ذلك يُدَارُونَ الخلفاء ويُدَاهِنُونَهم، لأنهم كانوا يَرْهَبُونهم، وكانوا يُحْجِمُون عن التَّصْريح بمساوئهم، والإفْصَاحِ عن مساوىء عُمَّالهم، لأنهم كانوا يخافُونَ أنْ يقتلوهم، روى ابن الكلبي[1]: « أنَّ قَوْماً وفدوا إلى سليمان فقال مُتَكلِّمُهم : إنا والله ما أتيناك رَغْبةً ولا رَهْبةً، أما الرَّغْبَةُ فدخلت علينا مَنازِلنا، وأمَّا الرَّهْبَةُ فآمَنَنَاها فَضْلُكَ وعَدْلُكَ. ولقد حَبَّبْتَ إلينا الحياةَ، وهَوَّنْتَ علينا الموت، لأنَّا نَثِقُ بإحْسَانِكَ لأنْفُسِنا، ونَرْجُوكَ لمن يَخْلُفُ بَعْدَنا من أعْقَابنا، فأحْسِنْ صِلَتَهم والنَّظَرَ إليهم ».

وتُلْغي رواياتٌ قليلة مآثِرَ سليمان ومَحامِدَه إلْغاءً، وتُخْفي مَساعِيَهُ السياسيةَ والعسكريةَ إخْفاءً، إذ تجعلُ طَلَبَ اللَّذةِ والتَّهالكَ عليها مِحْورَ شخصيَّتِه وحَياتِهِ، وأهمَّ ما عُنِيَ به الناسُ في عصره، قالوا[2]: « وَلِيَ سليمان فكان صاحبَ نِكاحٍ وطَعامٍ، فكان الناس يتلاقون فيسألون عن التَّزْويجِ والجَواري والطَّعام » ! وأشار بعض الأخباريين والمؤرخين إلى نَهَمِ سليمان وأنه كان أكُولاً، وذَكرُوا في ذلك رواياتٍ غَرِيبةً[3]، ويبدو

(١) أنساب الأشراف المخطوط ٢ : ١٢٣.

(٢) أنساب الأشراف المخطوط ٢ : ١٠٨، وتاريخ الطبري ٦ : ٤٩٧، والعيون والحدائق ٣ : ١١، والكامل في التاريخ ٥ : ١٠، والبداية والنهاية ٩ : ١٦٥، ٢٠٧.

(٣) أنساب الأشراف المخطوط ٢ : ١٢٣ ـــ ١٢٤، والعقد الفريد ٤ : ٤٣١، وفوات الوفيات ٢ : ٦٩، والبداية والنهاية ٩ : ١٨٠، وتاريخ الخلفاء ص : ٢٢٦.

أنهم تأثَّروا برَأي المنصور فيه وحُكْمِهِ عليه، فقد زعم أنَّ هَمَّه كان بَطْنَهُ وفَرْجَه [1]!

وتَنَبَّهَ بعضُ المؤَرِّخينَ للتَّغَيُّرِ الذي طرأ في أيام سليمان، وما امتازتْ به سياستُهُ ومواقفُهُ العملية من خصائص، وهو يَبْدُو عندهم في أمريْنِ : الأول إيثارُ السَّلامةِ والعافية. والنُّزوعُ إلى المُوادعة والأخْذُ برأي أهْلِ العِلْمِ والفَضْلِ، قال المسعودي [2]: « كان سليمانُ لَيِّنَ الجانب، لَا يَعْجَلُ إلى سَفْكِ الدماء، ولا يَسْتَنْكِفُ عن مَشُورةِ النُّصحاء ». والثاني اسْتِلْهَام المبادىء والأحكام الإسلامية، والتَّمسُّكُ بها، والجدُّ في تَنْفيذها، قال ابن كثير [3] : « كان يرجع إلى دينٍ وخَيْرٍ ومَحَبَّةٍ للحقِ وأهْلِه، واتِّباعِ القرآنِ والسُّنَّةِ، وإحياءِ الشَّرائعِ الإسْلامية ».

(٢) « تَوَسُّعُ عُمَر في المُشاورةِ والمُناظرةِ »

وعزمَ عمرُ بنُ عبد العزيزِ على أنْ يَعْمَلَ بالكتابِ والسنةِ، وأنْ يسيرَ في الناس بسيرةِ عمر بن الخطاب [4]. وشرح منهجه في خُطَبِهِ وكُتُبه التي تَنْبَثُّ في مصادر ترجمته وكُتُبِ سيرته، وشَفَعَ ذلك باختيار عُمَّاله وسائر موظفيه

---

(١) أنساب الأشراف المخطوط ٢ : ٢٤١، وانظر رسائل الجاحظ للسندوبي ص : ٨٩، وشرح نهج البلاغة ١٥ : ٢٥٣.

(٢) التنبيه والأشراف ص : ٢٧٥.

(٣) البداية والنهاية ٩ : ١٨٣.

(٤) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص : ١٠٦.

من أهل الصَّلاح والخِبْرة[1]، قال المسعودي[2]: « كان عمر في غاية النُّسْكِ والتَّواضُع، فصَرَفَ عُمَّالَ من كان قَبْلَهُ من بني أمية، واسْتَعْمَلَ أصْلَحَ من قَدِرَ عليه، فَسَلَكَ عُمَّالُه طريقته ».

وبذلك زَالَ الازْدِوَاج بين النَّظريَّةِ والتَّطْبيق، وبلغ التَّيارُ الإسلامي الأَوْج. وتَأَصَّلَ الاتِّجاهُ السِّلميُّ، إذ أغْمَدَ عُمَر السَّيْفَ ونَحَّاه، ونَبَذَ أسْلوبُ العُنْفِ وتَجاوَزَهُ، وَوَسِعَ خُصومَ بني أمية، وصَبَرَ عليهم صَبْراً طويلاً، إلَّا أنْ يَرْفُضُوا خُطَّتَه الإصلاحية، ويَشْهَرُوا السُّيوف عليه، فإنه كان يَأذَنُ لعُمَّالِه في مقاتلتهم.

وبَرَزَ في الحياة الفكريَّةِ السِّياسيَّةِ في زمانه ظاهرتان متكاملتان : الأُولى مُشَاوَرةُ الأتقياء ممن لهم مَعْرِفَةٌ وحُنْكَةٌ، وقَطْعُ الأمور بر أيهم، فكان عَهْدُهُ عَهْدَ العُلماء والفُقهاء. وحَفَظ ابنُ الجوزي أكثر رسائله التي بعث بها إلى كبار التَّابعين من أهل الأمصار المختلفة يستشيرهم في شُؤُون المسلمين، ويَطْلُبُ نُصْحَهم، وحفظ أيضاً رُدُودَهم عليه ومَواعِظَهم له. ومنهم من أهل المدينة سالم بن عبدالله بن عمر بن الخطاب[3]، ومحمد بن كَعْب القُرظي[4]، ومَوْلَاه سالم[5]، وأبو حازم سلمة بن دينار مولى بني مخزوم[6]،

---

(١) طبقات ابن سعد ٥ : ٣٤١، وتاريخ خليفة بن خياط ص : ٤٦٣ ــ ٤٦٩، وتاريخ اليعقوبي ٢ : ٣٠٨ ــ ٣٠٩.

(٢) مروج الذهب ٣ : ١٩٣.

(٣) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص : ١٠٥ ــ ١١٠.

(٤) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص : ١١١ ــ ١١٣.

(٥) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص : ١١٦.

(٦) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص : ١١٣.

ومن أهْلِ البصرةِ الحسن البصري [1]، وخالد بن صَفْوان المِنْقَريُّ التَّميميُّ [2]، ومنهم من أهل الكوفة ثم من أهل الشام القاسم بن مُخَيْمِرَةَ الهمداني [3]، ومن أهْلِ اليمن طاوُوسُ بن كَيْسان الهَمْداني [4]، ومن أهْلِ الجزيرةِ الفراتية مَيْمُونُ بن مَهْران مولى الأزد [5]، ومن أهْلِ الشَّامِ رجاءُ بن حَيْوَةَ الكندي [6].

وقد عابوا على الخلفاء الأمويين السابقين تسرُّعَهم في قَتْلِ المسلمين المُعارضين بغير حقٍ، وإسرَافَهم في جَمْعِ الأموال وتَصرُّفَهم فيها، وألحُّوا عليه أن يُعَاقِبَ المُذْنِبينَ على قَدْرِ ذُنوبهم، وأن يأخُذَ المالَ من حِلِّه ويَضَعَهُ في أهْلِه، وأنْ يَعْدِلَ بين الناس في الحُكْم.

والظاهرة الثانية مناقشة الخُصُوم ومُحاوَرتهم، والاجتهاد في إقناعهم بالحُجَّة البيِّنة، والسَّعْيُ إلى استْمالةِ أفئدتهم، واستْخراجِ مَودَّتهم بالحِكْمة والمَوْعظة الحَسَنَة. وقد وصفه البغدادي بأنه « أوَّلُ مُتَكلِّمي أهل السُّنَّة [7] »، ونَظَمه القاضي عبد الجبار في القَدرِيَّة [8]، وجعله ابن المرتضى « مِمَّن قال بالعَدْلِ من الخلفاء [9] ».

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص : ١٠٠ — ١٠٤.

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص : ١١٣ — ١١٥.

(٣) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص : ١١٣.

(٤) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص : ١٠٥، وانظر مروج الذهب ٣ : ١٩٤.

(٥) طبقات ابن سعد ٥ : ٣٩٤، ٣٩٥.

(٦) طبقات ابن سعد ٥ : ٣٩٥، وانظر تاريخ اليعقوبي ٢ : ٣٠٨.

(٧) الفرق بين الفرق ص : ٢٢٠.

(٨) فضل الاعتزال ص : ٣٣٩.

(٩) طبقات المعتزلة ص : ١٢٠.

أما الهاشميون من العلويين والعباسيين فيبدو أنه لم يُجَادِلْهُم، ولكنه أمَرَ بالإقْلاع عن إزْعاجهم، والكفِّ عن النَّيْلِ من علي بن أبي طالب، قال المسعودي [(١)]: « تَرَكَ لَعْنَ عليٍّ عليه السلام على المنابر، وجعل مكانه : « ربنا اغْفِرْ لنا ولإخواننا الذين سَبَقُونا بالإيمان، ولا تجعلْ في قلوبنا غِلًّا للذين آمنوا، رَبَّنا إنك غَفُورٌ رحيمٌ »، وقيل : بل جعل مكان ذلك : « إن اللهَ يأمُر بالعَدْلِ والإحسانِ وإيتاءِ ذي القُرْبَى ويَنْهَى عن الفَحْشاءِ والمُنْكَرِ والبَغْي » الآية، وقيل : بل جعلهما جميعاً، فاستعمل الناس ذلك في الخطبة إلى هذه الغاية ». وشَدَّدَ على عُمَّالِه في ذلك، وتَوَعَّد من يذُمُّ علياً منهم، روى المدائني [(٢)]: « أنَّ عَدِيَّ بنَ أرطاة خطب فَشَتَمَ علياً ولَعَنَهُ، فكتب الحسنُ [البصري] بذلك إلى عمر، فكتب عمر إلى عدي : بلغني عنك أنك شتمتَ علياً ولَعَنْتَهُ. ولَبِئْسَ الرجل أنت إن فعلتَ ذلك وأقدمتَ عليه، فَقَبَّحَكَ اللهُ وتَرَّحَكَ، وأنا أقسمُ لئن عُدْتَ لِمِثْلِها لأُنهِكَنَّكَ عُقوبةً، ولأُسِيئَنَّ عَزْلَكَ. فأمْسَكَ عَدِيٌّ ».

وقَسَمَ بين الهاشميين سَهْمَ ذي القُرْبَى، فَحسُنَتْ حالُهم واسْتَقَامَتْ، فكتبت إليه فاطمة بنت الحسين بن علي بن أبي طالب تُثْني على صَنِيعِه وتَشكُرُهُ [(٣)]، فَسُرَّ بذلك « وكَتَبَ إليها بكتابٍ يَذْكُرُ فَضْلَها وفَضْلَ أهل بيتها، ويذكرُ ما أوْجَبَ اللهُ لهم من الحق [(٤)] »، وأخذ سادةُ الهاشميين

---

(١) مروج الذهب ٣ : ١٩٣، وانظر طبقات ابن سعد ٥ : ٢٩٣، وتاريخ اليعقوبي ٢ : ٣٠٥، والعيون والحدائق ٣ : ٦٢، وشرح نهج البلاغة ٤ : ٥٩، والكامل في التاريخ ٥ : ٤٢، والبداية والنهاية ٩ : ١٩٣، وتاريخ الخلفاء ص : ٢٤٢، وانظر قول الجاحظ في ذلك في رسائل الجاحظ للسندوبي ص : ٩١، وشرح نهج البلاغة ١٥ : ٢٥٦.

(٢) أنساب الأشراف المخطوط ٢ : ١٤٥.

(٣) طبقات ابن سعد ٥ ٣٩٠.

(٤) . طبقات ابن سعد ٥ : ٣٩١.

يُشِيدُونَ به، ويُدَافِعُون عنه، قال الواقدي : حَدَّثني إسماعيل بن عبد الملك عن يحيى بن شِبْلٍ قال [1] : « جَلَسْتُ مع علي بن عبدالله بن عباس، وأبي جَعْفرٍ محمد بن عليٍّ، فجاءهما آتٍ فَوقَعَ بعمر بن عبد العزيز، فَنَهَياهُ وقالا : ما قُسِمَ علينا خُمْسٌ منذ زَمنِ معاوية إلى اليوم، وإنَّ عمر بن عبد العزيز قَسَمَهُ على بني عبد المطلب، فقلت : فهل أعْطَى بني المطلب ؟ فقالا : ما جَاوَزَ به بني عبد المطلب [2] ».

وأمَّا القَدريَّةُ فَجادَلهم كثيراً، وقد بقيت نُصُوصٌ قليلةٌ من مُجَادلاته لهم [3]. وأقَرَّ غَيْلانُ الدمشقيُّ بِقُدْرةِ عمرَ على الحِجاج والإقناع [4]، وقال له [5]: « لقد كنتُ ضالًّا فَهديتني ». وتَوقَّفَ في أيامه عن الكلامِ على حُرِّيةِ الإرادةِ الإنسانية، وانتقادِ السياسةِ الأمويةِ، لأنه رَآهُ يُلْغي التَّناقُضَ بين القَوْلِ والعَملِ، ويُصَحِّحُ أخطاءَ أقاربهِ، ويُعْطي الناسَ حُقُوقَهم، ويُردُّ عليهم مَظالِمَهم، ويَنْتَصِفُ لهم، ويُقِيمُ العَدْلَ بينَهم.

وذكر البغداديُّ أنَّ لعمرَ رسالةً بليغةً في الرَّدِّ على القدريَّةِ [6]، ولكنه لم يَنْقُلْ شيئاً منها، وأشارَ ابنُ الجزريِّ إليها، ونَصَّ على أنه قد شَابَها غير قليلٍ

---

(١) طبقات ابن سعد ٥ : ٣٩١.

(٢) كان عمر يرى أنَّ بني المطلب هم من بني هاشم، وقد كُتِبَ إليه فيهم، فأمر أن يُعْطَوا مثل غيرهم من بني هاشم. (انظر طبقات ابن سعد ٥ : ٣٩١).

(٣) انظر التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع، للملطي ص : ١٦٧، وتهذيب تاريخ ابن عساكر ٦ : ٣٧١.

(٤) التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع، للملطي ص : ١٦٨.

(٥) تاريخ الخلفاء ص : ٢٤٣، وانظر تهذيب تاريخ ابن عساكر ٦ : ٣٦٩، والكامل في التاريخ ٥ : ٢٦٣.

(٦) الفرق بين الفرق ص : ٢٢٠.

من التَّحريف، إذ يقول [1]: « هذه رسالةٌ مَرْوِيَّةٌ عن عمر بن عبد العزيز في الأُصُولِ، وَجَدْتُ أكثرَ كلماتِها لم تَضْبِطْها النَّقَلَةُ على الصِّحةِ، فانْتَقَيْتُ منها كلماتٍ صالحةً ». ثم أثبتَ قِطْعةً صغيرةً منها [2].

وهي رسالةٌ طويلةٌ، وقد حَفِظَها أبو نعيم الأصبهانيُّ بِرُمَّتها، وهي وَثِيقةٌ مُهِمَّةٌ، وهي تَجْري على هذا النَّحْوِ [3]: « أما بَعْدُ، فإنكم كَتبتُمْ إليَّ بما كنتم تَستَّرُونَ منه قَبْلَ اليومِ في رَدِّ عِلْمِ اللهِ، والخروجِ منه إلى ما كان رسولُ اللهِ ﷺ يَتخوَّفُ على أُمَّتِه من التكذيبِ بالقَدرِ. وقد علمتم أنَّ أهْلَ السُّنةِ كانوا يقولون : الاعْتِصامُ بالسُّنةِ نجاةٌ، وسَيُقْبَضُ العِلْمُ قَبْضاً سريعاً، وقول عمر بن الخطاب، وهو يَعظُ الناسَ : إنه لا عُذْرَ لأحدٍ عندَ اللهِ بعدَ البَيِّنةِ بضلالةٍ رَكِبها حَسِبَها هُدىً، ولا في هُدىً تَرَكهُ حَسِبَهُ ضَلالةً. قد تَبيَّنَتِ الأمورُ، وثَبَتَتِ الحُجَّةُ، وانقطعَ العُذْرُ، فمن رغبَ عن أنْباءِ النُّبوةِ، وما جاء به الكتابُ، تَقطَّعَتْ من يَديْهِ أسبابُ الهُدَى، ولم يَجِدْ له عِصْمةً يَنْجُو بها من الرَّدَى. وإنكم ذكرتُمْ أنه بَلَغكُمْ أني أقُول : إنَّ اللهَ قد عَلِمَ ما العبادُ عامِلونَ، وإلى ما هم صَائِرونَ، فأنكَرْتُمْ ذلك عليَّ، وقُلْتُمْ : إنه ليسَ يكونُ ذلك منَ اللهِ في عِلْمٍ حتى يكونَ ذاكَ من الخَلْقِ عملاً فكيف ذلك كما قُلْتُم ؟ واللهُ تعالى يقول : « إنَّا كاشِفُو العذابِ قليلاً إنكم عائِدون »، يَعْني عائِدينَ في الكُفْرِ. وقال تعالى : « ولو رُدُّوا لعَادُوا لِمَا نُهُوا عنهُ وإنَّهم لكاذِبُون ». فزعمتُمْ بجهلكم في قَوْلِ اللهِ تعالى : « فَمَنْ شاءَ فَلْيُؤْمِنْ ومَنْ شاءَ فَلْيكْفُرْ » أنَّ المَشيئةَ في أيِّ ذلك أحْبَبْتُمْ فَعَلْتُمْ من ضلالةٍ أو هُدىً، واللهُ تعالى يقول : « وما تَشاءُونَ إلَّا أنْ يشاءَ اللهُ رَبُّ العالمين » فَبِمشيئةِ

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز، لابن الجوزي ص : ٥٥.

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز، لابن الجوزي ص : ٥٥ ــ ٥٦.

(٣) حلية الأولياء ٥ : ٣٤٦ ــ ٣٥٣.

اللهِ لهم شاءُوا، ولو لم يَشَأْ لم يَنَالُوا بِمَشِيئَتِهم من طاعتِه شيئاً قَوْلاً ولا عَملاً، لأنَّ اللهَ تعالى لم يُمَلِّكِ العِبادَ ما بِيَدِه، ولم يُفَوِّضْ إليهم ما يَمْنَعُهُ من رُسُلِه، فقد حَرِصَت الرسُل على هُدَى الناسِ جميعاً، فما اهْتَدَى منهم إلَّا مَنْ هَدَاهُ اللهُ، ولقد حرصَ إبليسُ على ضَلالَتِهم جميعاً، فما ضَلَّ منهم إلَّا مَنْ كانَ في عِلْمِ اللهِ ضالًّا. وزعمتُم بجهلكم أنَّ عِلْمَ اللهِ تعالى ليس بالذي يَضْطَرُّ العبادَ إلى ما عملوا مِنْ مَعْصِيتِه، ولا بالذي صَدَّهم عما تَرَكُوهُ من طاعَتِه، ولكنه بِزَعْمِكم كما عَلِمَ اللهُ أنهم سيعملون بِمَعْصِيتِه، كذلك عَلِمَ أنهم سَيَسْتَطِيعُونَ تَرْكَها. فجعلتم عِلْمَ اللهِ لَغْواً، تقولون : لو شاءَ العَبْدُ لَعَمِلَ بطاعةِ اللهِ، وإنْ كان في عِلْمِ اللهِ أَنَّهُ غيرُ عاملٍ بها، وإنْ شاء تَرَكَ مَعْصِيَتَهُ، وإنْ كانَ في عِلْمِ اللهِ أنه غيرُ تاركٍ لها. فأنتم إذا شئتم أصَبْتُمُوهُ وكان عِلْماً، وإذا شئتُم رَدَدْتُمُوهُ وكان جَهْلاً، وإنْ شئتم أَحْدَثْتُمْ من أنْفسكم عِلْماً ليس في عِلْمِ اللهِ، وقَطَعْتُمْ به عِلْمَ اللهِ عنكم. وهذا ما كان ابنُ عباسٍ يَعُدُّهُ للتَّوْحِيدِ نَقْضاً، وكان يقول : إنَّ اللهَ لم يَجْعَلْ فَضْلَهُ ورَحْمتَهُ هَمَلاً بغير قَسْمٍ[1] منه ولا اختيارٍ، ولم يَبْعَثْ رُسُلَهُ بإبطالِ ما كان في سابقِ عِلْمِه. فأنتم تُقِرُّونَ في العِلْمِ بأمْرٍ، وتَنْقُضُونَهُ في آخر، واللهُ تعالى يقول : « يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهم وما خَلْفَهمْ ولا يُحيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إلَّا بما شاءَ ». فالخَلْقُ صَائِرونَ إلى عِلْمِ اللهِ تعالى، ونَازِلُونَ عليه، وليس بَيْنَهُ شيءٌ هو كائنٌ حجابٌ يَحْجُبهُ عنه ولا يَحُولُ دُونَه، إنه عليمٌ حكيمٌ.

وقُلْتُمْ : لو شاء اللهُ لم يفرض بعملٍ بغير ما أَخْبَرَ اللهُ في كتابِه عن قَوْمٍ، ولهم أعْمالٌ من دونِ ذلك هُمْ لها عاملون، وأنه قال : « سَنُمَتِّعُهُمْ قليلاً ثم يَمَسُّهُمْ مِنَّا عذابٌ إليمٌ »، فأَخْبَرَ أنهم عاملون قَبْلَ أنْ يَعْمَلُوا، وأخبَرَ أنه مُعَذِّبُهمْ قَبْلَ أنْ يُخْلَقُوا. وتقولون أنتم : إنهم لو شاءُوا خَرَجُوا مِنْ

(١) القَسْم : التقدير.

عِلْمِ اللهِ في عَذَابِه إلى ما لم يعلمْ مِنْ رَحْمتِه لهم، ومَنْ زَعَمَ ذلك فقد عادَى كتابَ اللهِ بردِ. ولقد سَمَّى اللهُ تعالى رجالاً من الرُّسلِ بأسْمائهم وأعْمالهم في سابِق عِلْمِه، فما استطاع آباؤهم لتلك الأسماءِ تَغْيِيراً، وما استطاعَ إبليسُ بما سَبَقَ لهم في عِلْمِهِ من الفَضْلِ تَبْديلاً، فقال: «واذكُرْ عبادَنا إبراهيمَ وإسْحاقَ ويَعْقُوبَ أُولي الأَيْدي والأَبْصارِ. إنا أخْلَصْنَاهُمْ بخالصةٍ ذِكْرى الدَّار». فاللهُ أعزُّ في قُدْرتِه وأمْنَعُ من أنْ يُمَلِّكَ أحداً إبْطالَ عِلْمهِ في شيءٍ من ذلك، فهو مُسَمًّى لهم بِوَحْيِه الذي لَا يَأْتيهِ البَاطِلُ من بين يَدَيْهِ ولا من خَلْفِه، أوْ أنْ يُشْرِكَ في خَلْقِه أحداً، أوْ يدخلَ في رحمتِه من قد أخْرَجَهُ منها أو أنْ يخرجَ منها مَنْ قد أدْخلَهُ فيها. ولقد أعْظَم باللهِ الجَهْلَ مَنْ زعم أنَّ العِلْمَ كانَ بعدَ الخَلْقِ، بل لم يزل اللهُ وَحْدَهُ بكلِّ شيءٍ عليماً، وعلى كلِّ شيءٍ شهيداً، قبلَ أنْ يَخْلُقَ شيئاً، وبعدَ ما خلق، لم يَنْقُصْ عِلْمُهُ في بَدْئِهم، ولم يَزِدْ بعدَ أعمالهم، ولا بِجَوائحهِ التي قَطَعَ بها دابرَ ظُلْمِهم، ولا يَمْلِكُ إبليسُ هُدَى نَفْسِه، ولا ضَلالةَ غيرِه. وقد أَردْتُمْ بِقَذْف مقَالتكم إبْطالَ عِلْمِ اللهِ في خَلْقِه، وإهْمالَ عبادتِه، وكتابُ ا للهِ قائمٌ يَنْقُضُ بِدْعتكم وإفْرَاطَ قَذْفِكم. ولقد عَلِمْتُم أنَّ اللهَ بعثَ رَسُولَهُ والناسُ يومئذٍ أهْلُ شِرْكٍ، فَمَنْ أرادَ اللهُ له الهُدَى لم تَحُلْ ضَلَالَتُهُ التي كان فيها دُونَ إرادةِ اللهِ له، ومَنْ لم يُرِد اللهُ له الهُدَى تَركَهُ في الكُفْرِ ضالاً، فكانت ضَلالَتُهُ أوْلَى به مِنْ هُدَاه. فَزَعمتُمْ أنَّ اللهَ أثبتَ في قلوبكم الطاعةَ والمَعْصِيَةَ، فَعَمِلْتُمْ بِقُدْرَتِكم بطاعتِه، وتَركتُمْ بِقُدْرتكم مَعْصِيتَهُ، وأنَّ اللهَ خِلْوٌ مِنْ أنْ يكونَ يَخْتَصُّ أحداً بِرَحْمتِه، أو يَحْجُزَ أحداً عن مَعْصِيتِه. وزعمتم أنَّ الشيءَ الذي بِقَدَرٍ إنما هو عندكم اليُسْرُ والرَّخَاءُ والنِّعْمةُ، وأخْرَجْتُمْ منه الأعمالَ، وأنكرتم أنْ يكونَ سَبَقَ لِأَحدٍ من اللهِ ضلالةٌ أو هُدىً، وأنكم الذين هَدَيْتُمْ أنْفُسَكم مِنْ دُونِ اللهِ، وأنكم الذين حَجَزْتُموها عن المَعْصِيةِ بِغير قُوَّةٍ من اللهِ ولا إذْنٍ منه. فَمَنْ زعم ذلك فقد غَلَا في القَوْلِ، لأنه لو كان شيءٌ لم

يَسْبِقْ في عِلْمِ اللهِ وقَدَرِهِ، لكانَ للهِ في مُلْكِهِ شريكٌ يُنْفِذ مَشيئتَهُ في الخَلْقِ من دُونِ اللهِ، واللهُ سبحانَهُ وتَعالى يقول : « حَبَّبَ إليكُمُ الإيمانَ وزَيَّنَهُ في قُلوبِكُمْ »، وهم لَهُ قَبْلَ ذلك كَارِهُون « وكَرَّهَ إليكُمُ الكُفْرَ والفُسُوقَ والعِصْيانَ »، وهم له قبلَ ذلك مُحِبُّونَ، وما كانوا على شيءٍ من ذلك لأنفسهم بِقَادِرينَ. ثم أَخْبَرَ بما سَبَقَ لمحمدٍ ﷺ من الصلاة عليه والمَغْفِرة له ولأصحابه، فقال تعالى : « أشِدَّاءُ على الكُفَّار رُحَماءُ بينَهم »، وقال تعالى : « لِيَغْفِرَ اللهُ لكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وما تأَخَّر ». فلولا عِلْمُهُ ما غَفَرَها اللهُ له قَبْلَ أنْ يَعْمَلها، فَضْلاً سبقَ لهم من اللهِ قبلَ أنْ يُخْلَقُوا، ورِضواناً عنهم قبلَ أنْ يُؤْمِنُوا. ثم أَخْبَرَ بما هُمْ عَامِلُونَ آمِنُونَ قبلَ أنْ يَعْمَلُوا، وقال : « تَرَاهُمْ رُكَّعا سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً من اللهِ ورِضْواناً »، فَتقولونَ أنتم إنهم قد كانوا مَلَكُوا رَدَّ ما أَخْبَرَ اللهُ عنهم أنهم عاملونَ، وأنَّ إليهم أنْ يُقِيموا على كُفْرِهم مع قَوْلِه، فيكون الذي أرادُوا لِأنفسهم من الكُفْرِ مَفْعولاً، ولا يكونُ لِوَحْيِ اللهِ فيما اختارَهُ تَصْديقاً، بل للهِ الحُجَّةُ البالغةُ، وفي قَوْلِهِ تعالى : « لَوْلَا كتابٌ مِنَ اللهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ »، فَسَبَقَ لهم العَفْوُ من اللهِ فيما أَخَذُوا قبلَ أنْ يُؤْذَنَ لهم، وقُلْتُم : لو شاءُوا خَرَجُوا من عِلْمِ اللهِ في عَفْوِهِ عنهم إلى ما لم يعلمْ من تَرْكِهِمْ لما أخَذُوا، فمن زعمَ ذلك فقد غَلا وكَذب. ولقد ذكَرَ اللهُ بشراً كثيراً وهم يومئذٍ في أصلابِ الرجال وأرحام النساءِ، فقال : « وآخرينَ منهم لَمَّا يَلْحقُوا بهم »، وقال : « والذين جاءُوا مِنْ بَعْدِهم يَقُولُونَ رَبَّنا اغْفِرْ لنا ولإخوانِنا الذين سَبَقُونا بالإيمان »، فَسَبَقَتْ لهم الرحمةُ من اللهِ قبلَ أنْ يُخْلقُوا، والدعاءُ لهم بالمَغْفِرة، ممن لم يَسْبِقْهُمْ بالإيمانِ من قَبْلِ أَنْ يَدْعُوا لهم. ولقد عَلِمَ العالمونَ باللهِ أنَّ اللهَ لا يشاءُ أمْراً، فَتَحُولُ مشيئةُ غيرِه دونَ بَلاغِ ما شاءَ. ولقد شاءَ لِقَوْمِ الهُدَى فلم يُضِلّهم أحَدٌ، وشاءَ إبليسُ لِقَوْمِ الضَّلَالةَ فاهْتَدوا، وقال لموسى وهارون : « اذْهَبا إلى فِرْعَوْنَ إنَّهُ طَغَى فَقُولا

له قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يتذكر أوْ يَخْشَى »، وموسى في سابِقِ عِلْمِهِ أنه يكونُ لِفرعَوْنَ عَدُوًّا وحَزَنا، فقال تعالى : « ونُرِيَ فِرْعَوْنَ وهَامَانَ وجُنُودَهما مِنْهُمْ ما كانُوا يَحْذَرُون »، فَتَقُولونَ أنتم : لو شاءَ فِرْعَوْنُ كانَ لِمُوسى وَلِيًّا وناصراً، واللهُ تَعالى يقول : « لِيكُونَ لهُم عَدُوًّا وَحَزناً ». وقلتم : لو شاءَ فِرْعَوْنُ لامْتَنَعَ من الغَرَقِ، واللهُ تعالى يقول : « إنَّهم جُنْدٌ مُغْرَقُونَ »، مُثبتٌ ذلك عنده في وَحْيِهِ فِي ذِكْرِ الأوَّلين، كما قال في سابقِ عِلْمِه لآدمَ قَبْلَ أنْ يَخْلقَهُ : « إنِّي جاعِلٌ في الأرْضِ خَلِيفةً »، فصار إلى ذلك بالمَعْصِيةِ التي ابْتُلِيَ بها، وكما كان إبليسُ في سابقِ عِلْمِه أنه سيكونُ مَذْمُوماً مَدْحُوراً، وصار إلى ذلك بما ابْتُلِيَ به من السُّجودِ لآدمَ فأبَى، فَتَلَقَّى آدمُ التَّوْبةَ فَرَحم، وتَلقَّى إبْلِيسُ اللَّعْنَةَ فغَوى، ثم أهبطَ آدم إلى ما خلق له من الأرضِ مَرْحُوماً مَتُوباً عليه، وأهبطَ ابليس بِنَظِرتِه مَدْحُوراً مَذْمُوماً مَسْخُوطاً عليه. وقُلْتم أنتم : إنَّ ابليس وأوْلياءَهُ من الجِنِّ قد كانوا ملكُوا رَدَّ عِلْمِ اللهِ والخُروجَ مِنْ قَسَمه الذي أقْسَم به إذْ قال : « فالحقُّ والحَقَّ أقُولُ. لأمْلأنَّ جهنَّمَ منكَ ومِمَّنْ تَبِعك منهمْ أجْمَعِين » حتى لا يَنْفَذَ له عِلْمٌ إلَّا بعدَ مَشِيئتهم. فماذا تُرِيدُونَ بِهلكة أنفسكم في رَدِّ عِلْمِ اللهِ ؟ فإنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ لم يُشْهِدْكُمْ خَلْقَ أنفسكم، فكيف يُحِيطُ جَهْلكُمْ بِعِلْمهِ، وعِلْمُ اللهِ ليس بِمُقَصِّرٍ عن شيءٍ هو كائنٌ، ولا يَسْبِقُ عِلْمُهُ في شيءٍ، فيقدرُ أحدٌ على رَدِّه ؟ فلو كنتم تَنْتَقِلُونَ في كلِّ ساعةٍ من شيءٍ إلى شيءٍ هو كائنٌ، لكانت مَواقِعكُمْ عندَه. ولقد عَلِمَتِ الملائكةُ قبلَ خَلْقِ آدمَ ما هو كائنٌ من العبادِ في الأرضِ من الفسادِ وسَفْكِ الدماءِ فيها، وما كان لهم في الغَيْبِ من عِلْمٍ فكان في عِلْمِ اللهِ الفسادُ وسَفْكُ الدماءِ. وما قالوا تَخَرُّصاً إلَّا بِتَعْلِيمِ العليمِ الحكيمِ لهم، فَظنَّ ذلك منهم، وقد أنْطَقهم به. فأنكرتُمْ أنَّ الله أزاغَ قَوْماً قبلَ أنْ يَزِيغُوا، وأضَلَّ قَوْماً قبلَ أنْ يَضِلُّوا، وهذا مِمَّا لا يَشُكُّ فيه المؤمنون بالله. إنَّ اللهَ قد

عَرفَ قَبْلَ أنْ يخلقَ العبادَ مُؤْمِنَهم من كافِرهم، وبرَّهُمْ من فاجرِهم، وكيف يستطيعُ عبدٌ هو عندَ اللهِ مؤمنٌ أنْ يكونَ كافراً، أو هو عندَ اللهِ كافرٌ أنْ يكونَ مُؤْمِناً ؟ واللهُ تعالى يقول : « أوَ مَنْ كانَ مَيْتاً فأحْيينَاهُ وجَعَلْنَا له نُوراً يَمْشي بهِ في الناسِ كَمَنْ مثلُهُ في الظُلُماتِ ليسَ بخارج منها »، فهو في الضلالةِ ليس بخارجٍ منها أبداً إلَّا بإذنِ اللهِ، ثم آخرون اتَّخذوا من بعدِ الهُدَى عِجْلاً جسداً فَضَلُّوا به فَعُفِيَ عنهم لعلهم يشكرون، فَصَاروا مِنْ أُمَّةِ قَوْمِ موسى أمةً يَهْدُونَ بالحقِّ وبه يَعْدِلُون، وصاروا إلى ما سبقَ لهم أنَّ صالحاً رَسُولُهم، وأنَّ الناقةَ فِتْنةٌ لهم وأنه مُمِيتُهم كُفَّاراً فَعَقَرُوها. وكا إبليسُ فيما كانت فيه الملائكةُ من التَّسْبيحِ والعبادةِ، ابْتُلِيَ فَعَصَى فلم يُرْحَمْ، وابْتُلِيَ آدمُ فَعَصَى فَرُحِمَ، وهَمَّ آدمُ بالخَطِيئةِ فَنَسيَ، وهَمَّ يوسفُ بالخطيئةِ فَعُصِمَ، فأين كانت الاسْتِطاعةُ عندَ ذلك ؟ هل كانت تُغْني شيئاً فيما كان من ذلك حتى لا يكون ؟ أو تُغْني فيما لم يكنْ حتى يكون ؟ فَتَعْرَفُ لكم بذلك حُجَّةُ، بل اللهُ أعزُّ مما تَصِفُونَ وأقْدَرُ.

وأنكرتُمْ أنْ يكونَ سَبَقَ لأحدٍ من اللهِ ضَلالةٌ أو هُدى، وإنَّما عِلْمُهُ بزَعْمِكُمْ حافظٌ، وأنَّ المَشيئةَ في الأعْمالِ إليكم، إنْ شئتُمْ أحْبَبْتُمُ الأيمانَ، فكنتم من أهْلِ الجنة، ثم جعلتم بِجَهْلِكُمْ حديثَ رسولِ اللهِ ﷺ الذي جاءَ بهِ أهْلُ السُّنَّةِ، وهو مُصَدِّقٌ للكتابِ المُنَزَّل : أنه من ذَنْبِ مُضاهٍ ذَنْباً خَبيثاً في قَوْلِ النبيِّ ﷺ حينَ سألهُ عمر : أرأيْتَ ما نَعْمَلُ أشيْءٌ قد فُرِغَ منه أم شيءٌ نَأْتنفه ؟ فقال ﷺ : بل شيءٌ قد فُرِغَ منه[1]. فَطَعَنْتُمْ بالتَّكْذيبِ له. وتَعْليمٌ من اللهِ في عِلْمِه إذ قلتم : إنْ كنا لا نستطيعُ الخروجَ منه فهو الجَبْرُ، والجبْرُ عندكم الحَيْفُ. فَسمَّيْتُمْ نَفَاذَ عِلْمِ اللهِ في الخَلْقِ حَيْفاً !

---

(١) انظر الحديث في مسند أحمد بن حنبل ١ : ٢٧.

وقد جاءَ في الخَبَرِ « أنَّ الله خَلَقَ آدَمَ، فَنَثَرَ ذُرِّيَتَهُ في يَدِه، فكتبَ أهْلَ الجنة وما هم عاملونَ، وكتب أهْلَ وما هم عاملون ». وقال سهلُ بن حُنَيْفٍ يوم صِفِّين : أيها الناس، أتَّهِموا آراءَكُمْ على دِينِكم، فوالذي نَفْسي بيدِهِ لقد رَأيتنا يومَ أبي جَنْدَلٍ، ولو نستطيعُ ردَّ أمْرِ رسول الله ﷺ، لَرَدَدْناهُ، والله ما وضَعْنا سُيُوفَنا على عَوَاتِقنا إلَّا أسْهَلَ بنا على أمرٍ نعرفه قبل أمْركم هذا.

ثم أنتم بِجَهْلِكم قد أظْهرتُمْ دَعْوَةَ حَقٍّ على تأوِيلٍ باطلٍ تَدْعونَ الناسَ إلى رَدِّ عِلْمِ الله، فقلتم : الحَسَنَةُ من اللهِ، والسَّيِّئَةُ من أنفسنا. وقال ائمتكم، وهم أهْلُ السُّنَّةِ : الحسنةُ من الله في عِلْمٍ قد سَبَقَ، والسيئَةُ من أنفُسِنا في عِلْمٍ قد سَبَقَ. فقلتم : لا يكونُ ذلك حتى يكونَ بَدؤها من أنفسنا كما بَدْءُ السَّيئاتِ مِنْ أنْفُسِنا. وهذا ردٌّ للكتابِ منكم، ونَقْضٌ للدِّينِ، وقد قال ابنُ عباسٍ حينَ نَجَمَ القَوْلُ بالقَدَر : هذا أوَّلُ شِرْكٍ هذه الأمَّة، والله لا يَنْتهي بهم سوءُ رأيهم حتى يُخْرِجُوا اللهَ من أن يكونَ قَدَّرَ خَيْراً، كما أخْرَجُوهُ من أنْ يكونَ قَدَّرَ شراً. فأنتم تزعمون بِجَهْلكم أنَّ مَنْ كان في عِلْمِ الله ضالاً فاهْتدى، فهو بما ملك ذلك حتى كان في هُدَاهُ ما لم يكن الله عَلِمَهُ فيه وأنَّ مَنْ شرح صدره للإسلام، فهو بما فُوِّضَ إليه قبل أنْ يَشْرَحَهُ اللهُ له، وأنه إنْ كان مُؤْمِناً فكفر، فهو مما شاءَ لنفسهِ، ومَلَكَ مِنْ ذالك لها، وكانت مَشيئَتُهُ في كُفْرِهِ أنْفَذَ من مَشيئةِ اللهِ في إيمانه، بل أشْهَدُ أنه مَنْ عَمِلَ حَسَنَةً فبغير مَعُونةٍ كانت من نَفْسِه عليها، وأنَّ مَنْ عَمِلَ سَيِّئةً فبغير حُجَّةٍ كانت له فيها، وأنَّ الفَضْلَ بِيَدِ الله يُؤْتيه مَنْ يشاءُ، وأنْ لو أرادَ اللهُ أنْ يَهْدي الناسَ جميعاً، لَنَفَذَ أمْرُهُ فيمن ضَلَّ حتى يكون مُهْتدياً. فقلتم : بِمَشيئتهِ شاءَ لكم تَفْويضَ الحَسَناتِ إليكم، وتَفْويضُ السيئاتِ ألْقَى عنكم سابقَ عِلْمِه في أعمالكم، وجعل مَشِيئَتَهُ تَبَعاً لمشيئتكم، ويَحْكُمْ ! فوالله ما أمْضَى لبني إسرائيلَ

مشيئتهم حينَ أبَوْا أنْ يأخُذُوا ما آتاهم بِقُوَّةٍ حتى نَتَقَ[1] الجَبَلَ فَوْقَهُم كأنه ظُلَّةٌ، فهل رأيتُمُوهُ أمضَى مشيئتهم لمن كان في ضَلَالَتِه حين أرادَ هُدَاهُ حتى صارَ إلى أنْ أدْخَلَهُ بالسيفِ الى الإسلامِ كَرْهاً بِمَوْضِعِ عِلْمِهِ بذلك فيه، أمْ هو أمْضى لقوم يونسَ مشيئَتَهم حين أبَوْا أنْ يؤمنوا حتى أظَلَّهم العَذابُ، فآمنوا، وقبلَ منهم، وردَّ على غيرهم الأيمان، فلم يقبل منهم، وقال تعالى: « فلمَّا رَأوْا بَأْسَنَا قالوا آمَنا باللهِ وحْدَهُ وكَفَرْنَا بما كُنَّا به مُشْرِكينَ. فلم يكُ يَنْفَعُهم إيمانُهم لمَّا رَأوْا بَأسَنَا سُنَّةَ اللهِ التي قَدْ خَلَتْ في عِبَادِه »، أي علم الله الذي قد خَلَا في خَلْقِه، « وخسِرَ هنالكَ الكافِرونَ ». وذلك كانَ مَوْقِعَهم عندَهُ أنْ يهلكوا بغيرقَبُولٍ منهم، بل الهُدَى والضَّلالةُ، والكُفْرُ والأيمان، والخَيْرُ والشَّرُّ بِيَدِ اللهِ، يَهْدي مَنْ يَشاءُ وَيَذَرُ مَنْ يشاءُ في طُغْيانِهم يَعْمَهُون. كذلك قال إبراهيم عليه السلام: « واجْنُبْني وبَنِيَّ أنْ نَعْبُدَ الأَصْنَامَ »، وقال عليه السلام: « رَبَّنا واجْعَلْنَا مُسْلِمينَ لَكَ ومِنْ ذُرِّيتِنَا أُمَّةً مُسْلِمةً لك »، أي إنَّ الأيمان والإسلام بِيَدك، وإنَّ عبادةَ مَنْ عَبَدَ الأصْنَامَ بِيَدِكَ، فأنكَرْتُمْ ذلك، وجَعَلْتُموهُ مِلْكاً بأيديكم دونَ مشيئةِ اللهِ عزَّ وجَلَّ.

وقلتم في القتل إنه بِغَيرِ أجَلٍ، وقد سَمَّاهُ اللهُ لكم في كتابهِ، فقال ليحيى: « وسلامٌ عليهِ يومَ وُلِدَ ويومَ يَمُوتُ ويوم يُبْعَثُ حَيّاً »، فلم يَمُتْ يحيى إلاَّ بالقَتْلِ، وهو مَوْتٌ كما ماتَ منهم مَنْ قُتِلَ شهيداً، أو قُتِلَ عَمْداً، أو قُتِلَ خطأً، كَمَنْ مات بِمَرَضٍ أو فجأةً، كلُّ ذلك مَوْتٌ بِأجَلٍ تَوفَّاهُ، ورِزْقٍ استَكملَهُ، وأثرٍ بَلَغَهُ، ومَضْجَعٍ بَرَزَ إليه، « وما كانَ لِنَفسٍ أنْ تَمُوتَ إلاَّ بإذْنِ اللهِ كِتاباً مُؤَجَّلاً »، ولا تَموتُ نَفْسٌ ولها في الدنيا عُمْرُ ساعةٍ إلاَّ بَلَغَتْهُ، ولا مَوْضِعُ قَدَمٍ إلاَّ وَطِأتْهُ، ولا مِثْقَالُ حبةٍ مِنْ رِزْقٍ إلاَّ اسْتَكمَلْتهُ،

---

(١) نتق الجبل: رفعه مزعزعا فوقهم.

ولا مَضْجعٌ بحيث كان إلاَّ بَرزَتْ إليه، يَصْدُقُ ذلك قَوْلُ الله عزَّ وجَلَّ : « قُلْ للذين كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وتُحْشَرونَ إلى جَهَنَّم »، فأَخْبَرَ الله سبحانهُ بِعَذابهم بالقَتْلِ في الدنيا والآخرة بالنار، وهم أحياءٌ بمكة، وتقولون أنتم : إنهم قد كانوا ملكوا ردَّ عِلْمِ الله في العَذابَيْنِ اللذين أَخْبَرَ اللهُ ورَسُولُهُ أنهما نَازِلان بهم. وقال تعالى : « ثَانيَ عِطفِهِ لِيُضِلَّ عن سَبيلِ اللهِ لهُ في الدُّنيا خِزْيٌ »، يعني القَتْلَ يومَ بَدْرٍ، « ونُذِيقُهُ يومَ القيامةِ عَذَابَ الحَريقِ ». فانظروا إلى ما أَرْدَاكم فيه رأيكم، وكتاباً سَبَقَ في عِلْمِهِ بشَقائكم، إنْ لم يَرْحَمكُمْ، ثم قَوْلَ رسولِ الله ﷺ : « بُنِيَ الإسلامُ على ثلاثةِ أعمال : الجهادُ ماضٍ منذ يوم بعثَ الله رسولهُ إلى يومِ القيامة، فيه عِصَابةٌ من المؤمنين يُقاتلون الدَجَّالَ، لا يَنْقُضُ ذلك جَوْرُ جائرٍ، ولا عدْلُ مَنْ عَدَلَ. والثانيةُ أَهْلُ التَّوْحيدِ، لا تُكفِّروهم ولا تَشْهَدُوا عليهم بِشِرْكٍ. والثالثةُ المقاديرُ كُلُّها خَيْرُها وشَرُّها مَنْ قَدَرِ الله ». فَنَقضْتُم من الإسلامِ جِهادَهُ، ونَقَضْتُمْ شهادتكم على أمتكم بالكُفْرِ، وبَرِئْتُمْ منهم بِبِدْعتكم، وكَذَّبْتُم بالمقادير كلها، والآجالِ والأعمالِ والأَرْزاقِ، فما بقيتْ في أيديكم خَصْلَةٌ يَنْبني الإسلامُ عليها إلاَّ نَقَضْتُموها وخَرَجتُمْ منها ».

ولِرسالةِ عمر قيمَتَانِ : الأولى تاريخيَّةٌ، والثانيةُ فِكْرِيَّةٌ، أمَّا القيمةُ التاريخيةُ فَتَتمثَّلُ في أنَّ الرسالةَ تَقْطعُ بأنَّ عمر فَتَحَ باب الحوار في المسائلِ الدينية والسياسيةِ، وسَمَحَ لِخُصومه بِمُناقَشتِه فيها، وأنَّ القَدريَّةَ كانوا من الفِرَقِ الإسلاميةِ التي عَرضَتْ عليه آراءَها، وناظَرَتْهُ فيها. وأما القيمةُ الفِكْرية فَتتمثَّلُ في أنَّ الرسالةَ تُصَوِّرُ مذهبَ عمر في القضاءِ والقَدَرِ، فهي تدل على أنه كان يؤمنُ إيماناً عميقاً بأن الإنسان مُجْبَرٌ غير مُخيَّرٍ، وأنه لا استطاعةَ له على صُنْعِ شيءٍ من أفعالِه، وإنَّما يأتيها بأمْرِ الله وإرادتهِ. وكان يُسَمِّي الآياتِ التي تشيرُ إلى شُمُولِ قُدْرةِ اللهِ وعِلْمِهِ أُصُولاً، وكان يُسَمِّي الآيات

التي تُشيرُ إلى أنَّ العَبْدَ مُخَيَّرٌ غيرُ مُجْبَرٍ فُروعاً، وكان يَحْمِلُه على الأصول، وكان يَرَى أنَّ الفروعَ لا تُبْطِلُ الأصولَ، وكان يَعْتَقِدُ أن الخروج على الأصولِ كُفْرٌ وإشراكٌ بالله.

وتُوَضِّحُ الرسالةُ كذلك طريقةَ عُمَرَ في الرَّدِّ على القَدَرِيَّة، والانتصار لِمَذهَبِه، إذْ كان يذكرُ رأيَ القَدَرِيَّةِ في كل مسألةٍ من المسائلِ، ثم يُخطِّئُهُ، مُهْملاً في الأعمِّ الأغْلَبِ حُجَجَهم وشَوَاهِدَهم عليه، ثم يُدْلي برأيِه، ويَسُوقُ الأدلة والبراهين التي تُؤيِّدُهُ، مُغْفِلاً ما يُخالِفُهُ. وكان يختارُ أكثر الأدلةِ والبراهين من الذِّكر الحكيم، وكان يختارُ أَقَلَّها من الأحاديثِ المَرْوِيَّة عن الرَّسولِ الكَريمِ، ومن الأخبارِ والآثار التي وَرَدَتْ عن الصحابةِ والخلفاءِ الراشدين.

وهو يَصْدُرُ في مَذْهبه عن قَوْل الجَبْرِيَّة. وقد انْتَقَده الجاحظ انتقاداً شديداً، وهاجمهُ هُجوماً عنيفاً، ناسباً له إلى القَوْلِ بالاجبار الخالصِ والتَّعطيلِ المحضِ، والتَّطَرُّف في الرأي، ومُتَّهماً إياه بضَعفِ المعرفة بِعلْمِ الكلام، والابْتعادِ عن مخالطةِ أصحابِ الفِكْرِ والجَدَلِ، إذ يقول [١] : « كان أعْظَم خَلْقِ الله قَوْلاً بالجَبْرِ حتى يتجاوز الجَهْمِيَّةَ، ويُرْبى على كلِّ ذي غايةٍ، صَاحِبَ شُنْعَةٍ، وكان يَصْنَعُ في ذلك الكُتُبِ، مع جَهْلِه بالكلامِ، وقِلَّةِ اختلافه إلى أهْل النَّظَر ».

وكان القَدرِيَّةُ فرقةً دينيةً سياسيةً، فإنَّهم خَاضوا في المسائلِ الدِّينيةِ كالإيمان وصِفَاتِ الله وكَلامِ اللهِ والقَضَاءِ والقَدَرِ، وبَقِيَ شيءٌ من آراءِ غِيْلانَ الدِّمشقيِّ فيها، وكانَ رأسَ القَدريَّةِ في بلاد الشام في العَصْرِ

(١) رسائل الجاحظ، للسندوبي ص : ٩٠، وشرح نهج البلاغة ١٥ : ٢٥٥.

الأمويّ[1]، قال الشهرسْتانيُّ في حديثِه عن فرقةِ الثَّوبانيةِ من المرجئة[2]: « أصْحابُ أبي ثَوْبانَ المُرْجئي الذين زَعَمُوا أنَّ الإيمانَ هو المعرفةُ والإقرارُ بالله تعالى وبرُسُلِه عليهم الصلاةُ والسلامُ، وبكل ما لا يجوزُ في العَقْلِ أنْ يَفْعَلَهُ، وما جازَ في العَقْلِ تَرْكُهُ فليسَ من الايمانِ، وأخَّرَ العَمَلَ كلَّهُ عن الإيمانِ. ومن القائلينَ بمقالةِ أبي ثَوبانَ هذا أبو مروانَ غَيْلانُ بنُ مروانَ الدمشقيُّ ». وقال الشهرستانيُّ[3]: « وأمَّا غيلانُ بنُ مروانَ من القَدريَّة المُرْجئة فإنه زعم انَّ الإيمانَ هو المَعْرفَةُ الثانيةُ بالله تَعالى، والمحَّبةُ والخضُوعُ له، والإقرارُ بما جاءَ به الرَّسولُ وبما جاءَ من عند اللهِ، والمعرفةُ الأولى فِطْريةٌ ضروريَّةٌ. فالمَعْرفَةُ على أصْلِه نَوْعانِ : فِطْريةٌ، وهي عِلْمُهُ بأنَّ للعالم صانعاً ولنفسهِ خالقاً، وهذه المَعْرفةُ لا تُسمَّى إيماناً، إنما الإيمانُ هو المعرفةُ الثانيةُ المُكْتسبةُ ». وكان غيلانُ يقول[4]: « إنَّ الإيمانَ لا يَزيدُ ولا يَنْقُصُ، ولا يَتفاضَلُ النَّاسُ فيه »، وكان يقُولُ بِنَفيِ الصِّفاتِ وخَلْقِ القرآن[5]، وكان يقولُ بالقَدَرِ خَيْرِهِ وشَرِّهِ من العَبْد[6].

وخاضُوا أيضاً في المسائل السياسيَّة كالإمامة، وبقي شيءٌ من آراء غَيْلانَ الدِّمشقيِّ فيها، فقد ذكر الشهرستانيُّ أنه كان يقول في الإمامة[7] : « إنها

---

(١) انظر ترجمته في التاريخ الكبير ٤ : ١ : ١٠٢، والمعارف ص : ٤٨٤، والجرح والتعديل ٣ : ٢ : ٥٤، وفضل الاعتزال ص : ٢٢٩، وتاريخ دمشق المخطوط ١٤ : ٩٠، وتاريخ الإسلام ٤ : ٢٨٩، وميزان الاعتدال ٣ : ٢٣٨، وطبقات المعتزلة ص : ٢٥، ولسان الميزان ٤ : ٤٢٤، وسرح العيون ص : ٢٩٢.

(٢) الملل والنحل ١ : ١٢٧، وانظر مقالات الإسلاميين ١ : ٢٠٠، والفرق بين الفرق ص : ١٩٤.

(٣) لملل والنحل ١ : ١٢٩، وانظر الفرق بين الفرق ص : ١٢٥.

(٤) الفرق بين الفرق ص : ١٢٥.

(٥) سرح العيون ص : ٢٨٩.

(٦) الملل والنحل ١ : ١٢٧، وانظر التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع ص : ١٦٥، ١٧٤.

(٧) الملل والنحل ١ : ١٢٧.

تَصْلُحُ في غير قُرَيْشٍ، وكلُّ مَنْ كان قائماً بالكتاب والسُّنة كانَ مُسْتحقاً لها، وإنها لا تثبتُ إلاَّ بإجْماع الأمَّة». وكان غيلانُ كثيرَ النَّقْدِ لبني أميَّة، إذ كان يُنكِرُ نَظَريتهم في الخلافة، ويُناهِضُ استِبْدادِهم بأمْرِ المسلمينَ، ويَجْهُرُ بمُخالفتهم للكتاب والسُّنة، ويُشَهِّرُ باستعمالهم لأهْلِ السُّوءِ والفَسَادِ، ويَهْتِفُ بِظُلْمِ عُمَّالهم للنَّاسِ [1]. ويقال إنَّ هشامَ بنَ عبد الملك أمرَّ بقَتْلِه وقَطَّعَهُ تَقْطيعاً لأنه رَفَضَ قَوْله باسْتخلافِ اللهِ له، ونَدَّد بِتَصرُّفهِ في أموال المسلمين، ودَعا النَّاسَ بأرمينة إلى الثَّورةِ عليه [2].

وأمَّا الخَوارِجُ فَنَاظرهم عُمَرُ طويلاً، ويَظْهَرُ أنه كان يَعْطِفُ عليهم، فقد كان يكتبُ إليهم الكُتبَ [3]، ويُرْسِلُ إليهم الرُّسُلَ [4]، وكان يَسْتَقْدِمُهم، ويَسْتَمِعُ إلى مآخِذِهم ومَطالِبهم، ويُناقِشُهم فيها، وكان يَقْبَلُ بعضَ أفكارهم وآرائهم، ويَعِدُهم أنْ يَعْملَ بها. وكان يَحْرِصُ على مُهَادَنتهم واستصلاحِهم ما اسْتجابوا لِدَعوته، وأمْسَكوا عن مُحَاربتهِ.

ومُناظراتُهُ لهم كثيرةٌ، وبَعْضُها يُغني عن بعضٍ، لأنه كان يَصْدُرُ فيها جميعاً عن مَنْهجٍ واحدٍ، إذْ كان يَسْتَعينَ فيها بالقرآن والسُّنةِ، ويَسْتَشْهِدُ بأخبارِ الأمم الماضية التي وَرَدَتْ في القرآن، ويَتمثَّلُ بالحوادث التي وقعتْ

---

(١) طبقات ابن سعد ٧ : ٤٧٨، وعيون الأخبار ٢ : ٣٤٥، وأنساب الأشراف المخطوط ٢ : ٢٤٦، وفضل الاعتزال ص : ٢٢٩، ٢٣٠، ٢٣١، ٣٣٩، والملل والنحل ١ : ١٢٧، وتاريخ دمشق المخطوط ١٤ : ٩٢، وسيرة عمر بن عبد العزيز، لابن الجوزي ص : ٧٨، وتذكرة الحفاظ ١ : ٩٩، وطبقات المعتزلة ص : ٢٥، ٢٦، ٢٧، ١٢١.

(٢) أنساب الأشراف المخطوط ٢ : ٢٥٨، ٢٥٩، وفضل الاعتزال ص : ٢٣١، ٢٣٣، وطبقات المعتزلة ص : ٢٦.

(٣) سيرة عمر بن عبد العزيز، لابن عبد الحكم ص : ٨٣، ٨٩، وسيرته، لابن الجوزي ص : ٦٣.

(٤) طبقات ابن سعد ٥ : ٣٥٨.

في صَدْرِ الإسلام، ويَقيسُ عليها. ومن أطْوَلِ الأخبار التي تَتضمَّنُ مُراسَلَته للخوارج ومحاورتَه لهم، وأدَقِّها إبانةً عن مَنْطِقِهِ وطريقته في الحجاج والبرهان هذاالخبر الذي رواه المدائني فقال [1] : « خرَج بسطامُ بنُ مرَّة أيام عمر بن عبد العزيز بن مروان، فقال لأصحابه : يا أخِلاَّي، إنكم قد بَايَنْتُم قَومكم في ولاية هذا الرجل، وهو يأمُرُ بالعَدْلِ ويُظْهِرهُ ويعملُ به، فأعْذِرُوا فيما بينكم وبينهُ، وأدْعُوهُ إلى أمركم. فكتبوا إليه، فَعَظَّموا طاعةَ اللهِ وأمْرَهُ، وعَابوا الظُّلمَ وأهْلَهُ، وكَفَّروا أهلَ الكبائر، وبَرئوا منهم، ودَعوهُ إلى رأيهم، وإلى البراءة من علي وعثمان، وردِّ أحكامِ عثمان، وما حَكَمَ به عليٌّ بعدَ الحَكَمَيْنِ، واسْتأذَنُوهُ في أنْ يُوجِّهوا مَنْ يُناظِرُهُ ويُحاجُّهُ على أنْ يُؤَمِّنَهُ. فكتب عمر إليهم : إلى العصابةِ الذين خرجوا بزعمهم التِماسَ الحقِّ، أمَّا بعد ذلك، فإنَّ اللهَ لم يُلَبِّسْ على العباد أمورهم، ولم يَتْركهم سُدىً، ولم يجعلهم في عمياء، فبعث إليهم النُّذُر، وأنزل عليهم الكتب، فبعث محمداً ﷺ رحمة للعالمين، بشيراً ونذيراً، وأنزل عليه كتاباً حفيظاً « لا يأتيه الباطِلُ مِنْ بينَ يَدَيْهِ ولا منْ خَلْفِهِ تَنْزيلٌ مِنْ حكيمٍ حَميدٍ »، فيه عِلْمُ ما يأتونَ وما يَتَّقُون، فأوصيكم بتقوى الله وشُكْرِ نِعَمِهِ، والاتِّصال بِحَبْلِهِ، والتَّوكُّلِ عليه، فإنه « مَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ له مَخْرجاً ويَرزُقْهُ مِنْ حيْثُ لا يَحْتَسِبْ ». وقد بلغني كِتَابُكُمْ وما دعوتم إليه، ومَنْ أظْلَمُ مِمَّن افترى على اللهِ الكذب وهو يُدْعى إلى الإسلام، فقد خاب من دُعِيَ إلى الحق فلم يَجِبْ، وذَكَرْتُمْ ما اعْتَقَدَ اللهُ في عِبَادِهِ وأمَرَهُمْ به من الطاعة، فلله الحُجَّةُ البالغةُ، وسألْتُموني أنْ أحكمَ

(١) أنساب الأشراف المخطوط ٢ : ١٦٥، وانظر الخبر في سيرة عمر بن عبد العزيز، لابن عبد الحكم ص : ١٢٧، والإمامة والسياسة ٢ : ١١٨، والعقد الفريد ٢ : ٤٠١، ومروج الذهب ٣ : ٢٠٠، والعيون والحدائق ٣ : ٤١، والكامل في التاريخ ٥ : ٤٥، وانظر بعض الخبر في تاريخ اليعقوبي ٢ : ٣٠٧، وسيرة عمر بن عبد العزيز، لابن الجوزي ص : ٦٢، ورسائل الجاحظ، للسندوبي ص : ٩٠، وشرح نهج البلاغة ١٥ : ٢٥٥.

بالعَدْلِ، وأقْوم بالقِسْط، وفي الحق مَقْنَعٌ وفَوْزٌ ونجاةٌ لمن عَمِل به، ولكلِّ نَبأٌ مُسْتَقَرٌّ. فلكم الذي سألتم،وبالله التوفيق. وسألتموني ردَّ ما حَكَمَ به مَنْ كانَ في صَدْرِ هذه الأمَّةِ من الأئمة إلاَّ ما كان مِنْ حُكْمِ أبي بكر وعمر وعلي قَبْلَ الحكَمَيْنِ. وهم ومَنْ كان بعدهم من الأئمة كانوا أقربَ عهداً برسول الله ﷺ وأصحابه، والله يَشْهَدُ على أحكامه ويَعْلَمُها. وسألتموني الإذن لكم في قُدوم طائفةٍ منكم علي، فَمَنْ أحبَّ ذلك منكم فليقدم آمناً لا أحجبُهُ، ولا أبْسُطُ إليه يداً. وإني أدعوكم إلى الله ورسوله، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والإنابة إلى أمر الله، وأذكِّرُكُمْ الله أنْ تُخالِفُوا كتابَ الله وسُنَّةَ نَبيِّه، فقد بيَّن لكم الهُدى، وأراكم البيِّنات، فاقبلوا أمْرَ الله، وإياكم والبدَعَ والغُلُوَّ في الدين، والسؤال عما كُفيتُموه، فقد سَبَقَ فيه من الله ما قد سمعتم من قوله : « يا أيها الذين آمنوا لا تَسْألوا عَنْ أشْياءَ إنْ تُبْدَ لكمْ تَسُؤْكُمْ »، فهذه سبيلي أدعو إلى الله على بَصيرةٍ، فإن تَقْبَلوا يَقْبَلِ اللهُ منكم، وإن تُعْرِضوا فإنَّ الله أمامكم ومن ورائكم، فمن ذا يُعْجز الله، وشرُّ الدَّوابِّ عند الله الصُّمُّ البُكْمُ. وقلتم : لا حُكْمَ إلاَّ لله العَليِّ العظيمِ، ومن أحْسَنُ من الله حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ.

وبَعَثَ بكتابه إليهم مع عون بن عبدالله بن عتبة بن مسعود، ومحمد بن الزبير الحنْظلي، وقال لهما : إن هؤلاء القوم قد خرجوا علينا بأسيافهم، فإذا قَدِمْتُمْ عليهم فادْعوهم إلى الحقِّ والجماعة، فإنْ دَعونا من كتاب الله إلى ما لم أعمل به، فاضْمَنَا عني العَمَلَ به، وإنْ دَعونا من كتاب الله إلى ما قد عَلِمْناهُ وجَهِلوه، فحاجُّوهم به حتى يَرْجعوا إليه. قال : فَقَدِما عليهم، فقال عون : أيتها العِصَابة، إنا قد أقمنا من كتاب الله ما قد حَفِظْنا، وعَمِلْنا بما عَلِمْنا. فهل عندكم من عِلْمٍ فَتُخرِجوهُ لنا، أم أمنتُم على أنفسكم ما خِفْتُمْ على قومكم، أم رَجَوْتُمْ شيئاً لأنفسكم يَئِسْتُم منه لقومكم، أم تقولون :

ذُنُوبُ قومكم شِرْكٌ وذُنوبُكُم ذُنُوبٌ ؟ قالوا : نَتْرُكُ الذُّنوبَ كُفْراً لِقَوْلِ الله : « ومَنْ لم يَحْكُمْ بما أَنْزَلَ اللهُ فأولئك همُ الكافرون ». قال : أَخْطَأْتُمُ التَّأويلَ، من لم يحكمْ بما أنزلَ الله جاحداً له فهو كافرٌ، فأمَّا حاكمٌ وقَعَ حدٌّ فَدَرأهُ عن صاحبه، وهو مُقِرٌّ بالآية، فلا يكون كافراً، لأن الله تبارك وتعالى قال : « وقال الذينَ كَفَروا لا تَسْمعوا لهذا القرآنِ والْغَوْا فيه »، وقال الله : « زَعَمَ الذين كَفَروا أنْ لَنْ يُبْعَثوا »، وهؤلاء يؤمنون بالبَعث. وأمير المؤمنين مجتهدٌ لنفسه في الحكم بالعَدْلِ وإحياءِ ما قد أُمِيتَ منه، فاتَّقوا الله، وانظروا لأنفسكم. قالوا : فإنَّ عُمَّالَ صاحبك يظلمون ! قال : فَتَوَلَّوا أعمالَهُ. قالوا : لا نَعْمَلُ له. قال : فكونوا أمناءَ على عماله، فأي عاملٍ منهم عَمِلَ بغير الحقِّ فاعْزِلُوه. قالوا : ولا هذا. وقرأوا كتاب عمر، فقالوا : نُوَجِّهُ رجلين يُكلِّمانه، فإن أجابَنا فذاكَ، وإن أبى كان الله مِنْ ورائه.

فأرسلوا مَوْلى لبني شيبان يقال له : عاصم، ورجلاً من بني يشكر من أنفسهم. فقدموا جميعاً على عمر، وهو بِخُناصرة، فصعد إليه عَوْن ومحمد ابن الزبير، وهو في غُرْفَةٍ، وعنده ابنه عبد الملك وكاتبه مزاحم، فأخبراه بمكانِ الرجلين، فقال : فَتِّشوهما لعلَّ معهما حديداً، ثم أَدْخِلُوهما، ففعلا، فلما دَخَلا قالا : السلام عليكم وجلسا، فقال عمر : ما أَخْرَجَكُمْ هذا المَخْرَجَ ؟ وما الذي نَقَمْتُمْ ؟ فقال عاصم، وكان حَبَشياً : ما نَقَمْنا سِيرتك، فإنك لَتَتحرَّى العَدْلَ والإحسان. فأَخْبِرْنا عن قيامك بهذا الأمر، أَعَنْ رضى من المسلمين ومشورةٍ كان أم ابتَزَزْتُمْ إمْرَتَهم ؟ قال : ما سأَلْتُهُمُ الولاية عليهم، ولا غَلَبْتُهُمْ على مَشيئَتهم، وعَهِدَ إليَّ رجلٌ عهداً لم أَسْأَلْهُ اللهَ قطُّ في سِرٍّ ولا علانيةٍ. فَقُمْتُ به، ولم يُنْكِرْهُ عليَّ أحدٌ، ولم يكرَهْهُ غيركم، وأنتم ترون الرِّضى بكلِّ مَنْ عَدَلَ وأَنْصَفَ من كان من الناس، فأنزلوني ذلك الرَّجل، فإنْ خالفتُ الحقَّ وزُغْت عنه، فلا طاعة لي عليكم. قالا : بيننا

وبينك أمرٌ واحدٌ. قال : وما هو ؟ قالوا : رأيناك خَالَفْتَ أعمال أهلِ بَيْتِكَ، وسَمَّيْتها مظالم، وسَلَكْتَ غير طريقهم، فإنْ كنتَ على هُدىً، وهم على ضلالةٍ فالعَنْهُمْ وابرأ منهم. فقال عمر : قد عَلِمْتُ أنكم لم تَخْرُجوا طلباً للدنيا، ولكنكم أردتم الآخرة، فأخطأتُمْ طريقها. إن الله لم يَبْعَثْ رسوله ﷺ لَعَّاناً، وقال إبراهيم : « فمن اتَّبَعَني فإنَّه مني، ومَن عصاني فإنَّك غفورٌ رحيمٌ »، وقال الله : « أولئكَ الذين هَدَى الله فَبِهُداهم اقْتَدِهْ »، وقد سَمَّيتُمْ أعمالهم ظُلماً، وكفى بذلك ذمّاً ونَقْصاً. فأبلوا الله حَسَناً فيما آتاكم، ودعوا ما فاتَكُمْ، فليس لَعْنُ أهلِ الذُّنوب فريضةً لا بُدَّ منها، فإنْ قُلْتُم : إنها فريضةً فأَخْبرني أيُّها المتكَلِّمُ متى لَعَنْتَ فرعون ؟ قال : ما أَذْكُرُ متى لَعَنْتُهُ. قال : أفيَسَعُكَ ألاَّ تَلْعَنَ فرعون، وهو أَخْبَثُ الخَلْقِ وشرهم، ولا يَسَعُني إلاَّ لَعْنُ أهل بيتي، وهم مُصَلُّونَ ؟ قال : أَوَمَاهُمْ كفارٌ بِظُلْمِهم ؟ قال : لا، لأن رسول الله ﷺ دعا الناس، فكلُّ مَنْ أَقَرَّ بالإيمان وشرائعه قُبِلَ منه. فإنْ أَحْدَثَ حَدثاً أقيمَ عليه الحَدُّ. فقال الخارجي : إنَّ رسول الله ﷺ دعا الناسَ إلى التَّوحيدِ بالله والإقرار بما أنزل من عنده، والعَمَلِ بما سنَّ مِنْ سُنَّته، ولو قالوا : نُؤْمن بما جاء من عند الله ونُخالِفُ سُنَّتَكَ ما قَبِلَ ذلك منهم. فقال عمر : فليس أحدٌ يقول : لا أعمَلُ بِسُنَّةِ رسول الله ﷺ، ولكن القوم أسْرَفُوا على أنفسهم، عَلى عِلْمٍ منهم بأن الذي أتوا مُحَرَّمٌ عليهم ولكن غَلَبَ عليهم السُّفهاء. قال: فَابْرأ مَمَّنْ خَالَفَ أَعْمالَكَ ورُدَّ أحكامهم. قال: أخبرني عن أبي بكر وعمر، أَلَيْسا من أسلافكم؟ قال: بلى، قال: فهل تعلمون أنَّ أبا بكر حين قُبِض النبي ﷺ، وأَرْتَدَّتِ العرب قَاتَلَهُم، فَسَفَكَ الدِّماءَ، وسَبَى الذَّراري، وأخذ الأموال ؟ قالا : نعم، قال : افَتَعْلَمُونَ أَنَّ عمر رَدَّ السَّبايا بعده إلى عشائرهم بِفدْيةٍ فَدَوْهُمْ بها ؟ قالا : نعم، قال فهل بَرِىء عمر من أبي بكر ؟ قالا : لا، قال : افتَبْرأونَ أنتم من واحدٍ منهما ؟ قالا لا، قال : فأخبروني عن أهل النَّهر، وهم من أسلافكم، هل تعلمون أنَّ أهل الكوفة

خرجوا فلم يسفكوا دماً، ولم يأخذوا مالاً، وأنَّ من خَرَجَ اليهم من أهل البصرة اعْتَرضُوا وقَتَلوا عبدالله بن خَبَّاب وجارِيَتَهُ ؟ قالا : نعم، قال : فهل بَرِيءَ من لم يَقْتُلْ مِمَّنْ قَتَلَ واستعرض ؟ قالا : لا، قال : أفَتَبْرأونَ أنتم من إحدى الطائفتَيْنِ ؟ قالا : لا، قال : أفَوَسِعَكُمْ أن تَوَلَّيْتُمْ أبا بكرٍ وعمرَ وأهلَ البصرة وأهل الكوفة، وقد عَلِمْتُمْ اختلافَ أعمالهم في الفروج والأعمال، ولا يَسَعُني إلاَّ البراءةُ من أهل بيتي، والدِّينُ واحدٌ ! فاتقوا الله، فإنكم جُهَّالٌ، تَقْبَلونَ من الناس ما رَدَّ عليهم رسول الله ﷺ، وتردُّونَ عليهم ما قَبِلَ منهم، ويَأمَنُ عندكم من خاف عنده، ويخافُ عندكم من أمِنَ عنده، ويخاف عندكم من شهد أن لا إله إلاَّ الله، وأنَّ محمداً عبده ورسوله، وكان مَنْ فَعَلَ ذلك عند رسول الله ﷺ آمنه وحَقَنَ دَمَهُ، وأحْرَزَ مالَهُ، ووَجَبَتْ حُرْمَتُهُ، وأنتم تَقْتُلُونَهُ ولا تَقْتُلُونَ سائر أهل الأديان فتحرمون دماءهم، ويأمنون عندكم ؟ قال الشيكري : أرأيْتَ رجلاً وَلِيَ قوماً وأموالهم، فَعَدَلَ فيها، ثم صَيَّرَها بعده لرجلٍ غير مأمون، أتراه أدَّى الحقَّ الذي يَلْزَمُهُ، أو تراه قد سلم ؟ قال : لا، قال : أفَتُسْلِمُ هذا الأمر ليزيد من بعدك، وأنت تعرف أنه لا يقوم فيه بالحق ؟ قال : إنما وَلاَّه غَيْري، والمسلمون أوْلى بما يكون منهم فيه بعدي. قال : أفَترى ما صَنَعَ من ولاَّهُ حقّاً ؟ فبكى عمر، ثم خرجا. فقال مولى بني شيبان : لقد رأيتُ رجلاً يَتَحَرَّى الخيرَ، وما سمعت حُجَّةً أبينَ، ولا مأخذاً أقربُ من قوله. فارجع بنا إليه. فرجعا، فقال عاصم الحبشي : أما أنا فأشهد أنك على الحق. فقال عمر لصاحبهِ اليشكري : ما تقولِ أنت ؟ قال : ما أحْسَنَ ما قلت وما وصفت، ولكني لا أفتاتُ على المسلمين بأمرٍ حتى أعرض عليهم ما قلت. وأعلمُ ما حُجَّتُهم. فمضى الرجلان، وسَرَّحَ عمر معهما رجلاً يَعْلَمُ خبرَ القوم. فأخبرهم اليشكُريُّ بما جرى بينه وبين عمر، فأقاموا وقالوا : كُفُّوا عنه ما تَرككم. فقال لهم رسول عمر : فهو يكفُّ عنكم ما لم تُفْسِدوا. فرجع إلى

عمر، ونزل بسطام وأصحابه حزة من الموصل، وأقامَ عاصمٌ الحبشي عند عمر، فأمر له بعطاءٍ، فمات بعد خمسة عشر يوماً. وكان عمر يقول : أهْلكني أمر يزيد، وخَصَموني فيه، فأستغفر الله ».

وقد تَبَيَّنَ للخوارج سَماحةُ عمر وَوَفاؤهُ، وثَبَتَ لهم صِدْقُهُ وإخلاصُهُ في دَعْوتِهِ إلى العَمَل بالكتاب والسُّنَةِ، فَأَمِنُوهُ واطمأنُّوا إليه، ولم يَخافوا غائلته، وأخذوا يفدون عليه دون أنْ يُكاتبهم أو يَسْتَدعيهم، فكان يَسْتَقْبلُهم، ويَفْسَحُ لهم في مجالسه، ويَسْمَحُ لهم أنْ يُدارسوهُ في الأمور الدينية والمالية والسياسية، متغاضياً عن خشونتهم، وحالماً عن حِدَّتهم، وكان يُتابعهم في كثير من أفكارهم الإسلامية، ويؤكد لهم أنَّه يلتزم بها، ويسعى في تطبيقها، قال ابن عبد الحكم[1] : « دخل رجلان من الخوارج على عمر بن عبد العزيز فقالا : السلام عليك يا إنسان ! فقال : وعليكما السلام يا إنسانان ! قالا : طاعة الله أحقُّ ما اتبعت. قال : من جهل ذلك ضَلَّ. قالا : الأموال لا تكون دولةً بين الأغنياء. قال : قد حُرِموها. قالا : مالُ الله يُقْسَمُ على أهله. قال : الله بيَّنَ في كتابه تَفْصيلُ ذلك. قالا : تُقَامُ الصلاةُ لِوَقْتها. قال : هو من حقها. قالا : إقامة الصفوف في الصلوات. قال : هو من تمامِ السُّنَّةِ قالا : إنَّا بُعِثْنا إليك. قال : بَلِّغَا ولا تَهابا. قالا : ضَعِ الحقَّ بين الناس. قال : الله أمَرَ به قبلكما. قالا : لا حُكْمَ إلاَّ لله. قال : كلمة حقٍ إنْ لم تَبْتَغوا بها باطلاً. قالا : ائتَمِنِ الأمناءَ. قال : هم أعواني. قالا : احْذَرِ الخيانة. قال : السارق مَحذور. قالا : فالخمرُ ولحمُ الخنزير. قال : أهل الشرك أحقُّ به. قالا : فمن دخل في الإسلام قد أمِنَ. قال : لولا الإسلام ما أمِنَّا. قالا : أهل عهود رسول الله ﷺ. قال : لهم عهودهم. قالا : لا

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز ص : ١٦٦، وبعض الخبر في أنساب الأشراف المخطوط ٢ : ١٥٧.

تُكَلِّفُهُم فوق طاقتهم. قال : « لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً ألاَّ وُسْعَها ». قالا : خرِّبِ الكنائس. قال : هي من صلاح رعيتي. قالا : ذكِّرنا بالقرآن. قال : « واتَّقوا يوماً تُرْجَعُونَ فيه إلى الله ». قالا : تَرُدَّنا إلى مَنْ أرْسَلَنا. قال : ما أحْبسُكما. قالا : فَمَا نقول لإخواننا. قال ما رأيْتُما وسَمِعْتُما. قالا : تَرُدُّنا على دَوَابِّ البريد. قال : لا هو من مال الله، لا نُطَيِّبُهُ لكما. قالا : فليس معنا نَفَقَةٌ. قال : أنتما إذنْ أبْنا سَبيلٍ عَلَيَّ نَفَقَتكُما ».

وضَيَّقَ الخوارج على عمر في أمْر يزيد بن عبد الملك، فقد غَلَبُوهُ بالحُجَّةِ البَيِّنَةِ، ولم يَتْرُكوا له مخْرجاً منه، فَوَعَدهم أنْ يُفكِّر في عَزْلِهِ عن ولاية العَهْد، ويقال : إن بني مروان سَمُّوه خِفاظاً على بقاءِ الخلافة فيهم، قال أبو عُبَيْدَةَ معمر بن المُثَنَّى في روايته لخبر وفود الخَارجِيِّين على عمر[1] : « دخلا عليه فَناظَراهُ فقالا له : أخبرنا عن يزيد، لِمَ تُقِرُّهُ خليفةً بعدَكَ ؟ قال : صَيَّرَهُ غيري. قالا : أفرأيتَ لو وليتَ مالاً لغيرك، ثم وكلته إلى غير مأمونٍ عليه، أتُراك كنت أدَّيتَ الأمانة إلى مَنْ ائتَمَنَكَ ؟ قال : فقال : أنْظِراني ثلاثاً، فَخَرجا من عنده. وخاف بنو مروان أنْ يُخْرِجَ ما عندهم وفي أيديهم من الأموال، ويخْلَع يزيد، فَدَسُّوا إليه من سقاهُ سمّاً، فلم يلبث بعد خُروجهما من عنده ثلاثاً حتى مات ». ويقول المسعودي[2] : « لعمر مع الخوارج أخبارٌ غير ما ذكرنا ومراسلاتٌ ومناظراتٌ ».

وفي آخر الخبر الذي رواه المدائني عن قدوم الخارجيين على عمر أنَّ الخوارج سالموا عُمَّالَ عمر حتى توفي، إذ يقول[3] : « كتب عمر إلى عبد

---

(١) تاريخ الطبري ٦ : ٥٥٥، وانظر تاريخ اليعقوبي ٢ : ٣٠٨، والكامل في التاريخ ٥ : ٤٧.

(٢) مروج الذهب ٣ : ٢٠٣.

(٣) أنساب الأشراف المخطوط ٢ : ١٦٨، والعيون والحدائق ٣ : ٤٧.

الحميد بن عبد الرحمن بن زَيْدِ بن الخطاب فيما كان بينه وبين الخوارج من القول والكتاب، ويأمره أن يكفَّ عنهم ما كَفُّوا وأنْ يُجَاهدهم إنْ قاتَلوهُ. فبعث عبد الحميد إليهم محمد بن جرير بن عبدالله البجلي في ألفين، وبعث عمرُ هلال بن أحوز في ألفٍ، وكان بسطام في ثلاثمائة، ويقال في ستمائة، وكان ابن جرير وهلال بإزائهم لم يُقَاتِلوهم حتى مات عمر ».

وفيما نَقَلَهُ ابن سعد عن الواقدي عمن عاصروا تَمَرُّد الخوارج، أو من كانوا من رُسُلِ عمر إليهم أنهم ظلوا يُصِرُّونَ على تكفير الخلفاء الأمويين السابقين بظُلْمهم، ويطالبون عمر بِلَعنهم، وهو يخالفهم، ويَمْتَنعُ عن موافقتهم، فأنكروا ذلك عليه، وعابوه به، وأتَّهموه بمُصَانَعةِ أهل بيته ومُلايَنَتِهِمْ، ثم حاربوا عامله بالكوفة، قال ابن سعد [1] : « أخبرنا محمد بن عمر قال : حدثني عبد الحميد بن عمران عن عون بن عبدالله بن عتبة قال : بعثني عمر بن عبد العزيز في خلافته إلى الخوارج الذين خرجوا عليه، فكَلَّمتُهمْ فقلت : ما الذي تنقمون عليه ؟ قالوا : ما ننقم عليه إلاَّ أنه لا يَلْعَنُ من كان قبله من أهل بيته، فهذه مُدَاهَنةٌ منه ! قال : فكف عمر عن قتالهم حتى أخذوا الأموال، وقطعوا السَّبيلَ، فكتب إليه عبد الحميد بذلك، فكتب إليه عمر : أمَّا إذا أخذوا الأموال، وأخافوا السَّبيلَ فقاتلوهم فإنهم رجْسٌ ».

وفي رواية أخرى أنَّ عمر نَصَحَ عبد الحميد أن يَجْنَحَ للسلم ما جَنَحوا له، وأنْ يُكافِحَهم ويَعْصِمَ الناسَ من شَرِّهم إنْ أفْسَدوا في الأرض، فلم يلبثوا أنْ حَارَبُوهُ وتَغَلَّبوا على جُنْدِه، فَلامهُ عمر، وأرسلَ إليه جيشاً من أهل الشام، فأوقَعَ بهم، وشَتَّتهُمْ، قال ابن سعد [2] : « أخبرنا محمد بن عمر

---

(١) طبقات ابن سعد ٥ : ٣٥٨.

(٢) طبقات ابن سعد ٥ : ٣٥٧، والخبر في أنساب الأشراف المخطوط ٢ : ١٥٧ : بِسَنَده وبِقَريبٍ من لفظه. وقد وردت العبارة الأخيرة فيه على النحو التالي : « فلم ينشب أن أظفره الله بهم » وهي أجود.

قال : حدثني عبد الرحمن بن أبي الزِّناد عن أبيه قال : خَرَجَتْ حَرورِيةٌ بالعراق في خلافة عمر بن عبد العزيز، وأنا يومئذ بالعراق مع عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد عامل العراق، فلما انتهى أمرهم إلى عمر كتب إلى عبد الحميد يأمره أن يدعوهم إلى العمل بكتاب الله وسُنَّة نَبِيِّه ﷺ، فلما أَعْذَرَ في دعائهم كتب إليه أنْ قَاتِلْهُمْ، فإنَّ الله، وله الحمدُ لم يَجْعَلْ لهم سلفاً صالحاً يَحْتجُّون به علينا. فبعث إليهم عبد الحميد جيشاً فهزمتهم الحرورية، فلما بلغ ذلك عمر بعث إليهم مَسْلَمةَ بن عبد الملك في جيش من أهل الشام، وكتب إلى عبد الحميد : قد بلغني ما فعل جَيْشُكَ جَيْشُ السُّوء، وقد بعثت إليك مسلمة بن عبد الملك، فَخَلِّ بينه وبينهم. فلقيهم مَسْلَمَةُ في أهل الشام، فلم يَنْشَبوا هم أن أَظْهَرَهُ الله عليهم ».

وفي رواية ثالثة أن عمر أَمَرَ عبد الحميد أنْ يَقْبِضَ على الخوارج ويَسْجُنَهم حتى يُظْهِروا التَّوبَة، فاعْتَقَل بعضهم، ولم يزالوا في سجنه حتى توفي عمر، قال ابن سعد (١) : « أخبرنا محمد بن عمر قال : حدثنا عبد الملك بن محمد عن أبي بكر بن حزم عن المنذر بن عبيد قال : حَضَرْتُ كتاب عمر بن عبد العزيز إلى عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد : ومَنْ أَخَذْتَ من أسراءِ الخوارج فاحبِسْهُ حتى يُحْدِثَ خيراً. قال : فلقد مات عمر بن عبد العزيز وفي حَبْسِهِ منهم عِدَّةٌ ».

ويُمَثِّلُ عمر بن عبد العزيز ظاهرةً فَذَّةً بين الخلفاء الأمويين، فقد اسْتَوْعَبَ المشكلات المختلفة التي تراكمت وتَعَقَّدت، وكان لها آثارها الخطيرة في النصف الثاني من القرن الأول، وحاول أن يَحُلَّها مُسْتَنيراً بالكتاب والسُّنَّة، ومُهْتَدياً بِسيرَةِ الخلفاءِ الرَّاشدين. ولكن الأيام لم تَطُلْ به حتى يَمْضي في تَطبيقِ خُطَّته الإصلاحية الإسلامية، ويُعيدَ للخلافة سَماحتها

(١) طبقات ابن سعد ٥ : ٣٥٨.

ويُسْرَها، ويُظَلِّلَ الناسَ بِعَدْلِها وخَيْرِها، ويَقْضِيَ على الإرهاب والعَسْفِ، ويُنْهِي الاحْتِكامَ إلى السَّيْف، ويَجْعَلَ أمور المسلمين شورى بينهم، ورأي الجماعة هو النَّافذَ فيهم.

(٣) « تَقْصير يزيدَ الثاني عن مُحاكاة عُمَرَ »

وأثَرَ منهجُ عمر بن عبد العزيز السِّلميُّ في سياسة بعض الخلفاء الذين تَعاقَبُوا على الخلافة بعده، وعلى ما في أخبار يزيد بن عبد الملك من تَحْريف وتَهويلٍ وتَشْنيعٍ وتشْهيرٍ[1] فإنها تُرَجِّحُ بعد نَقْدِها وتَمْحيصها أنَّه اسْتهلَّ خلافته بالتَّآسي بعمر بن عبد العزيز. قال عمر بن شبة[2]: « أراد يزيدُ بن عبد الملك أن يَتَشبَّهَ بعمر بن عبد العزيز، وقال: بماذا صَارَ عُمرُ أرْجى لِرَبِّه عز وجل مني »، وقال ابن الماجشون[3]: « لما مات عمر بن عبد العزيز قال يزيد: والله ما عمرُ بأحوَجَ مني إلى الله ». فالتزم مَنْهَجَهُ التزاماً شديداً، ونفَّذَ خطته الإصلاحية تَنْفيذاً دقيقاً، إذ أبقى على عُمَّاله جميعاً، وأمرهم أنْ يَسيروا بسيرته[4]. وراعى في سياستهِ أن يُوازن في

---

(١) انظر في ذلك ترجمته في أنساب الأشراف المخطوط ٢ : ١٧٩، وتاريخ اليعقوبي ٣ : ٣١٠، وتاريخ الطبري ٧ : ٢٢، والعقد الفريد ٤ : ٤٤١، والبدء والتاريخ ٦ : ٤٦، ومروج الذهب ٣ : ٢٠٧، والتنبيه والإشراف ص : ٢٧٧، والأغاني ٨ : ٣٣٩، ١٥ : ١٢٢، والفخري في الآداب السلطانية ص : ١١٨، وتاريخ دمشق المخطوط حـ ١٨، الورقة : ١٦١ و، والكامل في التاريخ ٥ : ١٢٠، والعبر في خبر من غبر ١ : ٢٢٤، وعيون التواريخ المخطوط حـ ٥، الورقة : ١٥ و، وتاريخ الخلفاء ص : ٢٤٦، وشذرات الذهب ١ : ٢٢٨.

(٢) الأغاني ٥ : ١٢٨.

(٣) تاريخ دمشق المخطوط حـ ١٨، الورقة : ١٦٣ و، وتاريخ الخلفاء ص : ٢٤٧.

(٤) تاريخ الطبري ٦ : ٥٨٩، وتاريخ دمشق المخطوط حـ ١٨، الورقة : ١٦٣ و، والبداية والنهاية ٩ : ٢٣٢، ومرآة الجنان ١ : ٢٢٤، وشذرات الذهب ١ : ١٢٨.

الوظائف بين القبائل المختلفة، وأنْ يُنْصِفَ المسلمين من أهل خراسان وسَمَرْقند[1] وإفريقية[2]، ويرفع عنهم ما وقع عليهم من ظُلْمٍ في الضَّرائب، فإنَّ العمال كانوا يأخذون الجِزْيَةَ منهم بعد إسْلامهم، فأمر بإسقاطِها عنهم، وجِبَايتها من أهل الذمَّة وحْدهم.

ولكن بعض المؤرخين يتَّهمونه بأنه أقْصى عُمَّالَ عمر، وألغى تدابيره المالية، يقول اليعقوبي [3]: « عَزَلَ يزيدُ عُمَّالَ عمر بن عبد العزيز جميعاً »، ويقول ابن عبد ربه [4]: « كتب يزيد إلى عُمَّالَ عمر : أما بعد، فإن عمر كان مَغْروراً، غَرَرْتُمُوهُ أنتم وأصحابكم، وقد رأيت كتبكم إليه في انكسار الخراج والضَّريبة. فإذا أتاكم كتابي هذا فَدَعوا ما كنتم تَعْرفون من عهده، وأَعِيدُوا الناس إلى وظيفتهم الأولى، أخصبوا أم أجْدَبُوا، حَيُوا أم ماتوا ». ويظهر أن الرسالة مُلَفَّقةٌ مُخْتَلقةٌ من خبر رواه المدائني، وهو يشير إلى أنَّ يزيد أبطَلَ بعض تراتيب عمر المالية في اليمن، إذ يقول [5]: « عَمَدَ يزيد بن عبد الملك إلى كل ما صَنَعَهُ عمر بن عبد العزيز مما لم يُوافِقْهُ فَرَدَّه، ولم يرْهَبْ فيه شُنْعَةً عاجلةً ولا إثْماً عاجلاً. وخَلَّفَ محمد بن يوسف أخو الحجاج على أهل اليمن وظيفةً جعلها خراجاً عليهم. فكتب عمر بن عبد العزيز إلى عامله يأمره بإلغاء تلك الوظيفة والاقتصار على العُشْرِ ونِصْفِ العُشْرِ، وقال : لأن يأتيني من اليمن حَفْنَةُ كَتْمٍ أحبُّ إليَّ من أن تُقَرَّ هذه الوظيفة. فلما ولي يزيد بن عبد الملك بعد عمر أمر بِرَدِّها، وكتب إلى

(١) الطبري ٦ : ٦٠٧، ٦١٥.

(٢) الطبري ٦ : ٦١٧.

(٣) تاريخ اليعقوبي ٢ : ٣١٠.

(٤) العقد الفريد ٤ : ٤٤١.

(٥) أنساب الأشراف المخطوط ٢ : ١٨٠، وانظر الكامل في التاريخ ٥ : ٦٧.

عروة بن محمد عامله : إن عمر بن عبد العزيز كان مغروراً منك ومن أشباهك، فأعِدْ على أهل اليمن الضَّريبة التي كان عمر أسْقَطها ».

ثم خرج يزيد بن المُهَلَّبِ بالعراق، وأيَّدته القبائل اليمانيةُ وأحْلافُها من القبائل الرَّبعيَّة في العراق وخراسان، فَقَوِيَ أمرُه، وخَلَعَ يزيد بن عبد الملك، وأساء القول في بني مروان، وزَعَمَ أنه أحقُّ بالخلافة منهم، ودعا إلى الرِّضا من بني هاشم، وتمكَّنَ مسلمة بن عبد الملك من القضاء عليه [1]، فَخَاف يزيد بن عبد الملك القبائل اليمانية، ونَحَّاها عن الوظائف في المدينة وخراسان وإفريقية، وقَرَّبَ القبائل القيسيَّة، واعتمد عليها، واختار عُمَّالهُ منها [2]، إلاَّ القبائل اليمانية الشامية التي سَانَدتهُ في مَحْقِ ثورة المهالبة، فإنه احْتفَظَ لها بمكانتها، وولَّى سادتها أعمالاً كثيرةً في دمشق وفي الأمصار الأخرى [3].

ورَاوَحَ يزيدُ في مَوْقِفِهِ من الخوارج بين التَّساهُلِ والتَّشَدُّدِ، فاسْتَصْلَحَ بعضهم، وصفَحَ عنهم، قال المدائني [4]: « خرج رجلٌ يقال له عُقْفـان بناحية دمشق في ثلاثين، فأراد يزيد بن عبد الملك أن يبعث إليه جُنْداً، فقيل

(١) انظر تاريخ خليفة بن خياط ص : ٤٧١، وتاريخ اليعقوبي ٢ : ٣١٠، وأنساب الأشراف المخطوط ٢ : ١٩٥، وتاريخ الطبري ٦ : ٥٧٨، والعيون والحدائق ٣ : ٥٣، ٦٥، ومروج الذهب ٣ : ٢١٠، والأغاني ١٤ : ٢٧٧، والكامل في التاريخ ٥ : ٧٩، ووفيات الأعيان ٦ : ٢٧٨، والبداية والنهاية ٩ : ٢١٩.

(٢) تاريخ الطبري ٦ : ٦٠٤، ٦٠٥، ٦١٧، ٦٢٠، والأغاني ٤ : ٢٥٤.

(٣) تاريخ خليفة بن خياط ص : ٤٨٥، ٤٨٧، وتاريخ اليعقوبي ٢ : ٣١٣، ٣١٤، ٣١٥، وتهذيب تاريخ ابن عساكر ٣ : ٢٤٣، ٦ : ٣٧١، ووفيات الأعيان ٦ : ٢٩٥.

(٤) أنساب الأشراف المخطوط ٢ : ٢٢٩، وانظر الكامل في التاريخ ٥ : ١١٨، والنجوم الزاهرة ١ : ٢٥١.

له : إنه إن قُتِلَ بهذه البلاد اتَّخذوها دار هجرةٍ، قال : فما الرأي ؟ قالوا : تبعث إلى كل رجلٍ رجلاً من أهل بيته يُكَلِّمُهُ ويَرُدُّه، فكان يبعث إلى كل رجلٍ أخاه، وابنه، وعمه، وابن عمه، وأباه، فكلّموهم وقالوا : نَخَافُ أنْ نُؤْخَذَ بكم ! وأومِنوا فَرَجَعوا. وبقيَ عُقْفان وَحْدَهُ، فبعث يزيد إليه أخاه، وكان أعْرَجَ يقال له : ربيعة، فقال له : يا أخي، إنا لا نأمن أنْ يَجْتاحَنا الخليفةُ ويَصْطلمنا [1]، فرجع إليه، وآمنه يزيد بن عبد الملك ».

وكافح المُتَصَلِّبينَ منهم، فأمَرَ عُمَّالَهُ بِمنازلتهم وقَتْلِهم في البحرين واليمامةِ والكوفةِ، مثل مسعود بن أبي زَيْنَب العَبْديِّ، وأخيه سعيد، ومصعب ابن محمد الوالبيِّ، ومحمد بن الصَّعْبِ، وجابر بن سَعْدٍ، وأصحاب سعيد ابن بَهْدلٍ كالبهلُولِ الشيباني، والضحاك بن قيس الشيباني [2]، وقَتَلَ مسلمةُ ابنُ عبد الملك بسطام بن مُرَّةَ الشيباني [3].

وإنما أضَرَّ بيزيد بن عبد الملك، وأزْرى بمنزلتهِ، وأخْملَ ذِكرَهُ قِصَّةُ حُبِّهِ لسلامة وحبابة، وتَعَلُّقُ الرواة من أهل الأهواء بأخباره معهما، وعَبثُهُمْ بها، وتَزيُّدهم فيها !.

---

(١) يَصْطَلمنا : يَسْتَأْصِلَنا.

(٢) أنساب الأشراف المخطوط ٢ : ٢٣٠، ٢٣٢، وانظر الكامل في التاريخ ٥ : ١١٨.

(٣) تاريخ الطبري ٦ : ٥٧٥، والعيون والحدائق ٣ : ٦٤، والكامل في التاريخ ٥ : ٦٨، والبداية والنهاية ٩ : ٢١٩.

(٤) « تَرْسيخُ هشامٍ للإصلاح والمُحاوَرةِ والمُسالمةِ ».

وتَمَثَّلَ هشام بن عبد الملك ما واجَهَهُ من مشكلاتٍ اقتصاديةٍ وسياسيةٍ واجتماعيةٍ مُزْمنةٍ مُسْتَعْصيةٍ أعمق التَّمثُّلِ، وجَدَّ في الحدِّ منها، والتغلب عليها، وَوَضْعِ نهايةٍ لها وفقاً للمفاهيم والأحكام الإسلامية. وكانت خُطَّتُهُ الإصلاحية مشابهةً لِخُطَّةِ عمر بن عبد العزيز، وهو يَتَميَّزُ منه بطولِ خِلافته، وكثرةِ تَطْبيقاته وإنجازاتِهِ.

ففي المجال الاقتصاديِّ دَقَّقَ في جباية الأموال، إذ أَمَرَ بأن تُجْمَعَ المقاديرُ الصحيحة للصدقات والخراج والجزية، وأشْرَفَ على ذلك بِنَفْسِهِ، فلم يكن يَسْمَحُ بأن يُرْسَلَ إلى بيت مال المسلمين إلاَّ ما زاد عن حاجات الناس في كلِّ مِصْرٍ من الأمصار، مما اسْتُوفيَ منهم بحقٍ وإنصافٍ، دون إرهاق لهم أو إحجافٍ بهم، ولم يكن يَقْبَلُ مالاً من أحدٍ من وُلاتِهِ إلاَّ إذا أقسم عليه شهودٌ عدول من أهلِ عَمَلِه، « فكان لا يُدْخِلُ بيتَ ماله مالاً حتى يَشْهَدَ أربعون قسامةً[1] : لقد أُخذَ من حَقِّهِ، ولقد أعطيَ لكل ذي حقٍ حَقَّه[2] ». وعاقَبَ على الغِشِّ والكذبِ في ذلك عقاباً صارماً رادعاً، قال البلاذري[3] : « قالوا بعث خالد بن عبد الله القسري إلى هشام بمـال،

(١) القسامة : الجماعة يقسمون على الشيء، أو يشهدون، ويبين القسامة متسربة إليهم.

(٢) تاريخ الخلفاء ص : ٢٤٧.

(٣) أنساب الأشراف المخطوط ٢ : ٢٥٠.

وأرسل قوماً يشهدون بأنه طيِّبٌ أُخِذَ من حِلِّه، فصَانَعَ رجلٍ بألفي درهمٍ حتى جُعِلَ مع الشهود، وصُيِّرَ آخرهم، فقدموا على هشام، فقال ابن المزكون : فدعا رجلاً رجلاً، فحلفوا بالله أنه ما أَخَذَ شيئاً من ذلك المال إلاَّ من حَلالٍ، ولا حَمَلَ إليه خالد إلاَّ الفَضْلَ بعد أن أعطي لِكُلِّ ذي حقٍ حَقَّهُ، حتى قام ذلك الرجل المصانِعُ بألفين، فحَلَفَ بالله : لقد شهدوا بزور وفجورٍ، فقال هشام : أراك مُسْتأجراً، فقال : لقد صَانَعْتُ بألفي درهم حتى أُلحِقْتُ بالشُّهود، قال : أفأنت خارجيٌّ ؟ قال : لا، والله ما أنا بخارجي، ولكني نظرت لك، فاتَّقِ الله، فقال هشام لمن حضر : ما ترون ؟ فقالوا : نرى أنْ تَقْتُلَهُ، فإنَّ له مذْهب سوءٍ، وإلاَّ فلِمَ صَانَعَ، لِيَخْبُثَ بنفس أمير المؤمنين، ويَجْرَحَ كلَّ شهادات مثل هؤلاء ؟ فَقَتَلَهُ وصَلَبَهُ، ويقال : بعثَ به إلى خالدِ فَقَتَلَه وصَلَبَهُ بواسط ».

وكان هشام حريصاً على أموال المسلمين حرصاً شديداً، فلم يكن ينفق منها إلاَّ في الوجوهِ المَشْروعةِ، وبلغ من حِفْظِهِ لها أنه لم يكن يأمُرُ بِدَفْعِ عطائهِ ولا بِدَفْعِ عطاءِ أحدٍ من الأمراء الأمويين إلاَّ إذا قاتَلَ وجاهَدَ، أو أَخْرَجَ من يُقَاتِلُ عنه ويُجاهِدُ، قال البلاذري [1] : « قالوا : لم يكن أحدٌ من بني مروان يأخذُ عطاءً إلاَّ وعليه الغَزْوُ فمنهم من كان يغزو بنفسه، ومنهم من يُخْرِجُ بديلاً. وكان لهشام مولى يقالُ له يعقوب، فكان يأخذ عطاء هشام، وهو مائتا دينارٍ ودينارٌ، يُفَضّلُ بدينار، فيأخذ يعقوب ذلك ويغزو عنه. وكانوا يُصَيِّرون أنفسهم في أعوانِ الديوان، وفي بعض ما يَجوزُ لهم معه المقام، فيوضَعُ عنهم الغزو ». وكان يأبى أن يزيدَ عطاء أحدٍ من مواليه [2]. وكان حِفظهُ لمالِ المسلمين، ومَنْعُه له من التَّبذير سبباً من أسباب تَبخيله.

(١) أنساب الأشراف المخطوط ٢ : ٢٤٢، وانظر الطبري ٧ : ٢٠٢.

(٢) أنساب الأشراف المخطوط ٢ : ٢٤٣.

وفي المجال السياسيِّ أوصَى عُمَّالَهُ أن يَرْفقوا بالمعارضين لهم، ولا يَعْنُفُوا بهم، وأنْ يُحْسِنوا استمالتهم ومقاربتهم، ولا يلجأوا إلى مُعاداتهم ومُقَاتَلتهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، قال الواقدي [١] : « أخبر سَحْبَلُ بن محمد قال : مارأيت أحداً من الخلفاء أكْرَهَ إليه الدِّماءُ ولا أشدَّ عليه من هشام بن عبد الملك ». وسعى أنْ يحكُمَ بالعَدلِ بين القبائل الكبيرة وأحْلافها، فانتَخَبَ وُلاتَهُ من القَيْسيَّة واليَمانيَّة [٢]، لتتكافأ القبائل في القَدْرِ والسُّلطان، وتتساوى في المصالح والفوائد، وتَنْسَى الإحن والضَّغائن، وتُقْلِعَ عن التَّدابر والتَّناحُر، وتبادر إلى التَّضَامن والتَّعاون. وهادن القدرية ومُرْجِئة الجبرية، ووادعَ الخوارجَ والشيعة، واصطنع علي بن عبدالله بن عباس وابنه محمداً، فكان يَسْتَقبلهما ويَقْضي عنهما ديونهما ويُجيزُهما [٣].

وفي المجال الاجتماعيِّ اهتمَّ بالموالي في خُراسان، وحاول أنْ يَحُلَّ مُشْكلاتهم الاجتماعية والمالية. فبَحَثَ عن رجلٍ « له عِلمٌ بخراسان ومعرفة بمن فيها مِنْ قُوَّادِها وجُنُودِها [٤] »، فَبَعَثَ إليه يوسف بن عمر الثَّقفيِّ واليه على العراق عبدَ الكريم بنَ سليطِ بن عطية الحَنَفيِّ، وكان من أهل خراسان، ومن العلماء بأُمُورِها، فسأله هشامٌ عن قبائلها وسادَتها وعَمَّنْ يَصْلحُ منهم لِوِلايتها، فَرَشَّحَ له غير واحدٍ من سادةِ القبائلِ اليَمانيةِ والرَّبَعيَّة والقَيْسيَّةِ، فَرَفَضَهُمْ جميعاً، لِغَلَبَةِ العَصَبيَّة عليهم، واستعملَ عليها نَصْرَ بنَ سيارٍ الكناني، لطول حياته بها، ودِرايتهِ بأهلِها، وخِبْرته بِأحْوالها [٥]. فانحازَ

---

(١) طبقات ابن سعد ٥ : ٣٢٦، وانظر فوات الوفيات ٤ : ٢٣٨، والبداية والنهاية ٩ : ٣٥٢، وتاريخ الخلفاء ص : ٢٤٨.

(٢) انظر تاريخ خليفة بن خياط ص : ٥٣٤، ٥٤٥، وتاريخ اليعقوبي ٢ : ٣١٦، ٣١٩، ٣٢٨، ٣٣٠.

(٣) العقد الفريد ٥ : ١٠٤، وأخبار الدولة العباسية ص : ١٤١، ١٧٢، ١٧٩.

(٤) الأخبار الطوال ص : ٣٣٩.

(٥) الأخبار الطوال ص : ٣٤، وتاريخ الطبري ٧ : ١٥٥، والعيون والحدائق ٣ : ١٠٥.

نصرٌ إلى المُضَرِيَّةِ في السنواتِ الأربعِ الأولى من ولايته، وتحَزَّبَ على اليَمانيَّةِ وأحلافِهم من الرَّبعيَّةِ، واضْطَهَدَهُم، لأنَّ أسَدَ بن عبدالله القسري كان ظَلَمَ المضرية وأساء إليهم، وقَدَّم اليَمانيَّة حتى أفسَدَ الناس [1]. ثم إنه عَدَلَ عن العَصَبيَّةِ القَبَليَّةِ وأشْرَكَ القبائِلَ كلَّها في الوَظائفِ، فَوَلَّى رَبيعة واليَمَن، وأمَرَ مُوَظَّفيه بِحُسْنِ السِّيرة [2]. وفَرَضَ الجِزْيَةَ على أهل الذِّمةِ، واسْتوفى الخَراجَ من الموالي المسلمين، وجَبَى المبالغَ الصَّحيحةَ التي صُولح عليها أهْلِ خُراسان يَوْمَ الفَتْح، وأذَنَ لكلِّ مَنْ لَهُ شِكايةٌ منهم أنْ يَعْرِضَها على مُوَظَّفيه حتى يَنْظُروا فيها ويُزيلوا الظُّلْمَ عنه، فقد خَطَبَ الناسَ في يوم جمعةٍ بمسجدِ مَرْو الشَّاهجان فقال [3]: « اسْتَعْمَلْتُ عليكم منصور ابن عمر بن أبي الخرقاء وأمرْتُهُ بالعَدْلِ عليكم، فأيُّما رَجُلٍ منكم من المسلمين كان يُؤخَذَ منه جِزْيَةٌ من رأسهِ، أو ثُقِّلَ عليه في خَراجهِ، وخُفِّفَ مثْلُ ذلك عن المشركين فليَرفَعْ ذلك إلى المنصور بن عمر، يُحَوِّلْهُ عن المُسْلمِ إلى المُشْركِ، فما كانت الجمعة الثانية حتى أتاهُ ثلاثون ألفَ مُسْلمٍ، كانوا يُؤدُّونَ الجزْيةَ عن رؤوسهم، وثمانون ألفَ رجلٍ من المشركين، قد أُلْقِيَتْ عنم جِزْيَتُهم، فحَوَّلَ ذلك عليهم، وألقاهُ عن المسلمين. ثم صَنَّفَ الخراجَ حتى وَضَعَهُ مَواضِعَهُ، ثم وَظَّفَ الوظيفةَ التي جَرَى عليها الصُّلْح »، « وعَمَرَتْ خراسان عمارةً لم تَعْمُرْ قبلَ ذلك مِثْلَها، وَوَضَعَ الخَراجَ، وأحْسَنَ الوِلايةَ والجِبابة [4] ».

---

(١) تاريخ الطبري ٧ : ١٤٩، ١٥٧، والكامل في التاريخ ٥ : ١٤٢.

(٢) تاريخ الطبري ٧ : ٢٨٧.

(٣) تاريخ الطبري ٧ : ١٧٣، والكامل في التاريخ ٥ : ٢٣٦.

(٤) تاريخ الطبري ٧ : ١٥٨.

ولَم يَزَلْ هشام بن عبد الملك يُداري المعارضين للخلافة الأموية من القَدَريَّة ومُرْجئةِ الجبرية، ويُجَامِلُهُم ويُلاطِفُهم، ويُجادِلُهم ويُناظِرُهم مُتوخِّياً أنْ يَسْتَتيبهم ويَسْتَخْلِصَ طاعَتَهم. وكان لا يَبْطِشُ بهم ما داموا هادئينَ لا يَشْغُبونَ به، ولا يُثيرُون الناس عليه، فقد ناقش غَيْلانَ الدِّمشقيَّ[1]، والجَعْدَ ابن درهم[2]، وأنْذَرَهُما، وغَضَّ طرفهُ عنهما زمناً طويلاً. وسَالَمَ الخوارج، فسكنوا خمسة عشر عاماً، وأمسكوا عن الانتفاض عليه، والانقضاض على عماله، وذكر اليعقوبي أنه استدعى زعماءهم، وناقشهم، ولم يزل بهم حتى أقنعهم بِمَنْهَجهِ في الحكْمِ، فدخلوا في طاعته، وأصبحوا من أصحابه، إذ يقول[3]: « جمع إليه الخوارج فقال: يا قوم، خَافُوا الله ولا تَدَعُوا الجهاد، فبايعوه ». وكان هشام يقول[4]: « إني لستُ بأحدٍ أوْثَقَ مني بالبُهلول بن بشر[5] الشَّيباني ». وعيَّنَ التَّائبينَ منهم في بعض الوظائف، فَنَهَضوا بهـا وأحْسَنُوا القيامَ عليها، وأخْلصُوا له أشدَّ الإخلاص، ومنهم عُقْفانُ الخارجي، قال المدائني[6]: « لما وَلِيَ هشام بن عبد الملك وَلاَّه أمرَ العُصَاةِ، فَقَدِمَ ابنُهُ تَمَّةُ بنُ عُقْفان من خراسان غاضباً، فَشَدَّهُ وثاقاً، وبعث به إلى هشام، فقال هشام: لو خاننا عُقْفَانُ لَكَتَمَ أمرَ ابنه، ثم قال لِتَمَّة: قد وَهَبْتُكَ

(١) أنساب الأشراف المخطوط ٢ : ٢٤٦، وتاريخ الطبري ٧ : ٢٠٣، والعقد الفريد ٢ : ٣٧٩، وتاريخ دمشق المخطوط ١٤ : ٩٦، والبداية والنهاية ٩ : ٣٥٣.

(٢) أنساب الأشراف المخطوط ٢ : ٢٤١، وأنساب الأشراف ٣ : ١٠٠، والكامل في التاريخ ٥ : ٤٢٩، والبداية والنهاية ٩ : ٣٥٠.

(٣) تاريخ اليعقوبي ٢ : ٣٢٢.

(٤) تاريخ اليعقوبي ٢ : ٣٢٢، وانظر تاريخ الطبري ٧ : ١٣٠.

(٥) في الأصل: البهلول بن عمير الشيباني، والتصحيح من أنساب الأشراف المخطوط ٢ : ٢٣٢، وتاريخ الطبري ٧ : ١٣٠، والعيون والحدائق ٣ : ١٠٩، والكامل في التاريخ ٥ : ٢٠٩.

(٦) أنساب الأشراف المخطوط ٢ : ٢٣٠، وانظر النجوم الزاهرة ١ : ٢٥١.

لأبيك، فالحَقْ بِمَكْتَبِك. وَوَلاَّهُ هشام الصَّدَقَةَ، وكان لأخيه أربعون شاةً، فَذَبَحَ شاةً منها، ثم سأل أخاه الصَّدَقَةَ، فقال : كانت لي أربعون شاةً فَذَبَحْتُمْ شاةً منها، وبقي لي تسع وثلاثون شاةً، فلا صَدَقَةَ عليها، فلم يُفَارِقْهُ حتى أخذَ منه الصَّدَقَةَ شاةً. ومَكَثَ عُقْفَانُ عشرين سنةً والياً لهشام ».

وصافي الشِّيعةَ، وأمر بالكفِّ عما يُؤذيهم ويَسْتَفِزُّهم، وتَرَضَّاهم بِمَنْعِ ذَمِّ علي بن أبي طالب، ولامَ بعض حَفَدة عثمان بن عفان وقَرَّعَهُ، لأنه نصحه أن يَسُبَّ علياً حينَ حجَّ سنةَ ستٍ ومائة، قال الواقدي[1] : « حدثني ابن أبي الزناد عن أبيه قال : كتب إلي هشام بن عبد الملك قبل أن يدخل المدينة : أن اكتُبْ لي سُنَنَ الحج، فكَتَبْتُها له، وتَلَقَّاهُ أبو الزناد، قال أبو الزِّناد : فإني يومئذٍ في الموكب خلفه، وقد لقِيَهُ سعيد بن عبدالله بن الوليد ابن عثمان بن عفان، وهشام يَسيرُ، فنزل له فَسَلَّمَ عليه، ثم سار إلى جنْبِه، فصاح هشام : أبو الزناد ! فتَقَدَّمْتُ، فَسِرْتُ إلى جَنْبِهِ الآخر، فأسمع سعيداً يقول : يا أمير المؤمنين، إنَّ الله لم يزل يُنْعِمُ على أهل بيت أمير المؤمنين، ويَنْصُرُ خليفتَهُ المظلوم، ولم يزالوا يَلْعَنُونَ في هذه المواطن الصالحة أبا تُرابٍ، فأمير المؤمنين ينبغي له أن يلعنه في هذه المواطن الصالحة، قال : فَشَقَّ على هشام، وثَقُلَ عليه كَلامُهُ، ثم قال : ما قَدِمْنا لِشَتْمِ أحدٍ ولا لِلَعْنِه، قَدِمْنا حُجَّاجاً، ثم قَطَعَ كَلامَهُ وأقبل علي فقال : يا عبدالله بن ذكوان، فَرَغْتَ مما كتبتُ إليك ؟ فقلت : نعم. فقال أبو الزناد : وثَقُلَ على سعيدٍ ما حَضَرْتُهُ يتكلَّمُ به عند هشام، فرأيتُهُ مُنكَسِراً كلما رآني ».

واسْتَقْدَمَ زيدَ بن علي، وتَدَبَّرَ بنفسه بعضَ قضاياه المالية الشائكة، وبَتَّ

(١) تاريخ الطبري ٧ : ٢٣٥، وانظر العيون والحدائق ٣ : ٨٨، والكامل في التاريخ ٥ : ١٣٠، وشرح نهج البلاغة ٤ : ٥٧، والبداية والنهاية ٩ : ٢٣٤.

فيها وأنْصَفَه، وأوصى يوسف بن عمر الثقفي به [1]. وناقشه في مجلس آخر في الإمامة، وقال له [2]: « أنت الذي تُنَازِعُك نَفْسَكَ في الخِلافة »، أو « لقد بلغني أنَّك تذكر الخلافة وتَتمنَّاها [3] »، أو « لقد بلغني أنك تُؤَهِّلُ نَفْسَكَ لِلْخِلافَة [4] »، أو « بَلَغَني أنَّ نَفْسَكَ تَسْمُو بك إلى الإمامة [5] »، ودَفَعَهُ عنها، لأنه ابن أمةٍ، وكان الأمويون يَعْتَقِدُونَ أنَّ الخلافَةَ لا تَصْلُح لأبنا الإماء [6]، وتَجَهَّمَهُ وأسْمَعَهُ كلاماً شديداً [7].

ويُعَدُّ كتابُ هشام إلى يوسف بن عمر الثقفي في أَمْرِ زيد بن علي وأنصاره بالكوفة من أدَقِّ الوثائق السياسيَّةِ وأهَمِّها، لأنه يُصَوِّرُ رأيَ هشام في خُصُومِهِ، ويُظْهِرُ التَّغيُّرَ في مَوْقِفِهِ منهم بالقياس إلى مواقف الخلفاءِ السابقين، إلاَّ عمرَ بنَ عبد العزيز، وهو يتوالى على هذا النَّمط [8]: « أمَّا بَعْدُ، فقد عَلِمْتَ بحالِ أهْلِ الكوفةِ في حُبِّهم أهلَ هذا البَيْتِ، ووَضْعِهِم إياهم في غير مَواضِعِهِم، لأنهم افْتَرَضوا على أنفسهم طاعتهم، ووظَّفوا عليهم شرائعَ دينهم، ونَحولهم عِلْمَ ما هو كائن، حتى حَمَلُوهُم من تَفْريق الجماعة على حالٍ اسْتَخَفُّوهم فيها إلى الخروج، وقد قدم زيد بن علي على أمير المؤمنين في خُصُومةِ عمر بن الوليد، فَفَصَلَ أمير المؤمنين بينهما، ورأى

---

(١) تاريخ الطبري ٧ : ١٦٢، ١٦٣، ومقاتل الطالبيين ص : ١٣٤، والكامل في التاريخ ٥ : ٢٢٩.

(٢) أنساب الأشراف المخطوط ٢ : ٢٦٠، ومروج الذهب ٣ : ٢١٨.

(٣) تاريخ الطبري ٧ : ١٦٥، والعيون والحدائق ٣ : ٩٣، والكامل في التاريخ ٥ : ٢٣٢.

(٤) تاريخ اليعقوبي ٢ : ٣٢٥.

(٥) تهذيب تاريخ ابن عساكر ٦ : ٢٣.

(٦) تهذيب تاريخ ابن عساكر ٥ : ٢٠٦، ٦ : ٢٣، وشرح نهج البلاغة ٧ : ١٥٧، وعيون التواريخ المخطوط ٥ : ٢٠ ظ، والبداية والنهاية ١٠ : ٤٧.

(٧) طبقات ابن سعد ٥ : ٣٢٥، وتهذيب تاريخ ابن عساكر ٦ : ٢٤.

(٨) تاريخ الطبري ٧ : ١٦٩.

رجلاً جدلاً لَسِناً خَليقاً بِتمويهِ الكلام وصَوْغِهِ، واجترار الرجال بحلاوةِ لِسَانه، وبكثرة مخارجِهِ في حُجَجِهِ، وما يُدْلي به عند لَدَدِ الخِصامِ مِنَ السَّطوَةِ على الخَصْمِ بالقوة الحادة لِنَيلِ الفَلَج (١)، فَعَجِّلْ إشخاصَهُ إلى الحجاز، ولا تُخَلِّهِ والمُقَامَ قَبلك، فإنه إنْ أعارَهُ القومُ أسماعَهُمْ فَحَشاها من لَيِّنِ لَفْظِهِ، وحلاوة مَنْطِقِهِ، مع ما يُدْلي به من القرابة برسول الله ﷺ، وجَدَهم مُيَّلاً إليه، غيرَ مُتَّئدة قلوبهم، ولا ساكنةٍ أحْلامُهم، ولا مَصُونةٍ عندهم أديانُهم، وبعض التَحامُل عليه فيه أذى له، وإخراجُهُ وتَرْكُهُ مع السلامة للجميع، والحَقْنِ للدماءِ، والأمْنِ للفُرْقةِ أحبُّ إليَّ من أمرٍ فيه سَفْكُ دمائهم، وانتشار (٢) كلمتهم، وقَطْعُ نَسْلِهم، والجماعة حَبْلُ الله المَتينُ، ودينُ الله القويم، وعُرْوَتُهُ الوُثْقى، فادْعُ إليك أشرافَ أهلِ المِصْرِ، وأوْعِدْهُمُ العُقوبة في الأبشار (٣)، واسْتِصْفاء الأموال، فإنَّ مَنْ له عَقْدٌ أو عَهْدٌ منهم سَيُبْطِىءُ عنه، ولا يخفُّ معه إلاَّ الرَّعاعُ وأهلُ السَّوادِ ومن تُنْهِضُهُ الحاجة اسْتلذاذاً للفِتْنةِ، وأولئك ممن يَسْتَعْبِدُ إبليس، وهو يَسْتَعْبِدُهم، فبادهم بالوعيد، واعضُضْهُم بسوطِك، وجَرِّدْ فيهم سَيْفَك، وأخِفِ الأشراف قبل الأوْساطِ، والأوساطَ قبلَ السِّفْلَةِ. واعلم أنَّكَ قائمٌ على باب ألفةٍ، وداعٍ إلى طاعةٍ، وحاض على جماعةٍ، ومُشمِّرٌ لدين الله، فلا تستَوحِشْ لكثرتهم، واجعل مَعْقلكَ الذي تأوي إليه، وصَغْوَكَ (٤) الذي تخرج منه الثِّقَةَ بربك، والغَضَبَ لدينك، والمحاماة عن الجماعة، ومُناصبَةَ من أراد كَسْرَ هذا الباب الذي أمرهم الله بالدُّخولِ فيه، والتَّشاحَّ عليه (٥)، فإن أمير المؤمنين قد أعْذَرَ

(١) الفلج : الفوز والظفر.

(٢) انتشار الكلمة : تفرقها.

(٣) الأبشار : ظاهر الجلود.

(٤) الصغو : الميل، يقال : صغوه معك أي ميله معك، وصاغية الرجل : الذين يميلون إليه ويأتونه.

(٥) التشاح : الحرص.

إليه، وقضى من ذِمامِه [1]، فليس له مَنْزى [2] إلى ادّعاءِ حَقٍّ هو له ظُلِمَهُ من نَصِيب نفسه، أو فَيْءٍ، أو صِلَةٍ لذي قُرْبى، إلا الذي خاف أميرُ المؤمنين من حَمْلِ بادرة السِّفْلة على الذي عسى أن يكونوا به أشقى وأضَلَّ ولهم أَمَرَّ، ولأمير المؤمنين أعزُّ واسهَلُ إلى حياطة الدِّينِ والذَّبِّ عنه، فإنه لا يحبُّ أنْ يَرَى في أمته حالاً مُتفاوتاً نكالاً لهم مُفْنياً فهو يَسْتَديمُ النَّظرة، ويتأتى للرشاد، ويَجْتَنِبُهم على المخاوف، ويستَجِرُّهم إلى المراشد، ويَعْدلُ بهم عن المهالك، فِعْلَ الوالد الشفيق على ولده، والرَّاعي الحَدب على رَعيَّتِهِ. واعلم أنَّ من حُجَّتِكَ عليهم في استحقاق نصرالله لك عند مُعانَدِتهم تَوفيتك أطْمَاعَهم، [3] وأعْطيةَ [4] ذُرِّيتهم، ونَهْيَكَ جُنْدَكَ أن يَنْزلوا حريمهم ودورهم، فانْتهز رضا الله فيما أنت بسبيله، فإنه ليس ذنبٌ أسرعَ تَعْجيلَ عقوبة من بَغى، وقد أوْقَعَهم الشَّيطانُ ودَلاَّهُمْ فيه، ودَلَّهُمْ عليه، والعِصْمةُ بتارك البغي أولى، فأميرُ المؤمنين يستعينُ الله عليهم وعلى غيرهم من رَعيَّته، ويسأل إلهَهُ ومَوْلاهُ وَوَلِيَّهُ أنْ يُصْلحَ منهم ما كان فاسداً، وأنْ يُسْرِعَ بهم إلى النَّجاةِ والفَوْزِ، إنه سميعٌ قريبٌ ».

فهو مُتآنٍ مُتريِّثٌ، ومُتَروٍّ مُتَلبِّثٌ، وهو راغبٌ في تَحْقيق الأمن لجميع المسلمين، كارهٌ لِلْفِتن والحروب، مِبْغِضٌ لإراقة الدِّماء، وهو حَريصٌ على الدين، حَفيظٌ عليه، صَليبٌ في الدفاع عنه، وهو حامٍ للخلافة، مُناضلٌ عن سُلْطان بن أمية، وهو يرجو أن يَرُدَّ الله زيداً وشيعَته إلى الصَّواب، ويَهْديهم إلى الرَّشاد، ويُلْهمهم الطاعة، ويُوَفِّقهم إلى الهدوء، وهو يأمر واليَهُ بِتَنفير

---

(١) الذمام : الحق والحرمة.

(٢) المنزى : مفعل من نزا إذا وثب.

(٣) الأطماع : الأرزاق من الحنطة وغيرها من الحبوب.

(٤) الأعطية : المرتبات من الدنانير والدراهم.

الناس عن زيد وتحذيرهم وتهديدهم. فإذا ثاروا عليه حَقَّ له أن يُقاتلهم، فإذا غَلَبَهم وجب عليه أنْ يَكُفَّ جُنْدَهُ عن اقتحام منازلهم، ونَهبِ أموالهم، وإباحة دمائهم، ووجَبَ عليه أيضاً أن يُخْرِجَ الأرْزَاق لهم، ويُجْرِيَ الأعْطِيةَ على عيالاتهم. فأهم ما يُمَيِّزُ سياسة هشام مَحَبَّةُ السلامة والدَّعة، وخَشيَةُ الله في دماء المسلمين، والسَّعْيُ لاستِصْلاح الخصْمِ، والأمرُ بِنَفْيِهِ وإبعاده، ورعاية ذُريتهِ إنْ ثارَ وصُرِع.

وَوَسِعَ بني العباس، وبالَغَ في التَّغَافُلِ عنهم حتى تَهَاوَن في تَقْديرِ خَطَرهم، فمع أنهم جَدُّوا في الدعوة لأنفسهم، فكثر أتباعهم في أيامه، ونَشطُوا في تَنْظِيمِ صُفُوفَهم في الكوفة وخراسان وألحوا في اسْتِقْطاب الناس واجْتِذابهم إليهم، وفي تَأْلِيبهم على بني أمية، وفَشَا أمرهم [1]، فإنه ظَلَّ يَحْلُمُ عنهم، واكتفَى بتَأْنِيبهم ومُقَاطَعتهم، رَوَى ابن عبدربه : « أنَّ عليَّ بن عبد الله دخل على هشام بن عبد الملك ومعه ابنا ابنه أبو العباس وأبو جعفرو فشكا إليه دَيْناً لَزِمهُ. فقال له : كم دَيْنُكَ ؟ قال : ثلاثون ألفاً، فأمر له بقضائه، فشكره عليه، وقال : وَصَلْتَ رحماً، وأنا أريد أنْ تَسْتَوْصي بابنيَّ هذين خيراً. قال : نعم، فلما تَوَلَّى قال هشام لأصحابه : إنَّ هذا الشيخ قد أهْتَرَ وأسَنَّ وخُولطَ، فصار يقول : إن هذا الأمر سينقل إلى ولده [2]» ! وقال زهير بن المُسَيَّب الضَّبيُّ عن أبيه [3]: « وفد محمد بن علي الإمام على هشام بن عبد الملك فلما دخل عليه قال : ما جَاءَ بك ؟ قال : حاجةٌ يا أمير المؤمنين. قال : انْتَظِرْ بها دولتكم التي تَتَوَقَّعُونها، وتَرْوُون

---

(١) الأخبار الطوال ص : ٣٣٢، ٣٣٣، وأنساب الأشراف ٣ : ٨١، وتاريخ الطبري ٦ : ٥٦٢، ٦١٦، ٧ : ٤٩، ٥٠، ٨٨، ١٠٧، ١٤١، والعيون والحدائق ٣ : ١٨٠، ١٨١، ١٨٢، وأخبار الدولة العباسية ص : ٢١٥.

(٢) العقد الفريد ٥ : ١٠٤، وأخبار الدولة العباسية ص : ١٤٠، وانظر الكامل للمجرد ٢ : ٢١٨، ووفيات الاعيان ٣ : ٢٧٦.

(٣) أنساب الأشراف ٣ : ٨٤.

فيها الأحاديث، وتُرَشِّحُون لها أحْدَاثكم » ! وقال الحجَّاجُ الرُّصافيُّ عن أبيه(١) : « كان هشام بن عبد الملك بالرصافة قاعداً في مَنْظَرةٍ له فَرَفَع له ركبٌ، فقال : يا غلام، ائتني بخَبَرِ هؤلاء، فَمَضَى بعض من كان بين يديه حتى تَلَقَّاهم فقال : من أنتم ؟ قالوا : هذا محمد بن علي بن عبدالله بن عباس وإخوته، قال : فما أقْدَمَكُم ؟ قالوا : قدمنا نشكوا إلى أمير المؤمنين حَالَنا ودَيْننا. فرجع إلى هشام فأخبره، فقال : ارجع فقل لمحمد : ارجع من حيث جئت، وانتظر أنْ يَقْضيَ دَيْنَكَ ودَيْنَ إخوتك ابنُ الحارثيَّةِ، يعني أبا العباس. فقال محمد بن علي : قل لأمير المؤمنين : إنْ كان هذا الأمر صائراً إلى ابن الحارثية، فما عليك أنْ يكون لكم عنده يدٌ، وإلَّا يكنْ ذلك، فعلام تَحْرِمُنا فَضْلَكَ وصِلَتَكَ وعَائِدَتك » ؟

وأمر عُمَّالهُ انْ يَقْبِضُوا على دُعاة بني العباس بخرسان، ويُخْرِجُوهم منها، قال أبو حنيفةَ الدينوري في خَبَر بعض الدُّعاة الذين أَخَذَهم الجُنَيْدُ بن عبد الرحمن المري، واحْتَجَزهم ثم أطْلَقَهم، فدعوا الناس سرًّا إلى أهل بَيْتِ نَبيِّهم، وبغَّضُوا إليهم بني أمية (٢) : « بَلَغَ ذلك الجُنَيْدَ (٣) ، فأسف على تركهم، ووَجَّه في طَلَبهم فلم يَقْدِرْ عليهم، فكتب إلى خالد بن عبدالله القسري، وكان على العراق، يُعْلِمُه انْتِشَارَ خراسانَ وما حَدَثَ فيها من الدعاة إلى محمد بن علي. فكتب خالد بن عبدالله إلى هشام يُعْلِمُهُ بذلك. فكتب إليه هشام يأمره بالكتاب إلى الجُنَيْدِ ألَّا يَرْغَبَ في الدِّماء، وأنْ يَكُفَّ عمن

(١) أنساب الأشراف ٣ : ٨٦.

(٢) الأخبار الطوال ص : ٣٣٦.

(٣) لعل الصواب أسد بن عبد الله القسري. (انظر تاريخ الطبري ٧ : ١٠٧، والكامل في التاريخ ٥ : ١٨٩).

كفَّ عنه، ويُسَكِّنَ الناسَ بِجُهْدهِ، وأنْ يَطْلُب النَّفَر الذين يدْعُونَ الناسَ حتى يَجِدَهم فيَنْفِيهم ».

وكان سادةُ القبائلِ اليمانيةِ والرَّبعية يَتَشفَّعونَ للدعاة عند الجنيد بن الرحمن المري، وأسد بن عبدالله القسري، ويَزْعُمُونَ أنَّ سادةَ القبائل المُضَرِيَّةِ يَشُونَ بهم، كَيْداً لهم، فكانا يُخَلِّيانِ بعض من يَعْتَقِلانَ منهم بخراسان امتِثالًا لأمرِ هشام، وكانا يَقْتُلانَ بعضَهم، ويَحْبَسانِ بعضَهم [1].

وكان هشام بن عبد الملك من أحْزَم بني أمية وأحْلَمِهم، وكان أفْضَلَ الخلفاء المأخرين وأعْقَلهم [2]، وكان شديدَ المُراقبةِ لعمَّاله، كثيرَ المُحاسبةِ لهم، قال كاتِبُهُ غسان بن عبد الحميد [3]: « لم يكنْ أحَدٌ من بني مروان أشَدَّ نظَراً في أمرِ أصحابي ودواوينه، ولا أشدَّ مبالغةً في الفَحْصِ عنهم من هشام »، وقال المسعودي [4]: « كان دقيقَ النَّظَرِ...، مُتَيَقِّظاً في سُلْطانهِ، سَائساً لِرَعيَّتِهِ، مُباشراً للأمور بنفسه، لا يَغيبُ عنه شيء من أمْرِ مملكته ». وكان مَعْنِياً بشئونِ الناس، مُتَمَسِّكاً بما يَنْفَعُهم، قال عبدالله بن علي [5]: « جَمَعْتُ دواوين بني مروان، فلم أرَ ديواناً أصْلَحَ للعامَّة والسلطان من ديوان هشام »، وذكر المدائنيُّ: « أنَّ السُّوَّاسَ من بني أمية ثلاثة: معاوية، وعبد الملك، وهشام، وخُتِمَتْ به أبوابُ السياسة، وحُسْنُ السيرة، وأنَّ

---

(١) الأخبار الطوال ص : ٣٣٥، وتاريخ الطبري ٧ : ٥٠، ٨٨، ١٠٧، ١٠٨.

(٢) تاريخ اليعقوبي ٢ : ٣٢٨، والعيون والحدائق ٣ : ٨٢، والبداية والنهاية ٩ : ٣٥١، وفوات الوفيات ٤ : ٢٣٩.

(٣) تاريخ الطبري ٧ : ٢٠٣.

(٤) التنبيه والإشراف ص : ٢٧٩، وشذرات الذهب ١ : ١٦٣.

(٥) تاريخ الطبري ٧ : ٢٠٣، وانظر الكامل في التاريخ ٥ : ٢٦٢.

المنصور كانَ في أكثر أمورهِ وتَدْبيرهِ وسياسته مُتَّبعاً لهشام بن عبد الملك في أفعالهِ، لكثرةِ كَشْفِهِ عن أخبارِ هشامٍ وسِيَرِه(١).

على انَّ الوَضْعَ السياسيَّ كان شائكاً مُتَأزِّماً منذ مطلع القرن الثاني، وكانت الجماعات المناوئة لبني أمية كثيرةً مُتعددةَ المذاهب، فاستَحال على هشام أنْ يُرْضِيَها ويُلَبِّيَ كلَّ مَطالبها، ولم يُطِقِ الصَّبْرُ على مُهادنتها، لأنها لم تكن تَبْتَغي غَيْرَ الإطاحة ببني أمية والإدالةِ منهم، وقد أخذت تَتَمَرَّدُ عليه، وتُزَعْزِعُ سلطانه، إذ عاد القدرية ومُرْجِئةُ الجَبْرِيَّةِ إلى مُقاومته، وثار الخوارج عليه في الأمصار المختلفة، وقد استَقْصى البلاذري أخبار ثورتهم استقصاءً وافياً دقيقاً (٢)، ورجع الشيعة إلى مُجاهَدته. وكأنما خُيِّلَ إليه أنَّهُ أعْذَرَ إليهم وأعْتَبَ بما سَلَفَ من مُسالمته لهم، وسُكوته عنهم، فَتَصَدَّى هو وعُمَّالُه لهم، وأجْهَزُوا عليهم جماعةً تِلْوَ الأخرى، ومَحَقُوهم مَحْقاً. وعزل هشامٌ خالد بن عبدالله القسري عن العراق (٣)، لِيَحدَّ من استِعلاءِ القبائل اليمانيَّةِ واستِطالتها، ووَلَّى عليها يوسف بن عمر الثَّقفيَّ، ليرد للقبائل المضرية مكانتها، وأعْرضَ بني العباس ولم يَمْسَسْهُم بسوء

---

(١) مروج الذهب ٣ : ٢٢٣، وانظر شذرات الذهب ١ : ١٦٥.

(٢) أنساب الأشراف المخطوط ٢ : ٢٦١، ٢٦٦، والعيون والحدائق ٣ : ١٠٨، ١١١، وانظر تاريخ الطبري ٧ : ١٣٠، ١٣٧.

(٣) انظر ترجمة خالد في أنساب الأشراف المخطوط ٢ : ٢٦٦، وتاريخ الطبري ٧ : ١٤٧، والأغاني ٢٢ : ١٠، وتهذيب تاريخ ابن عساكر ٥ : ٦٧، والكامل في التاريخ ٥ : ٢١٩، ووفيات الأعيان ٢ : ٢٢٦، والبداية والنهاية ١٠ : ١٧.

(٥) « خُلاصةٌ وتَعْقيبٌ »

صَانَ المَرْوانيوُّنَ المُتقدِّمُونَ مُلْكَ بني أُميَّةَ وَوَطَّدُوهُ، ولكنَّهم ظَلَمُوا النَّاسَ، وخَالَفُوا الكِتَابَ والسُّنَّةَ في بَعْضِ اجْتِهاداتِهم ومُمَارَسَاتِهم. وانْقَضَتْ أيَّامُهم وقد تَراكَمت المشكلاتُ وتَفاقَمَتْ، وازْدَادتْ عَداوَةُ الناسِ لهم وتَعَاظَمَتْ.

وتَقلَّد المَرْوانيوُّن المُتوسِّطونَ الخلافةَ والمُلْكُ مُسْتَقِرٌّ لهم، وكانت الرُّوحُ الإسْلاميَّةُ قَوِيَتْ في نُفُوسِهم، وتَغَلَّبَتْ على الرُّوحِ القَبليَّةِ، فَسَعَوْا لِتَقْوِيمِ مُلْكِ بني أُميَّةَ، وحَلِّ المُشْكِلاتِ الماليَّةِ والاجتماعيَّةِ والسِّياسيَّةِ المُسْتَفْحِلَةِ، ورَأْبِ الصَّدْعِ بينَهم وبينَ النَّاسِ، وجَدُّوا في الإصْلَاحِ، وتَوسَّلوا إليه بالرُّجوع إلى الكِتَابِ والسُّنَّةِ.

وكانَ سُليمانُ عبد الملكِ أوَّلَ مَنْ حاولَ ذلكَ منهم، فإنَّهُ أَلْزَمَ نفسهُ أنْ يَتَّبِعَ كتابَ الله، ويَعْمَل بأحْكامِهِ، فأدْنَى الفُقَهاءَ والعُلماءَ، والْتَقَى الصُّلَحاءَ والأَتْقياءَ من أهْلِ الأَمْصارِ المختلفةِ، وألَحَّ عليهم أنْ يُخْبِرُوهُ بمفاسِدِ قَوْمِه، وطَلَبَ منهم المَشُورةَ والمُشَاركةَ في الحُكْمِ، حتى يَعْتَدِلَ مُلْكُ بني أميَّةَ، ويَسْتقيمَ أَمْرُ الرَّعيَّةِ، فَصَارَحُوهُ القَوْلَ، ومَحَضُوهُ النُّصْحَ، ولكنَّهم أَبَوْا أنْ يَعْملُوا معه، فَقَدَّرَهم وأَجَلَّهم، واجْتَهَدَ أنْ يَحْكُمَ بالعَدْلِ، ويَرْفعُ الظُّلْمَ، فأطْلَقَ المُعْتقَلينَ، وَردَّ المُبْعَدينَ، وأَزَالَ ما وقَعَ على النَّاسِ من ضَيْمٍ، وضَمِنَ لهم حُرِّيَّةَ الرَّأْيِ، وأحْسَنَ مُعَامَلَتَهم. فَمثَّلَتْ سِيَاسَتُهُ مَنْهجاً جديداً في الحُكْمِ، يَقُومُ على المُوَادعةِ والمُصَالحةِ، وخَتَمَ عَهْدَهُ باسْتِخْلافِ عمرَ ابنِ عبد العزيز، لأنَّهُ كان أفْضَلَ بني أُميَّةَ، وأحدَ خِيَارِ الأُمَّةِ.

وتَولّى عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ الخلافةَ، فمضى في الإصْلاحِ، وتَوسَّعَ فيه، وبنَي خُطتَّهُ على أسَاسَيْنِ : الأوَّلُ العَمَلُ بالكتابِ والسُّنَّةِ، ومُشاوَرَةُ أهْلِ الرَّأيِ في أُمُورِ الدَّوْلةِ، والثَّاني استِعمَالُ أصْحابِ المَعْرفةِ والخِبْرةِ من أهْلِ الوَرَعِ والتَّقْوى. ثم شَرَعَ في تَنْفيذِ خُطتِّه، فَضبُطَ الضَّرائبَ، وأحْكم جِبايتُها، وأشْرَفَ على بَيْتِ المالِ [(١)] ، ودَعَا إلى التَّسْويةِ بيـنَ العَـربِ والمَوالي، وإزَالة التَّفْرقةِ بينَهـم، فأسْقَطَ الجِزْيَةَ عمن أسْلَمَ من العَجمِ، وفَرضَ العَطاءَ لِلْمُقاتِلَةِ من المَوالى [(٢)] . وسالمَ جميعَ الأحْزابِ، وجَعَلَ يُنَاقِشُ بعضَ رُؤسائها في المَسائِلِ الدِّينيَّةِ والسِّياسيَّةِ، فقد أمَرَ بالكَفِّ عما يُؤْذي الهَاشِميِّينَ من العَلويِّينَ والعباسيِّينَ، وأعاد إليهم حُقُوقَهم الماليَّةَ. وحَاوَرَ القَدَريَّةَ في الإجْبارِ والاخْتيارِ، وأكثرَ من مُناظرتهم لِيَصْرِفَهم عن القَوْلِ بحريَّةِ الإرَادةِ الإنْسَانيَّةِ. وقَبِلَ نَقْدَهم لسياسةِ بني أميَّةَ، واتِّهامَهم لهم بالجَوْرِ، ودَعْوتَهم إلى العَملِ بالكتابِ والسُّنةِ، وأشْركهم في الحُكْمِ، فوَلَّى غَيْلانَ الدِّمشقيَّ بَيْعَ خزائنِ بني مَرْوانَ وَرَدَّ المظالم [(٣)] . وأمَّنَ الخوارجَ، ورَاسَلَهم، واسْتَقْبلَهم، وأصْغَى إلى أقْوالهم، وأجَابَ عن أسْئِلتهم، وكانت آراؤه مُطابقةٌ لأرائهم في المسائِلِ الدِّينيةِ والماليةِ، وأقَرَّ بمآخِذِهم على سِيرةِ بني أُميَّةَ، ولكنه لم يُوافِقْهم على لَعْنهم وتَكْفيرهم، فكانَ ذلك مَوْضِعَ

---

(١) انظر على سبيل المثال سيرة عمر بن عبد العزيز، لابن عبد الحكم ص : ٦٥، ٦٩، ٩٢، ٩٩، ١٢٢، ١٢٣، ١٢٥، ١٥٤، وراجع مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي ص : ٣٣.

(٢) فتوح لبلدان ص : ٤٢٦، ٤٢٧، وتاريخ اليعقوبي ٢ : ٣٠٢، وتاريخ الطبري ٦ : ٥٥٩، ٥٦٠، ٥٦١، ٥٦٨، والعيون والحدائق ٣ : ٦٢، والكامل في التاريخ ٥ : ٥٠، ٥٢، والبداية والنهاية ٩ : ١٨٨، وتاريخ الدولة الدولة العربية ص : ٦٨، ومقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي ص : ٣٣، ونظام الضرائب في صدر الإسلام، مقالة للدكتور عبد العزيز الدوري بمجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، المجلد : ٤٩، الجزء الثاني ص : ٦، ١٤.

(٣) أنساب الأشراف المخطوط ٢ : ٢٤٦، وفضل الأعتزال ص : ٢٣١، وطبقات المعتزلة ص : ٢٦.

اخْتلافٍ بينَهُ وبينَهم، ولكنهم حَجُّوهُ في عَقْدِ العَهْدِ ليزيدَ بنِ عبدِ الملك، إذْ لم يكنْ جديراً بالخلافةِ. وتَتَضاربُ الرِّوياتُ في مَوْقِفِه من ذلك، إذْ يُشيرُ بعضُها إلى أنه وعَدَهم أنْ يَنْظَرَ في الأمْرِ، وأنه قَدَّرَ أنْ يَعْزِلَهُ عن وِلايةِ العَهْدِ، ويُشيرُ بعضُها إلى أنه فكَّرَ في خَلْعِهِ، ثم عَدَلَ عنه خَوْفاً من بني مروانَ. وقد وادَعَهُ الخوارجُ حيناً، ثم عَادُوا إلى مُنَاهَضتِه، فأَمَر بِمُسَالَمتهم ما سَالَمُوهُ، ومُحَارَبتهم ما حَارَبُوهُ.

وهكذا نَقَلَ عمرُ الإصْلاحَ من المُوَادعةِ والمُصَالحةِ إلى التَّطْبيقِ والتَّغْيير لجميعِ شُؤُونِ الدَّوْلةِ، واسْتَضَاءَ فيما صَنَعَ بالكتابِ والسُّنةِ، ومَشُورَةِ الفُقَهاء من عُلماءِ الأُمَّةِ.

وتَقَلَّدَ يزيدُ بنُ عبدِ الملكِ الخلافةَ، وكان أخُوهُ سليمانُ عَقَدَ له العَهْدَ بعد عُمَرَ، ولم يَسْتَطِعْ عمرُ أنْ يَنْقُضَ عَهْدَهُ، فأبقاهُ وأَلْقَى تَبِعةَ تَوْليتهِ على سليمانَ، وتَركَ للأُمَّةِ أنْ تُحدِّدَ مَوْقفَها منه. وتَشَبَّهَ يزيدُ بعمرَ في أَوَّلِ الأَمْرِ، فلم يَعْزِلْ أحداً من عُمَّالِه ولم يُبْطِلْ شيئاً من إصْلاحَاتهِ في السَّنَتَيْنِ الأُولَيَيْنِ من خِلافته. فَلمَّا ثارَ عليه يَزيدُ بنُ المُهَلَّبِ وخَلَعَهُ، نَازَلَهُ وقضى عليه، ونَحَّى كثيراً من العُمَّال من اليَمانيَّةَ واعْتَمَدَ على القَيْسيَّةِ، وَوَلَّاهم الولايات في العِراق والمَشْرِق وإفْريقيَّة، ولكنَّهُ ظَلَّ يُقَدِّمُ اليمانية من أَهْلِ الشَّامِ، لأنهم جُنْدُ الخلافةِ وحُماةُ مُلْكِ بني أميَّةَ، ولأنهم آزَرُوهُ ونَصَرُوهُ علي يزيدَ بنِ المُهَلَّبِ ومن خَرَجَ معه وأَيَّدَهُ من القبائلِ اليَمانِيَّةِ والرَّبعيَّةِ العِراقيَّةِ، فلم يُقْصِ أحداً منهم عن عَملِهِ في بلادِ الشَّام، بَلْ مَكَّنَ لهم فيها، وعَوَّلَ عليهم بها، واسْتَعْمَلَهُمْ على بَعْضِ الأَمْصَارِ الأُخرى. وكان يزيدُ دُونَ عمرَ ثقافةً ومَعْرِفةً، وأقلَّ منه صَلاحاً ودِيانةً، فَعَجَزَ عن مُجاراتِهِ ومُتَابعَةِ سِيَاستِه. وعلى ما يُنْسَبُ إليه من لَهْوٍ ومُجُونٍ وتَفْريطٍ في أُمُورِ الدَّوْلةِ، فإنَّ بعضَ ما تُعَابُ به سِيرتُهُ الشَّخْصيَّةُ وحَيَاتُهُ الخَاصَّةُ فيه افْتِعَالٌ وتَهْوِيلٌ كثيرٌ، كما أنَّ بَعْضَ

ما تُعَابُ به سِيَاسَتُهُ يقَعُ على عُمَّالِهِ وَوُلاتِه، لأنَّهم خَالَفُوا أمْرَهُ، وتَصرَّفُوا على هَوَاهم، ويَقَعُ عليه أيضاً، لأنه أهْمل مُرَاقَبَتَهُمْ ومُحَاسَبَتَهُمْ [1].

وقامَ هشامُ بنُ عبد الملكِ بالخلافة، وكانَ رَجُلَ دَوْلَةٍ من الطِّرازِ الأوَّلِ، إذْ كانَ له عِلْمٌ وفِقْهٌ ومَعْرِفةٌ بالحَديثِ، ورِوَايةٌ للشِّعْرِ وعنايةٌ بالأدَبِ [2]، وكان قَوِيَّ الهِمَّةِ ماضِيَ العَزِيمةِ، كثيرَ الفَضْلِ راجحَ العَقْلِ، فَنَهضَ بإصْلَاحاتٍ كثيرةٍ، وقد الْتزَمَ خُطَّةَ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ، وسارَ بها أشْوَاطاً، فإنَّهُ طَبَّقها ما يقربُ من عشرينَ عاماً، فضَبَطَ نظامَ الجبايةِ والإنْفَاقِ وأحْكمهُ إحْكاماً شديداً، وكان حَفِيظاً على أمْوالِ المُسْلِمِينَ، ضَنِيناً بها ضِناً بعيداً، حتى اتُّهِمَ بالبُخْلِ لِفَرْطِ حِرْصِه وتَدْقِيقِه! وسَوَّى بينَ المُسْلِمينَ في المُنْزلةِ والمُعَاملةِ، فَوَضَعَ الجِزْيةَ عمن أسْلَمَ من العَجَمِ، وأخَذَها من أهْلِ الذمَّةِ وَحْدَهم، وفَرَضَ الخراجَ على جميعِ الأرْضِ في البِلَادِ المَفْتُوحةِ، دُونَ تَفْريقٍ بينَ مُلَّاكِها من العَرَبِ والمَوالي والعَجَم. واجْتَهَدَ أنْ يَسُوسَ الناسَ بالعَدْلِ والرِّفْقِ، فَهادَنَ المُخَالِفينَ وأحْسَنَ إليهم، إذْ وَادَعَ القَدريَّةَ ومُرْجِئةَ الجَبْريَّةِ والخوارجَ والهاشِميِّينَ من العَلويِّينَ والعَبَّاسِيِّينَ، وَتَألَّفَهُم، وتَغَافَلَ عن دُعاةِ العَبَّاسيِّينَ بخراسانَ، وكَفَّ عُمَّالَهُ عن سَفْكِ دِمَائهم. واسْتَعْمَلَ اليَمانيَّةَ والقَيْسيَّةَ، لِيُعَادِلَ بينَ القبائِلِ في السُّلْطانِ والنُّفُوذِ، ويُوَازِنَ بينها في المَصالحِ والمَنَافِعِ. وظَلَّ يُداري المُخالفينَ ويَسْتَمِيلُهم إلى مَطْلعِ العِقْدِ الثالثِ من القَرْنِ الثاني، فلمَّا أكثَرُوا من التَّنْديدِ بسياسته، وحَرَّضوا على الوثُوبِ به، وثارُوا عليه، ضَاقَ بهم وحَاربَهم، وقَتَلَ نَفَراً من زُعَمائهم وأتْباعِهم، إلَّا العباسيِّينَ، فإنَّه حَاصَرَهم وجَفَاهم، ولم يَقْتُلْ أحداً منهم.

---

(١) انظر تفصيل ذلك في الوليد بن يزيد عرض ونقد ص : ١٨، ٦٠.

(٢) البيان والتبيين ٣ : ١٢٤.

وبذلك شَاعَتِ المُسَالمةُ والمُدَاراةُ في مُعْظَمِ أيَّامهِ، وصُحِّحَتِ الأخْطاءُ الوَاضِحةُ، وحُلَّتِ المُشْكلاتُ الخَطيرةُ.

وهكذا كانت عُهُودُ المَرْوانِيِّينَ المُتَوسِّطينَ أزْهى عُهودِ الأُمويِّينَ من السُّفْيانِيِّينَ والمَرْوانِيِّينَ، فقد بَدَأتْ فيها المُوَادَعةُ والمُصَافاةُ واسْتمرَّتْ، وكَثُرَتْ فيها الإصْلَاحاتُ ورَسَخَتْ، وعَمَّ فيها العَمَلُ بِرُوحِ الإسْلامِ، والاتباعُ للكتابِ والسُّنةِ، والأخْذُ برأيِ الفُقهاءِ والعلماءِ من أهْلِ الأمْصارِ المُخْتلفةِ.

« الفَصْلُ السَّادِسُ »

« المَرْوانِيُّونَ المُتَأَخِّرُونَ »

(١) « تَوْضيحُ الوَليدِ الثّاني لِنَظريَّةِ الأُمَويِّينَ في المُلْكِ »

تَمسَّكَ الوليدُ بنُ يزيدُ بنِ عبدِ الملكِ بولايتهِ لِلْعَهْدِ، وقاومَ رَغْبَةَ هشام ابنِ عبدِ الملك في تَنْحيتهِ وتَوْليةِ ابنهِ مسلمةُ بنِ هشامٍ مكانَه، وتَصَدَّى له ولأَعْوانهِ، وصَبَرَ على كَيْدِهم له، وتَشْهيرهم به، ولم يزلْ يدافع عن حَقِّهِ في الخلافةِ، ويأبى أنْ يتنازَلَ عنه حتى تُوفيَ هشامُ بنُ عبدِ الملكِ[١]. فلما استُخْلِفَ الوليدُ انْتَقَمَ من خصومهِ الذين أيَّدوا عَمَّهُ في الطَّعْنِ عليه، والسَّعْي لِخَلْعِه، فَسَجَنَ بعضَهم، وقَتَلَ بَعضَهم[٢]. وتَحامَى القَدريَّةَ، وَجَدَّدَ حَبْسَهم[٣]. وفي أيامهِ قُتِلَ يحيى بنُ زيدِ العَلويُّ[٤]، وخالدُ بنُ عبدِ الله القَسْريُّ[٥]، فتَغيَّرَ له أَهْلُ بَيْتهِ، وفَسَدَ عليه أَهْلُ الأمصارِ كافةً.

وعلى ما شاعَ في عَهْدِهِ من اضطرابٍ وعُنْفٍ وسَفْكٍ للدِّماءِ، وما يُنْسَبُ إليه من تَفْريطٍ في أمورِ الدَّوْلَةِ، وإهْمالٍ لشُؤُونِ الرَّعيَّةِ، فإنَّهُ أَوَّلُ مَنْ شَرَحَ نَظَرِيَّةَ بني أُمَيَّةَ في الخِلافةِ وَوِلَايةِ العَهْدِ، فقد كتبَ فيها رسالةً طويلةً وَجَّهها إلى أهْلِ الأمصارِ المختلفةِ[٦]، وسَبَقَتِ الإشارةُ إلى أنه صَدَرَ فيها

---

(١) انظر الوليد بن يزيد عرض ونقد ص : ٢٩، ٣٣٦.

(٢) انظر الوليد بن يزيد عرض ونقد ص : ٣٤٦، ٣٥٣.

(٣) انظر أنساب الأُشراف المخطوط ٢ : ٣٢٧، وتاريخ الطبري ٧ : ٢٣٢.

(٤) تاريخ الطبري ٧ : ٢٢٨، ومقاتل الطالبيين ص : ١٥٢، والكامل في التاريخ ٥ : ٢٧١.

(٥) انظر الوليد بن يزيد عرض ونقد ص : ٤٢٧، ٤٣٣.

(٦) انظر الرسالة في تاريخ الطبري ٧ : ٢١٩، ٢٢٤، وراجع الفصل الأول، القسم الرابع الخاص بشرح الوليد الثاني لمذهب الجبر في الخلافة، والفصل الثاني، القسم الرابع الخاص بشرح الوليد الثاني لمذهب الجبر في ولاية العهد.

عن مَذْهَب الجَبْرِ، إذ قَرَّرَ أنَّ الله اختارَ الخلفاءَ الأُمويِّنَ لِحكْمِ المسلمينَ، وأعْلَن أنَّ الخلافةَ قاعدةٌ من قواعِد الإسْلام، وأنَّ مَن اسْتَجاب للخلفاءِ، اسْتَجابَ لله، واسْتأهَلَ ثوابَهُ، ومَنْ خالفَ عن أمْرِهم، خالَفَ عن أمْرِ الله، واسْتَدْعى عِقَابَهُ. وأعْلَن أيضاً أنَّ ولايةَ العَهْدِ من تَمام الإسلامِ، وأنَّ الله وَفقَ الخلفاءَ الأمويِّنَ إلى ابْتِداعِها، حمايةً للدِّين، وتَقْويةٍ للمسلمينَ، وهو أوَّل مَنْ جعَلَ وَليَّ عَهْدِهِ الأوَّلَ ابنَ أَمةٍ. وهو يَتفوَّقُ في ذلك على كُلِّ الخُلفاءِ الأَمَويِّنَ، السَّالفينَ، لأنهم كانوا يُصِرُّونَ على أنْ يكونَ أولياءُ عُهُودهم عَرباً خُلَّصاً صُرحاءَ النَّسَبِ من جِهةِ آبائهم وأمَّهاتهم.

(٢) « إخْفاقُ يزيدَ الثَّالثِ في تَطْبيقِ مَبْدإ الشُّورَى »

واسْتَمالَ يزيدُ بنُ الوليدِ بنِ عبدِ الملكِ السَّاخطينَ على الوليدِ بنِ يزيدَ من أُمراء بني أمية [(١)]، ورؤساءِ اليَمانيةِ [(٢)]، وزعماء القَدريَّة [(٣)]، وغلبَ على الخِلافةِ بالسَّيْفِ، وقَتَلَ ابنَ عمهِ الوليدَ بن يزيدَ، وفريقاً من أنْصارِهِ.

ولكن دَوْلَتَهُ كانت دَوْلَةَ القَدريةِّ خاصةً، فإنَّهُ كان يَعْتنقُ مَقَالَتَهم، فَقَرَّبَهم واسْتَعَانَ بهم واسْتَعْلَمَهُمْ [(٤)]. وبَشَّرَ في خُطْبتِهِ لأهلِ دمشقَ بكثيرٍ من مَبَادِئهم الاجتماعيَّةِ والاقتصاديَّةِ والسياسيَّةِ، إذ يقول فيها [(٥)]: « أيُّها الناسُ،

---

(١) انظر الوليد بن يزيد عرض ونقد ص: ٤٠١، ٤١٠.

(٢) انظر الوليد بن يزيد عرض ونقد ص: ٤٣٨، ٤٤١.

(٣) انظر الوليد بن يزيد عرض ونقد ص: ٤٤٩، ٤٥١.

(٤) مروج الذهب ٣: ٢٣٤، وتاريخ الإسلام ٥: ١٨٩، وتاريخ الخلفاء ص: ٢٥٣.

(٥) تاريخ الطبري ٧: ٢٦٨، وانظر تاريخ خليفة بن خياط ٢: ٥٥٠، والبيان والتبيين ٢: ١١٥، وعيون الأخبار ٢: ٢٤٨، والعقد الفريد ٤: ٩٥، وتاريخ الموصل ص: ٥٧، والعيون والحدائق ٣: ١٥٠، والكامل في التاريخ ٥: ٢٩١، والبداية والنهاية ١٠: ١٣، وتاريخ الخلفاء ص: ٢٥٢.

إني واللهِ ما خَرَجْتُ أشَراً ولا حِرْصاً على الدنيا، ولا رَغْبةً في المُلكِ، وما بي إطْراءُ نَفسي، إنِّي لَظَلُومٌ لِنَفْسي إنْ لم يَرْحَمْني رَبِّي، ولكنِّي خَرَجْتُ غَضَباً لله، ورسولِهِ، ودينه، داعياً إلى الله وكتابهِ وسُنَّة نبيِّه، ﷺ ، لمَّا هُدِّمَتْ مَعَالمُ الهُدَى، وأطْفِىءَ نُورُ أهْلِ التَّقْوى، وظَهَرَ الجَبَّارُ العَنيدُ، المُسْتَحِلُّ لكلِّ حُرْمةٍ، والرَّاكبُ لكلِّ بِدْعةٍ، مع أنه والله ما كان يُصَدِّقُ بالكتابِ، ولا يُؤْمِنُ بيوم الحِسابِ. وإنَّه لابْنُ عَمِّي في الحَسَبِ، وكَفِيِّي في النَّسَبِ، فلمَّا رأيْتُ ذلك اسْتَخَرْتُ الله في أمْرِه، وسَأَلْتُهُ ألَّا يَكِلَني إلى نَفْسي، ودَعَوْتُ إلى ذلك مَنْ أجابني مِنْ أهْلِ وِلايتي، وسَعَيْتُ فيه حتى أراحَ الله منه العبادَ والبلادَ بِحَوْلِ الله وقُوَّتهِ، لا بِحَوْلي وقُوَّتي.

أيُّها الناسُ، إنَّ لكم عليَّ ألَّا أضَعَ حَجَراً على حَجَرٍ، ولا لَبِنَةٍ على لَبِنةٍ، ولا أكْرِي[1] نَهْراً، ولا أكثِّرَ مالاً، ولا أعْطِيَهُ زَوْجةً ولا ولداً، ولا أنْقُلَ مالاً من بَلْدةٍ إلى بَلْدةٍ، حتى أسُدَّ ثَغْرَ ذلك البَلدِ، وخَصَاصةَ أهْلِهِ بما يُغنيهم، فإنْ فَضَلَ فَضْلٌ نَقَلْتُهُ إلى البلدِ الذي يَليهِ، ممن هو أحْوَجُ إليه، ولا أُجمِّرُكُمْ في ثُغُورِكم، فأفْتِنكم وأفْتِنَ أهْليكم، ولا أغْلِقَ بابي دُونكم، فيأكُلَ قَوِيُّكُمْ ضَعيفَكم، ولا أحْمِلَ على أهْلِ جِزْيتكم ما يُجْليهمْ عن بِلادِهم، ويَقْطَعُ نَسْلَهم، وإنَّ لكم أعْطياتِكم عِندي في كلِّ سنةٍ، وأرْزاقكم في كل شَهْرٍ، حتى تَسْتَدِرَّ المَعيشةُ بينَ المسلمينَ، فيكونَ أقْصَاهم كأدْناهم. فإنْ وَفَيْتُ لكم بما قُلْتُ، فعليكم السَّمْع والطاعة وحُسْن المُؤَازرةِ، وإنْ أنا لم أفِ فلكم أنْ تَخْلعُوني، إلَّا أنْ تَسْتَتِيبوني، فإنْ تُبْتُ قَبِلْتُمْ مني، فإنْ عَلِمْتُمْ أحداً مِمَّنْ يُعْرَفُ بالصَّلاحِ يُعْطِيكم من نَفْسهِ مِثْلَ ما أعْطَيْتكم، فأرَدْتم أنْ تُبَايعُوهُ، فأنا أوَّلُ مَنْ يُبايِعُهُ، ويَدْخلُ في طاعتهِ.

أيُّها الناسُ، إنه لا طاعةَ لمخلُوقٍ في مَعْصيةِ الخالقِ، ولا وَفَاءَ له

(١) كرى النهر : حفره.

بِنَقْضِ عَهْدٍ، إنما الطاعةُ طاعةُ الله، فأَطِيعُوهُ بطاعةِ الله ما أطاعَ، فإذا عَصَى الله، ودَعَا إلى المَعْصيةِ، فهو أهْلٌ أنْ يُعْصَى ويُقْتَلُ. أقُولُ قَوْلي هذا، واسْتَغْفِرُ الله لي ولكم».

فهو يذكرُ أنه ثار نُصْرَةً لله ورَسُولِه، وإحياءً لِكتابِ الله، وسُنَّةِ نَبِيِّه، لأنَّ الوليدَ بنَ يزيدَ انْحَرَفَ عن الإسْلامِ، وحادَ عن الطريقِ المُسْتقيمِ، وارتكَبَ الفواحشَ والمآثم، وكَفَرَ بالقرآنِ الكريمِ، وأنْكرَ البَعْثَ والحسابَ، فَمَرَقَ من الدِّينِ، وانْسلخَ من المِلَّةِ، وجَاهَرَ بالشِّرْكِ والإلْحاد، فاسْتَحقَّ الخَلْعَ والقَتْلَ.

وهو يَعْرِضُ على الناسِ خُطَّتَهُ في الحُكْمِ، فيؤكِّدُ لهم أنه واحدٌ منهم، وأنه لن يَسْتأثِرَ هو ولا أهْلُ بيتهِ بشيءٍ من دونهم. ويَعِدُهَم أنْ يَسُوسَهُمْ بالعَدْلِ، ويَسيرَ فيهم بسيرةِ السَّلَفِ الصَّالح، فقد عَزَمَ على النَّظَرِ في شئونهم بِنَفْسه، وصَمَّمَ على التَّسْويةِ بينهم في المعاملةِ، وقرَّرَ أنْ يُسْتَقْبِلَهم ويَلْقَاهم، ويَسْتَمِعَ إليهم، ولا يَحْتَجِبَ عنهم، ولا يُقَدِّمَ القَوِيَّ على الضَّعيفِ منهم.

أمَّا المُسْلِمونَ من العَرَبِ والمَوالي فَيُبشِّرُهم بِضَبْطِ أُمورِهم الماليةِ ضَبْطاً دقيقاً، إذْ يتكَفَّلُ لهم بأنْ يُخَصِّصَ لكل مِصْرٍ دَخْلَهُ من الضَّرائبِ المختلفةِ، ويَقْسِمَهُ على أهْلِه، ويُنْفِقَهُ فيما يُلَبِّي حاجاتِهم، فإنْ بَقِيتْ منه بَقِيَّةٌ حَمَلَها إلى مَصْرٍ مُجاورٍ، وحَوَّلها إلى أهلِهِ، ممن لا يَفي دَخْلهم بِنَفَقاتِهم. ويَتكَفَّلُ لهم بأنْ يَدْفَعَ عطاء المُسَجَّلينَ منهم في الدِّيوانِ في مَوْعِدِهِ من كلِّ عامٍ، ولا يتأخَّرَ في دَفْعهِ إليهم، وأنْ يُخْرِجَ الرِّزْقَ لهم في وَقْتِهِ من كلِّ شَهْرٍ، ولا يَتَوَانَى في إخْراجِهِ لهم، ويتكَفَّلُ لهم أيضاً بأنْ لا يَحْبِسَ الجُنُودُ منهم في مَوَاضعِ الحُدودِ المَخوفةِ، ولا يَمْنَعَهم من العَوْدِ إلى أهْلِيهم.

وأمَّا أهْلُ الذِّمَّةِ فَيتَعهَّدُ لهم بأنْ يُخَفِّفَ عنهم في جِزْيَتهم، ولا يزيدَ

المبالغَ التي تُجْنى منهم، حتى لا يُثْقِلَ عليهم، ولا يُرْهِقَهم من أمْرِهم عُسْراً.

وهو يَدْعو إلى اتّباعِ مَبْدَإ الشُّورى في الخلافةِ، والخُضوعِ لرأي الجماعةِ والأُمَّةِ، فقد وافق على أنَّ الخليفةَ يجبُ أنْ يكونَ أصْلَحَ المسلمينَ وأتقاهم، وأجاز للناسِ أنْ يختاروا خَلِيفَهم بأنْفُسِهِم، وخَوَّلَ إليهم أنْ يُبَايِعواغَيْرَهُ إنْ كان خَيْراً منه، وضَمِنَ لهم أنْ يَخْضَعَ لِرأيِهم، ويَنْصاعَ لإرَادَتِهم. وفَوَّضَ إليهم أنْ يُحَاسِبُوهُ، وَقَبِلَ منهم أنْ يَعْزِلُوهُ إنْ أخَلَّ بما دَعَاهم إليه، ولم يُحَقِّقْ لهم ما وَعَدَهم به، إلَّا إنْ يَعِظُوهُ ويَنْهَوْهُ، فإن اتَّعظَ وانْتَهى صَفَحُوا عنه، وامْتَثَلُوا له. وجَعَلَ لهم الحقَّ في أنْ يَخْلَعُوا خليفتَهم ويَقْتُلوه إنْ خرجَ على الكتابِ والسُّنةِ، وأسْرَفَ في الضَّلالِ والفَسادِ، وأبى أنْ يَرْتَدِعَ ويَرْجِعَ إلى الصَّوابِ والرَّشادِ.

ورَدَّدَ ذلك في رسالتهِ التي بَعَثَ بها إلى أهْلِ العراقِ، حينَ وَلَّى عليهم مَنْصُورَ بنَ جُمْهورٍ الكلبيَّ [1].

أمَّا التَّغْيِيراتُ الماليةُ التي نَادَى بها، فقد سَبَقَهُ عمرُ بنُ العزيز في الدَّعْوةِ إليها، وَجَدَّ في تَنْفيذِها [2]. ولكِنَّ عُمَّالَ خراسانَ خاصةً أَلْغَوْا إصْلاحاتهِ بعدَ وفاتهِ [3]. ثم أصْلَحَ نَصْرُ بنُ سيَّارٍ اللَّيْثيُّ، عاملُ هشامِ بنِ عَبْدِ الملكِ على خُراسانَ نِظامَ الضَّرائبِ في خُراسَانَ وما وراءَ النهرِ إصْلاحاً شاملاً، سنةَ إحْدَى وعشرين ومائةٍ، فَمَسَحَ الأرْضَ، وأعادَ تَصْنيفَ الخراجِ، فَوَضَعَهُ بالحقِّ، وجَمَعَهُ بالعَدْلِ، وجَبَى الخَراجَ من مُلَّاكِ الأرْضِ من العربِ

---

(١) تاريخ الطبري ٧ : ٢٧٥.

(٢) فتوح البلدان ص : ٤٢٦، وتاريخ اليعقوبي ٢ : ٣٠٢، وتاريخ الطبري ٦ : ٥٥٩، والكامل في التاريخ ٥ : ٥٠، والبداية والنهاية ٩ : ١٨٨، وتاريخ الدولة العربية ص : ٢٦٨، ٢٧٣، والسيادة العربية ص : ٥٨، ٦٠، ومقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي ص : ٣٣، ٣٤، ونظام الضرائب في صدر الإسلام، للدكتور عبد العزيز الدوري ص : ٦.

(٣) فتوح البلدان ص : ٤٢٨، وتاريخ الطبري ٦ : ٦٠٧، ٧ : ٥٤، والكامل في التاريخ ٥ : ١٤٧، والبداية والنهاية ٩ : ٢٥٩.

والمَوالي بحسبِ ما يمْلكُونَهُ، وأسْقَطَ الجزْيَةَ عمن أسْلَمَ من العَجَمِ، وأخذَها من أهْلِ الذِّمةِ وحْدَهم، وضَبَطَ الوَظَائفَ المُقَرَّرَةَ على المُدُنِ والنوَّاحي في الصُّلْحِ، واستَوْفَاها، ولم يُفرِطْ في شيءٍ منها [1]. وطُبِّقتْ تَدابيرُهُ في بقيَّةِ أرْجاءِ الدَّولةِ التي كانت أحْوالُها مُشَابهةً لأحْوالِ خراسانَ وما لَحِقَ بها، وأصبَحَتِ القانونَ الذي يُعْمَلُ به فيها [2].

فكأنه لا جَديدَ في الشِّعاراتِ الماليةِ الإصْلاحيَّةِ التي رَفعَها، لأنَّ مُشْكَلَةَ الضَّرائبِ حُلَّتْ منذ زَمَنٍ غيرِ قصيرٍ، ولأنَّ الوليدَ بنَ يزيدَ زادَ عَطاءَ أهْلِ الأمْصَارِ جميعاً عشرةَ دَرَاهمَ، وزادَ عَطاءَ أهْلِ الشَّامِ عَشْرةَ دَرَاهمَ أخرى بعدَ زيادةِ العَشَرَاتِ [3]، وأعادَ إلى أهْلِ المدينةِ أعْطياتهم، وكان هشامُ بنُ عبدِ الملكِ مَنَعَها عنهم سَنَةً كاملةً، لأنهم أيَّدُوا زَيْدَ بنَ عليٍّ، لَمَّا خَرَجَ عليهِ بالكوفةِ [4]. فلما استُخْلِفَ يزيدُ بنُ الوليدِ نَقَصَ النَّاسَ العشراتِ التي كانَ الوليدُ بن يزيد زَادَها، فَسَمَّاهُ النَّاسُ النَّاقِصَ [5].

وأمَّا التَّغييراتُ السياسيةُ التي بَشَّرَ بها فهي انْقِلابٌ شديدٌ على نظريةِ بني أميةَ في المُلْكِ، وتَحوُّلٌ بعيدٌ عن طريقتهم في الحُكْمِ، فقد أبْطَلَ مذهبَ الجَبْرِ في الخلافةِ ووِلايةِ العَهْدِ، وأذِنَ للناسِ في انْتِخابِ خليفتِهم ومُبايعته، ورَخَّصَ لهم في مُراقبتِهِ ومُرَاجعتهِ، وأباحَ لهم تَنْحِيَتَهُ وسَفْكَ دَمهِ إنْ جارَ وطَغَى، وتَكَبَّرَ وعَصَى.

---

(١) تاريخ الطبري ٧ : ١٧٣، والكامل في التاريخ ٥ : ٢٣٦، وتاريخ الدولة العربية ص : ٢٧٢، ٤٥٥، ومقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي ص : ٤٥، ونظام الضرائب في صدر الإسلام ص : ١٦.

(٢) تاريخ الدولة العربية ص : ٤٥٧.

(٣) أنساب الأشراف المخطوط ٢ : ٣١٨، وتاريخ الطبري ٧ : ٢١٧، والكامل في التاريخ ٥ : ٢٦٨، والبداية والنهاية ١٠ : ٤.

(٤) الأغاني ٧ : ٢٢.

(٥) تاريخ الطبري ٧ : ٢٩٩، والكامل في التاريخ ٥ : ٢٩١، والبداية والنهاية ١٠ : ١٦.

وكانَ للمبادىء السياسيةِ الثَّوْريَّةِ التي دعا إليها أثَرٌ كبيرٌ في زَعْزَعةِ سُلْطانِ بني أميَّةَ، وتَهْديدِه، إذْ وَجَدَتْ فيها الجماعاتُ المناوئةُ لهم شهادةً منهم في الطَّعْنِ على خِلافتهم والتَّنْديدِ بِتَسلُّطهم، فاسْتَغلَّتها للتأليب عليهم، والتَّحْريضِ على التَّطْويحِ بهم، واتَّخذَتْ تكفيرَهُ لابنِ عمهِ وتَشْهيرَهُ به، وتَشْنيعَهُ عليه وسيلةً إلى القَدْحِ فيهم، والتَّجْريحِ لهم [1].

ويَظْهَرُ أنه أحَسَّ بما في هذِهِ المبادىء من خَطَرٍ يُهَدِّدُ سُلْطانَ قَوْمِه، فبرَّأهم من اغْتِصابِ الخلافةِ، ونَزَّههم عن الظُّلْمِ والعُدْوانِ، إذْ أعْلَنَ في رسالتِهِ التي وَجَّهَها إلى أهْلِ العراقِ عندما اسْتَعْمَلَ عليهم مَنْصُورَ بن جُمْهورٍ الكَلْبيَّ أنه يُصحِّحُ خلافَتَهم، ويُصَوِّبُ سياستَهم، ويُثْني على سِيرَتهم، ولم يَذُمَّ أحداً منهم، إلَّا الوليدَ بنَ يزيدَ، فإنه عابهُ ولَعَنَهُ، ورَماهُ بالكُفْرِ، فهو يقولُ فيها [2]: « تَنَاسَخَتْ خُلفاءُ اللهِ، وُلاة دينهِ قَاضِينَ فيه بِحُكْمِهِ، مُتَّبعينَ فيه لكتابهِ، فكانت لهم بذلك من وِلايتهِ ونُصْرتهِ ما تَمَّتْ به النِّعَمُ عليهم، قد رَضِيَ اللهُ بهم لها حتى تُوُفِّيَ هشامُ ».

ثم تَرَاجَعَ عن مَبْدَإِ الشُّورَى في الخلافةِ، لأنه لم يُوافِقْ على إخْراجِ الخلافةِ من بني مَرْوانَ، أوْ لأنه لم يَقْدِرْ على إخْراجِها منهم، فأخذَ البَيْعَةَ لاثنينِ منهم، أحَدُهما أخوهُ إبراهيم، وقد جَعَلَهُ وليَّ عَهْدِهِ الأوَّلَ، والآخرُ ابنُ عَمِّهِ عبدُ العزيزِ بنُ الحجاجِ بنِ عبدِ الملكِ، وقد جَعله وَليَّ عَهْدِهِ الثاني [3]، ومن غريبِ الأمْرِ أنه وَرَدَ في بعضِ الأخبارِ أنَّ القدريَّةَ هم الذين حَضُّوهُ على ذلك، رَوَى المدائنيُّ [4]: « أنَّ يزيدَ بنَ الوليدِ مرِضَ في

---

(١) أخبار الدولة العباسية ص : ٢٨٠، وتاريخ الطبري ٧ : ٣٦٦، والكامل في التاريخ ٥ : ٣٦٩، وانظر الوليد بن يزيد عرض ونقد ص : ٣٣٠، ٤٦٦.

(٢) تاريخ الطبري ٧ : ٢٧٥.

(٣) تاريخ الطبري ٧ : ٢٩٥، والكامل في التاريخ ٥ : ٣٠٨.

(٤) تاريخ الطبري ٧ : ٢٩٥، وانظر الكامل في التاريخ ٥ : ٣٠٨.

ذي الحِجَّةِ سنةَ ستٍّ وعشرينَ ومائةٍ، فقيل له : بَايِعْ لأخيك إبراهيم، ولعبدِ العزيزِ بن الحَجَّاجِ من بعدِهِ. فلم يزل القدريَّةُ يَحثُّونهُ على البَيْعةِ، ويقولونَ له : إنه لا يحلُّ لك أنْ تُهْمِلَ أمْرَ الأُمَّةِ، فَبايعْ لأخيكَ، حتى بَايَعَ لإبراهيمَ ولعبدِ العزيزِ بنِ الحجاجِ من بَعْدِهِ ». وذلك مُغَايرٌ لِرَأي القَدَريَّةِ في الخلافةِ، فإنهم كانوا يَعْتَقِدونَ أنَّها حَقٌّ من حقوقِ الأمَّةِ، وأنَّها تقومَ على الشوُّرَى، ولا يَتولَّاها إلَّا أجْدَرُ المسلمينَ وأكْفؤُهم، ولا تَنْعَقِدُ البَيْعةُ له إلا بإجْماعِ الأمَّةِ عليه (١).

وإذا صَحَّ الخبرُ الذي رواهُ المدائنيُّ فهو يَدِلُّ على أنَّ بعض زعماء القدريَّةِ من القبائلِ اليمانيةِ الشامِيَّةِ غَلَّبُوا مكاسِبَهم السياسيَّةَ، ومَصَالِحهم الماديَّةَ على أفكارِهم الإسْلَاميَّةِ، ومَبادِئهم الثَّوْريَّةِ ! وكان رؤساءُ اليمانيَّةِ يَبْتغُونَ من مُؤَازَرتهم ليزيدَ بنِ الوليدِ أنْ يَسْتَرِدُّوا سيادتَهم السابقة، ويَسْتَعِيدوا مكانَتَهم الضائعة، فإنَّ سُلْطانَهم أخذَ يَضْعُفُ ويَتقَلَّصُ في الشطرِ الأخيرِ من أيامِ هشامِ بنِ عبدِ الملكِ (٢)، فانْضَمُّوا إليه ونَصَرُوهُ على الوليدِ بنِ يزيدَ، والقبائلِ القَيْسيَّةِ التي أيَّدَتْهُ، وعَظُمَ نُفوذُها، وعَلَا شأنُها في أيامه.

ولم يكن في وُسْعِ يزيدَ بنِ الوليدِ أنْ يُعَارِضَ رَغَباتِ رُؤساءِ اليَمانيةِ، لأنَّهم هم الذين سَانَدُوهُ ورفَعُوهُ إلى الخلافةِ، فأذْعَنَ لِضُغُوطِهم، واسْتَكَانَ لِمَطامِحهم حتى اسْتأثروا من جديدٍ بالمناصبِ المُهِمَّةِ في دمشقَ وأكثرِ الأمْصارِ، فكان على شُرْطتهِ بكيرُ بنُ شَمَّاخٍ اللَّخْميُّ (٣)، أو محمدُ بنُ

---

(١) الملل والنحل : ١٣٧.

(٢) انظر الوليد بن يزيد عرض ونقد ص : ٤١٩.

(٣) تاريخ خليفة بن خياط ٢ : ٥٦٢.

سعيدِ الكلبيُّ [1]، وكان على خاتَمِه عبدُ الرحمنِ بنُ حَنْبلِ الكَلْبيُّ [2]، وكان على رَسَائِلِه الليثُ بنُ أبي سليمانَ بنِ سَعْدٍ [3]، وكان على الخَراجِ والجُنْدِ والحَرَسِ النَّضْرُ بنُ عَمْروٍ من أهْلِ اليمن [4]. وكان على العراقِ منصورُ بنُ جُمْهورٍ الكلبيُّ، فاسْتَبَدَّ بها، وبَسَطَ سلطانَ أهْلِ اليمنِ عليها، وحَاوَلَ مَدَّ سُلْطانِهم إلى بلدانِ المَشْرقِ، فولَّى على البَصْرةِ جَريرَ ابنَ يزيد البَجَليَّ [5]، وجعلَ على شُرْطتها الحَجَّاجِ بنَ أرْطاة النَّخعيَّ [6]، وَوَلَّى على سِجِسْتانَ محمدَ بنَ عذارٍ من أهْلِ النمنِ [7]، وكَتَبَ لأخيهِ مَنْظور بن جُمْهورٍ الكلبيِّ بِعَهْد خراسانَ، وعَزَلَ نَصْرَ بنَ سيَّارٍ الكِنانيَّ عنها، فامْتَنعَ نَصرٌ عليه، وأبَى أنْ يُسَلِّمَ عملَهُ له [8].

وبذلك أخفقت الثورةُ الفِكْريَّةُ السياسيَّةُ التي قادَهَا يزيدُ بنُ الوليدِ، فلا هو جَعلَ الخلافةَ شُوَرى، ولا هو اسْتَعْمَلَ أهلَ الفضْلِ والتَّقْوى، بل ساقَ الخلافةَ إلى أخيهِ وابنِ عمِّه، وانْقادَ لسادةِ اليمانيَّةِ من أهْلِ الشامِ، فَصَانَعهم وحَكَّمهم في رِقابِ القَيْسيَّةِ، ويَرْجِعُ ذلك إلى احْتدامِ العَصَبيَّةِ القَبَليَّةِ بينَ اليمانيةِ والقَيْسيَّةِ في الأمْصارِ المختلفةِ، ومُنافسةِ بعضِهم لبعضٍ

---

(1) أنساب الأشراف المخطوط ٢ : ٣٣٩، وتاريخ الطبري ٧ : ٢٧١، والكامل في التاريخ ٥ : ٢٩٥.

(2) تاريخ خليفة بن خياط ٢ : ٥٦٢.

(3) تاريخ خليفة بن خياط ٢ : ٥٦٢.

(4) تاريخ خليفة بن خياط ٢ : ٥٦٢.

(5) تاريخ خليفة بن خياط ٢ : ٥٦٠.

(6) تاريخ الطبري ٧ : ٢٨٠.

(7) تاريخ خليفة بن خياط ٢ : ٥٦٠.

(8) تاريخ الطبري ٧ : ٢٨٠، والكامل في التاريخ ٥ : ٢٩٧.

في الوَلايةِ والإمارةِ[1]، وانغِماسِ يزيدَ بنِ الوليدِ في ذلك، ومُشاركتِهِ فيه، حتى لَامَهُ عليه بعضُ المُعْتَدِلينَ من سادةِ اليمانيةِ من أهْلِ دمشقَ، ونَهَاهُ عنه، قال ابنُ جريرٍ الطبريُّ [2]: « وأمَّا غيرُ أبي مِخْنَفٍ فإنه قال: كان منصورُ بنُ جمهورٍ أعْرابياً جافياً غَيْلانياً، ولم يكنْ منْ أهْلِ الدِّينِ، وإنما صارَ معَ يزيدَ لِرَأْيِهِ في الغَيْلانيةِ، وحَمِيَّةً لِقَتْلِ خالدِ [القَسْرِيِّ]، فشهدَ لذلك قَتْلَ الوليدِ، فقال يزيدُ له لمَّا وَلَّاهُ العراقَ: قد وَلَّيْتُكَ العراقَ، فَسِرْ إليه، واتَّقِ اللهَ، واعْلَمْ أني إنما قتلتُ الوليدَ لِفسْقِهِ، ولما أظْهَرَ من الجَوْرِ، فلا ينبغي لك أنْ تَرْكبَ مثلَ ما قتلناهُ عليه، فَدَخَلَ على يزيدَ بنِ الوليدِ يَزيدُ ابنُ حجرةَ الغسانيُّ، وكان دَيِّناً فاضلاً، ذا قَدْرٍ في أهْلِ الشامِ، قد قاتلَ الوليدَ دِيانةً، فقال: يا أمير المؤمنين، أَوَلَّيْتَ منصوراً العراقَ؟ قال: نعم، لبلائِهِ وحُسْنِ مَعُونَتِهِ، قال: يا أميرَ المؤمنينَ، إنه ليسَ هناك في أعرابيته وجفائهِ في الدِّينِ! قال: فإذا لم أوَلِّ منصوراً في حُسْنِ مُعَاونتهِ، فَمَنْ أُوَلِّي؟ قال: تُولِّي رَجُلا من أهْلِ الدِّينِ والصَّلاحِ، والوقوفِ عندَ الشُّبهاتِ، والعِلْمِ بالأحكامِ والحُدودِ! ومالي لا أرَى أحداً من قَيْسٍ يَغْشَاكَ، ولا يقفُ ببابك! قال: لولا أنه ليسَ منْ شَأني سَفْكُ الدِّماء، لَعاجَلْتُ قَيْساً، فواللهِ ما عَزَّتْ إلَّا ذَلَّ الإسْلامُ »!!

(١) انظر الوليد بن يزيد عرض ونقد ص : ٤٧٦.

(٢) تاريخ الطبري ٧ : ٢٧٠.

(٣) « اسْتِفْراغُ مَرْوانَ الثَّاني لِعَهْدِه في مُحَارَبَةِ خُصُومِه »

واسْتَوْلى مروانُ بنُ محمدٍ على الخلافةِ بالقُوَّةِ، فإنه اغْتَصَبَها من إبراهيمَ ابنِ الوليدِ اغْتِصاباً، ثم حَارَبَ كلَّ مَنْ خالفَهُ من أمراءِ بني أميَّةَ، وقَتَلَ بعضَ مَنْ ثارَ عليه منهم، وفتكَ بكثيرٍ مِمَّنْ أيَّدهم [1]. ونَبَذَ القَدَرِيَّةَ واضْطَهدَهم، وكان يكْرَهُهم كُرْهاً شديداً، إذْ يقولُ في رِسالتهِ التي كَتَبَها إلى الغَمْرِ بنِ يزيدَ، يُحَرِّضُهُ على الأَخْذِ بثأرِ أخيهِ الوليدِ بن يزيدَ [2]: « لم أُشْبِهْ محمداً ولا مروانَ [3]، إنْ لم أُشمِّرْ للقَدريَّةِ إزاري، وأَضْرِبْهُمْ بِسَيْفي جارِحاً وطاعناً، يَرْمي قَضَاءُ الله بي في ذلكَ حيثُ أَخذَ، أَوْ يَرْمي بهم في عُقُوبةِ الله حيثُ بلغَ منهم فيها رِضَاهُ ». وقارع الخوارجَ الذين سَيْطَرُوا على مِكةَ والمدينةَ، وتَعَقَّبهم في اليَمنِ، ودَمَّرَهم تَدْميراً [4]، ونَاجَزَ الخوارجَ في الجزيرةِ والعراقِ، وطَحَنهم طَحْناً [5]. وطاردَ عبدَالله بنَ معاويةَ الطَّالبيَّ ومَن انضمَّ إليه من الشِّيعةِ بالكوفةِ [6]. وكافحَ دُعاةَ بني العباس، وسَجَنَ الإمامَ

---

(١) انظر الوليد بن يزيد عرض ونقد ص : ٤٦٩.

(٢) تاريخ الطبري ٧ : ٢٨١.

(٣) محمد أبوه، ومروان جده.

(٤) أنساب الأشراف المخطوط ٢ : ٣٧٣، وتاريخ الطبري ٧ : ٣٤٨، ٣٩٤، والعيون والحدائق ٣ : ١٦٧، والأغاني ٢٣ : ٢٤٧، والكامل في التاريخ ٥ : ٣٩١.

(٥) أنساب الأشراف المخطوط ٢ : ٣٥٩، وتاريخ الطبري ٧ : ٣٤٤، ٣٤٩، ٣٥٨، والعيون والحدائق ٣ : ١٥٧، والكامل في التاريخ ٥ : ٣٤٨، ٣٥٠.

(٦) تاريخ الطبري ٧ : ٣٠٢، ومقاتل الطالبيين ص : ١٦٥، والكامل في التاريخ ٥ : ٣٢٤.

إبراهيمَ بنَ محمدٍ، ثم قَتَلَهُ، وحاصَرَ أهْلَ بَيْتِهِ وأخافَهم [1] حتى أظْهَرُوا دَعْوتَهم، وأعْلَنُوا ثَوْرتَهم، وأقامُوا دَوْلَتهم.

فكانت أيَّامُهُ فِتَناً مُتواليةً، وحُروباً مُتَتابعةً، حُظِرَ فيها التَّفكيرُ، ومُنِعَ الجِوارُ، وجُرِّدَ السَّيْفُ، وكَثُرَ القَتْلُ ! ولم يَزَلْ يُحامي على مُلكِهِ حتى قَتَلَهُ قادةُ بني العَبَّاسِ بقَرْيةِ بُوصِير من صَعيد مِصْرَ [2]، وبِقَتْلِهِ انْقَرضَت الدَّوْلةُ الأُمويَّةُ.

(٤) « خُلاصةٌ وتَعْقيبٌ »

ويَظْهرُ مِمَّا سَلَفَ أنَّ المَرْحَلَةَ الأمويَّة الأخيرَةَ كانت مُضْطَرِبَةً كثيرة الفِتَنِ والحُروبِ، فقد دَبَّ الشقاقُ بينَ أمراءِ الأُسْرةِ الأمويَّةِ، واسْتَحْكَمتِ البَغْضَاءُ في نُفُوسِهِم، وتَمكنتِ العَداوةُ من قُلُوبهم، وأصْبَحُوا أحْزاباً مُتقاتلةً، فَتَصدَّعَتْ وحْدَتهُم، وضَعُفَتْ مكانَتهم، وذَهَبَتْ هَيْبتهُم [3]. وكَثُرَ المُتَربِّصُون بهم، من القَدريَّة والشِّيعةِ والخوارجِ والعباسيِّينَ. واسْتَطارتِ العَصَبيَّةُ القبليَّةُ بينَ العربِ في الأمْصارِ المُخْتلفةِ، وثارَتْ بين القَيْسيَّةِ واليَمانيَّةِ منهم خاصةً [4] واغْتَنَمَ خُصومُهم تَفَرُّقَهم وتَمزُّقَهم، فأعْلنُوا الحَرْبَ

---

(١) أخبار الدولة العباسية ص : ٣٨٧، وأنساب الأشراف ٣ : ١٢١، وتاريخ الطبري ٧ : ٤٣٥، والكامل في التاريخ ٥ : ٤٢٢.

(٢) أنساب الأشراف ٣ : ١٠٤، وتاريخ اليعقوبي ٢ : ٣٥١، وتاريخ الطبري ٧ : ٤٤٢، وتاريخ الموصل ص : ١٣٧، ومروج الذهب ٣ : ٢٧١، والأغاني ٤ : ٣٤٣، والإمامة والسياسة ٢ : ١٤٤، والبدء والتاريخ ٦ : ٧٣، والعيون والحدائق ٣ : ٢٠٤، والكامل في التاريخ ٥ : ٤٢٤، وشرح نهج البلاغة ٧ : ١٣١، والفخري في الآداب السلطانية ص : ١٣١، والبداية والنهاية ١٠ : ٤٦، والنجوم الزاهرة ١ : ٣١٧، وتاريخ الخلفاء ص : ٢٥٥.

(٣) انظر الوليد بن يزيد عرض ونقد ص : ٤٦٦، ٤٧٥.

(٤) انظر الوليد بن يزيد عرض ونقد ص : ٤٧٦، ٤٩٤.

عليهم، وحَاوَلوا التَّطْويحَ بهم، فتصدَّى بنو أمية لهم، وبَطَشوا بمن أقتَدَرُوا عليه منهم، ولكنهم عَجَزُوا عن القَضَاءِ على الجُيُوشِ العَباسيَّة المُتدفِّقةِ من خُراسانَ، لِكَثْرتها وقُوَّتها وبَسالتِها، فَهَزَمتهم وأسْقَطَتْ دَوْلَتهم [1].

وعلى ما سادَ المَرْحلة الأمويّة الأخيرة من تَفكُّكٍ وتَنازُعٍ وتَقاتُلٍ، فإنَّها شهِدَتْ ظاهِرتيْنِ مُهِمَّتيْنِ : الأُولى شَرْحُ الوليد بن يزيد بن عبدِ الملكِ لِنظريةِ الأمويِّينَ في الخلافةِ وَوِلايةِ العَهْدِ وما قامتْ عليه من مَذْهبِ الجَبْرِ، واسْتِعانَتُهُ في تَوْضيحها والاحْتجاجِ لها بالآيات القرآنيةِ التي وَرَدَ فيها ذِكْرُ الخلافةِ وطاعةِ أُولي الأَمْرِ، وحَمْلُهُ لها على تأْييدِ حَقِّ الأُمويِّينَ في المُلْك.

والثانية تبشيرُ يزيد بنِ الوليد بن عبدِ الملكِ بإحياءِ مَبْدَإِ الشُّورى في الخلافةِ، ودَعْوَتُهُ إلى العَملِ بالكتابِ والسُّنَّةِ، وتَعَهُّدُهُ بالصُّدورِ عن رأي الجماعةِ في كلِّ أُمورِ الأُمَّةِ، وفَوْزُهُ بالخلافة بما رَفَعَ من شِعاراتٍ إصْلاحيَّة. ولكنه تأثر العصبيَّةَ القَبَليةَ بينَ القَيْسيَّةِ واليمانيةِ، وكانت الظروفُ السياسيَّةُ متأزمةً في أيامهِ، فلم يتمكنْ من تَحْقيقِ ما نَادى به.

---

(١) انظر الوليد بن يزيد عرض ونقد ص : ٤٩٤، ٥٠٩.

« خاتمة »

طَلَبَ الأُمويُّونَ الخلافةَ، وسَعَوْا حتى أدْرَكوها، وظَلُّوا يُحاربُونَ كلَّ مَنْ يُنَازِعهم فيها ويَقْتُلونه إلى آخرِ أيّامهم. وقد أشَاعُوا في أوَّلِ الأمْرِ أنَّ قَضِيتهم هي الأَخْذُ بثأرِ عثمانِ، والاقتصاصُ من قَتَلتِهِ، لأنهم أقرباؤهُ وأولياءُ دَمِهِ. فلما ظَفِرُوا بالخلافةِ وغلبوُا عليها، ادَّعوْا أنها حقٌّ لهم، وأنهم وَرِثوها عن عثمانَ. ثم تَعلَّقُوا بِمذْهَبِ الجَبْرِ في الخلافةِ، وأعْلَنُوا أنَّ الله اختارهم لِحكْمِ المسلمينَ، وعَوَّلُوا على ذلك لِتَقْريرِ حقهم في الخلافةِ، وتَسْويغِ تَعْيِينهم لأولياءِ عُهُودهم.

وعلى أنَّ الأُمَويِّينَ من قُرَيشٍ، بل من أكبر أُسَرِها وأشْهرِها، فإنَّهم ابْتَعَدُوا عن نَظَرِيَّةِ أهْلِ السُّنَةِ والجماعة في الخلافةِ، على كثرة ما رُوِيَ فيها من أخبارٍ وأحاديث في زَمانِهم، وهي أنَّ الخلافةَ لا تَصْلُحُ إلَّا في قريشٍ، وأنَّ شَرْطَ النّسبِ والقُرَشيَّةِ لا بُدَّ أنْ يجتمعَ فيمنْ يتولَّى الخلافةَ. وسببُ ذلك أنهم لم يستطيعُوا الانتفاعَ بها، فإنهم لم يكونوا من أهْلِ السَّابقةِ والقُدْمةِ في الإسْلامِ، ولا من المُهاجرينَ الأوَّلينَ، بل كانوا ممنْ عادَى الإسْلامَ، وحاربَ الرسولَ، ولم يَدْخُلُوا في الإسْلامِ إلَّا بعدَ فَتْحِ مكةَ، ثم اغْتصبُوا الخلافةَ من المسلمينَ الأوَّلينَ، فأعْرضُوا عن نَظريةِ أهْلِ السُّنَّةِ والجماعةِ في الخلافةِ، ونَهَوْا أهْلَ الشامِ عن رواية المغازي والسِّيرِ وتاريخ صَدْرِ الإسْلامِ، لانَّ فيها إزْراءً بهم، وإعْلاءً لِغَيْرِهم !!

وصَدَرَ الأمويُّونَ في مَوْقِفهم من خُصُومهم عن مَبْدأينِ : الأوَلُ أنهم كانوا يُكافِحُونَ العِصْيانَ والتَّمرُّدَ والمُشاطرةَ في الحُكْمِ واسْتِلابَ المُلْكِ،

ولا يَعْفُونَ عن شيءٍ منها، بل يُعاقِبونَ عليه، ويَقْتُلونَ به. والثاني أنهم كانوا يَقْبلُونَ النَّقْدَ النَّظريَّ لِخلافتهم وسِيَاستِهم، ويتغافلُونَ عنه، على أَنْ لا يَتضمَّنَ التَّحْريضَ عليهم، ولا يَقْتَرِنَ بالعملِ السِّرِّيِّ ولا العَلنيِّ لانْتزاعِ المُلْكِ منهم. وكانوا يتفاوَتُون في الحِلْمِ عن خُصُومهم، فمنهم مَنْ كان يَسَعُهم، ويَصْفَحُ عنهم، ومنهم مَنْ كان يَضيقُ بهم، ويتسلَّطُ عليهم.

والْتَزموا هذين المَبدأينِ، ولم يَحِيدُوا عنهما، وكانوا يُرَاوِحُونَ بينهما تبعاً للظُّروفِ السياسيةِ التي كانت تَتَقلَّبُ بينَ الاضطِرابِ والانفجارِ، وبين الهدوءِ والاسْتِقرارِ. وكان مَيْلهم إلى الأخْذِ بالمَبْدإِ الأوَّلِ قوياً صارماً في بدايةِ دَوْلتهم، ثم جعل يَقِلُّ ويتضاءَلُ في خاتمة القَرْن الأوَّلِ وفاتحةِ القَرْنِ الثاني، ثم اشْتَدَّ واسْتَفْحَلَ في نهايةِ دَوْلتهم. وكان مَيْلُهم إلى الأخْذِ بالمَبْدَإِالثاني ضعيفاً قليلاً في صَدْرِ خِلافتهم، ثم اتَّسَعَ وعَظُمَ بعدَ ذلك، ثم خَفَّ وتوقَّف في آخر خِلافتهم.

وسببُ ذلك أنَّ الحِقْبَةَ الأُولى من حُكْمِهم اسْتُنْفِدَتْ في تَأْسيسِ سُلْطانهم وتَشْييدِه، ومُقَارعةِ المُخالفينَ له، ومُجالدةِ الطَّامعينَ فيه، وأنَّ الحِقْبة الأخيرةَ منه اسْتُغرِقَتْ في الذَّبِ عنه والمحافظةِ عليه. ولذلك كان الأُمَويُّونَ المُتَقدِّمونَ والمتأخِّرُونَ حازِمينَ مُتصلِّبين، ومُتَزَمِّتين مُتعصِّبينَ، لا يُطيقُونَ أنْ يُنَاظِرَهم أحَدٌ في الخلافة، فأغْلَقُوا بابَ الجَدَلِ فيها، وتَحَامَلُوا على كُلِّ مَنْ تَصَدَّى لهم، وقَاتَلُوا كُلَّ مِنْ خرجَ عليهم.

وأمَّا الحِقْبةُ الوُسْطى منه فهي التي ثَبَتَ فيها سُلْطانهم، وتَوَطَّدَتْ أرْكانُهُ، وعَلَا بُنْيانُهُ، وهي التي قَوِيَتْ فيها المفاهيمُ الإسْلاميةُ وسَادَتْ. ولذلك اهْتَمَّ الأُمويُّونَ فيها بِحَلِّ المشكلاتِ المتراكمةِ المتفاقمة، وجَنَحُوا إلى مُسالمةِ خُصُومِهم ومُوَادعتهم، ومالُوا إلى مُحَاورِتهم ومناقَشَتِهم، وحاولوا إقناعهم بالحجةِ والبَيِّنةِ، لعلهم يَسْتَميلونَ مَودَّتهم، ويَسْتَنْبِطون طاعَتَهم.

ولكنَّ أسْمح الأمويينَ نَفْساً، وأرْجَحَهم عَقْلاً، وأنْضَجَهم فِكْراً، وأوْسَعَهم حِيلةً إنما كان يَتَقَبَّلُ من خُصُومِه أنْ يُجاذِبُوهُ أطْرافَ الحديثِ في مسألةِ الخلافةِ، وأن يَسْألُوهُ إصْلاحَ بعضِ الأخطاءِ، لِتثبيتِ مُلْكِ الأُمَوِيِّنَ وتَرْسيخِهِ، فإذا جاوزوا ذلك إلى الحديثِ عن الشُّورَى في الخلافةِ، وأنها تَصْلُحُ لجميعِ المسلمينَ، وأنها يصحُّ أنْ تَخْرُجَ من الأمويِّن إلى غيرهم، كَفَّ عن الاسْتماعِ إليهم، وحكَّمَ السَّيْفَ بَيْنَهُ وبَيْنَهم ! وحتى مَنْ دعا منهم إلى الأصْلاحِ، وبَدأَ به مِثْلُ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ، أو مَنْ نادى منهم باتِّباعِ مَبْدإِ الشُّورَى في الخلافةِ، وألْزَمَ نَفسهُ أنْ يَعْمَلَ به مثلُ يزيدَ بنِ الوليدِ، لم يَصْنَعْ شيئاً، بل عَقَدَ العَهْدَ لاثنينِ من حَفَدةِ عبدِ الملكِ بنِ مروانَ ! !

وكان الفُقهاءُ الشَّاميُّونَ الذين يَلُونَ بعضَ الأعمالِ للأمويِّنَ، أو يَنْزِلُونَ منهم بِمَنْزِلةِ الوزراءِ والمُسْتَشارينَ مُتَشَدِّدينَ غير مُتَسامِحينَ في مَوَاقِفهم من الجماعاتِ المعارضةِ، فكانوا يَتَطرَّفُونَ في مُهاجمتها، ويُفْتُونَ بتكفيرِها ! وكان الفقهاءُ الذين لا يعملونَ معهم مُعْتدلينَ مُتَّزنينَ في مَوَاقفهم منها، فكانوا يَعْطفُونَ عليها، ويَتَّصلُونَ بها، وكانوا يَرْتَضُونَ بعضَ آرائها الدينيةِ، ويؤيِّدونَ بعضَ أفكارِها السياسيَّةِ، ولكنهم كانوا صامتينَ متكتِّمينَ، لأنهم كانوا يَخْشَوْنَ السِّجْنَ والتنكيلَ، ويَخافونَ القَتْلَ والتَّمْثيلَ.

وكان معظم أهْلِ الشامِ يُشايِعُونَ خُلفَاءَهم، ويُتَابِعُونَ فُقهاءَهم، بل لقد كانوا أخْلَصَ الناسِ للأُمَويِّنَ، وأصْدَقَهم وَلاءً لهم، حتى ضُرِبَ المثَلُ بِطاعتهم، لأنَّ الدولةَ كانت دَوْلَتهم، فكانت تَرْفَعُهم على أهْلِ الأمصارِ الأخرى، وتَخُصُّهم بِفَوائدَ شتَّى. ولذلك نَاهَضُوا كلَّ مَنْ خَالَفَهم من القَدَرِيَّةِ ومُرْجئةِ الجَبْرِيَّةِ والزُّبَيْرِيِّنَ والخوارجِ والعَلَويِّنَ والعَبَّاسيِّنَ، ورَفَضُوا مبادئهم السياسيَّةَ، وأنكرُوا شِعاراتِهم الإصْلاحيَّةَ، وقَاتَلُوهم بِشدَّةٍ، ونَافَحُوا عن سُلْطانِ الأُمويِّنَ بِقُوَّةٍ !

« المصادر والمراجع ».

(أ) المصادر والمراجع المطبوعة :

١ ــ **ابن الأثير** : أبو الحسن، علي بن محمد (ــ ٦٣٠ هـ) ــ (١) أسد الغابة في معرفة الصحابة ــ نشر المكتبة الإسلامية ببيروت ــ (٢) الكامل في التاريخ ــ طبع دار صادر ببيروت ١٩٧٩.

٢ ــ **إحسان عباس** : الحسن البصري ــ نشر دار الفكر العربي ١٩٥٢.

٣ ــ **أحمد زكي صفوت** : جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهية ــ طبع مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ١٩٣٣.

٤ ــ **أحمد الشايب** : تاريخ الشعر السياسي ــ طبع مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة ١٩٦٦.

٥ ــ **أحمد صالح العلي** : محاضرات في تاريخ العرب قبل الإسلام ــ طبع بغداد ١٩٥٩.

٦ ــ **الأحوص** : عبد الله بن محمد بن عبد الله الأنصاري (ــ ١١٠ هـ) ــ شعره ــ جمعه وحققه إبراهيم السامرائي ــ طبع مكتبة الأندلس ببغداد ١٩٦٩.

٧ ــ **الأخطل** : غياث بن غوث التغلبي (ــ ٩٢ هـ) ــ ديوانه ــ نشر الأب أنطون صالحاني اليسوعي ــ طبع المطبعة الكاثوليكية ببيروت ١٨٩١.

٨ ــ **الأزدي** : يزيد بن محمد بن إياس (ــ ٣٣٤ هـ) ــ تاريخ الموصل ــ تحقيق الدكتور علي حبيبة ــ طبع المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة ١٩٦٧.

٩ ــ **الأسدي** : الكميت بن زيد (ــ ١٢٦ هـ) ــ هاشميات الكميت ــ شرح محمد محمود الرافعي ــ طبع شركة التمدن الصناعية بالقاهرة ١٩١٢.

١٠ ــ **الأشعري** : أبو الحسن، علي بن إسماعيل (ــ ٣٣٠ هـ) ــ مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين ــ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد طبع مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة ١٩٥٠.

١١ ــ **البخاري** : محمد بن إسماعيل بن إبراهيم (ــ ٢٥٦ هـ) ــ (١) التاريخ الكبير ــ طبع حيدر آباد الدكن ١٣٦١ هـ ــ (٢) صحيح البخاري ــ طبع المطبعة الأميرية ببولاق ١٣١٥ هـ.

١٢ ــ **البغدادي** : أحمد بن علي بن ثابت (ــ ٤٦٣ هـ) ــ تاريخ بغداد ــ طبع مكتبة الخانجي بالقاهرة ١٩٣١.

١٣ ــ **البغدادي** : عبد القادر بن عمر (ــ ١٠٩٣ هـ) ــ خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب ــ طبع المطبعة الأميرية ببولاق ١٢٩٩ هـ.

١٤ ــ **البغدادي** : أبو منصور، عبد القاهر بن طاهر (ــ ٤٢٩ هـ) ــ الفرق بين الفرق ــ تحقيق طه عبد الرؤوف سعد ــ نشر مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع بالقاهرة.

١٥ ــ **ابن بكار** : الزبير (ــ ٢٥٦ هـ) ــ الأخبار الموفقيات ــ تحقيق الدكتور سامي مكي العاني ــ طبع مطبعة العاني ببغداد ١٩٧٢.

١٦ ــ **البلاذري** : أحمد بن يحيى بن جابر (ــ ٢٧٩ هـ) ــ (١) أنساب الأشراف ــ القسم الثالث: العباس بن عبد المطلب وولده ــ تحقيق الدكتور عبد العزيز الدوري ــ طبع بيروت ١٩٧٨ ــ (٢) أنساب الأشراف ــ الجزء الرابع، القسم الأول ــ أعده شلوسنجر ودققه وعلق عليه كستر ــ طبع القدس ١٩٧١ ــ (٣) أنساب الأشراف ــ الجزء الرابع، القسم الثاني ــ اعتنى بنشره شلوسنجر ــ طبع القدس ١٩٣٨ ــ (٤) أنساب الأشراف ــ الجزء الخامس ــ اعتنى بنشره غويتن ــ طبع القدس ١٩٣٦.

١٧ ــ **التبريزي** : أبو زكريا، يحيى بن علي (ــ ٥٠٢ هـ) ــ شرح ديوان الحماسة ــ طبع المطبعة الأميرية ببولاق ١٢٩٦ هـ.

١٨ ــ **ابن تغري بردي** : أبو المحاسن يوسف (ــ ٨٧٤ هـ) ــ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ــ طبع دار الكتب المصرية بالقاهرة.

١٩ ــ **الجاحظ** : أبو عثمان، عمرو بن بحر بن محبوب (ــ ٢٥٥ هـ) ــ (١) البيان والتبيين ــ حققه وشرحه حسن السندوبي ــ طبع المطبعة الرحمانية بمصر ١٩٣٢ ــ (٢) رسائل الجاحظ ــ جمعها ونشرها حسن السندوبي ــ طبع المطبعة الرحمانية بمصر ١٩٣٣ ــ (٣) رسائل الجاحظ ــ تحقيق عبد السلام هارون ــ نشر مكتبة الخانجي بمصر ١٩٦٥.

٢٠ ــ **جواد علي** : المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ــ طبع دار العلم للملايين ببيروت ١٩٧٦.

٢١ ــ **ابن الجوزي** : أبو الفرج، عبد الرحمن بن علي (ــ ٥٩٧ هـ) ــ سيرة عمر ابن عبد العزيز ــ طبع مطبعة الإمام بمصر.

٢٢ ــ **ابن أبي حاتم الرازي** : محمد بن عبد الرحمن (ــ ٣٢٧ هـ) ــ الجرح والتعديل ــ طبع حيدر آباد الدكن ١٩٥٢.

٢٣ ــ **ابن حجاج القشيري** : مسلم (ــ ٢٦١ هـ) ــ صحيح مسلم ــ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ــ طبع عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر.

٢٤ ــ **ابن حجر العسقلاني** : أحمد بن علي (ــ ٨٥٢ هـ) ــ (١) الإصابة في تمييز الصحابة ــ طبع مطبعة السعادة بمصر ١٣٢٨ هـ ــ (٢) لسان الميزان ــ طبع حيدر آباد الدكن ١٣٣٠ هـ.

٢٥ ــ **ابن أبي الحديد** : أبو حامد هبة الله بن محمد (ــ ٦٥٥ هـ) ــ شرح نهج البلاغة ــ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ــ طبع عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر.

٢٦ ــ **ابن حزم** : أبو محمد، علي بن سعيد (ــ ٤٥٦ هـ) ــ جمهرة أنساب العرب ــ تحقيق عبد السلام هارون ــ طبع دار المعارف بمصر ١٩٦٢.

٢٧ ــ **حسين عطوان** : (١) الشعراء من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية ــ طبع دار الجيل ببيروت ١٩٧٥ ــ (٢) الوليد بن يزيد عرض ونقد ــ طبع دار الجيل ببيروت ١٩٨١.

٢٨ ــ **ابن أبي حفصة** : مروان (ــ ١٨٢ هـ) ــ شعره ــ جمعه وحققه حسين عطوان ــ طبع دار المعارف بمصر ١٩٧٣.

٢٩ ــ **ابن حنبل** : أحمد بن محمد (ــ ٢٤١ هـ) ــ مسند الإمام أحمد بن حنبل ــ طبع المكتب الإسلامي للطباعة والنشر ببيروت.

٣٠ ــ **أبو حنيفة الدينوري** : أحمد بن داود (ــ ٢٨٢ هـ) ــ الأخبار الطوال ــ تحقيق عبد المنعم عامر ــ طبع عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر ١٩٦٠.

٣١ ــ **الخزاعي** : كثير بن عبد الرحمن (ــ ١٠٥ هـ) ــ ديوانه ــ جمعه وشرحه إحسان عباس ــ نشر دار الثقافة ببيروت ١٩٧١.

٣٢ ــ **الخطفي** : جرير بن عطية (ــ ١١٤ هـ) ــ ديوانه ــ تحقيق نعمان محمد أمين طه ــ طبع دار المعارف بمصر ١٩٧١.

٣٣ ــ **ابن خلكان** : أحمد بن محمد بن أبي بكر (ــ ٦٨١ هـ) ــ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ــ تحقيق الدكتور إحسان عباس ــ طبع دار صادر ببيروت.

٣٤ ــ **ابن خياط** : خليفة بن خياط العصفري (ــ ٢٤٠ هـ) ــ تاريخ خليفة بن خياط ــ تحقيق سهيل زكار ــ طبع وزارة الثقافة بدمشق ١٩٦٨.

٣٥ ــ **الذهبي** : أبو عبد الله، محمد بن أحمد بن عثمان (ــ ٧٤٨ هـ) ــ (١) تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام ــ نشر مكتبة القدسي بالقاهرة ــ (٢) تذكرة الحفاظ ــ طبع حيدر آباد الدكن ١٩٥٦ ــ (٣) العبر في خبر من غبر ــ تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد ــ طبع الكويت ١٩٦٠ ــ (٤) ميزان الاعتدال في نقد الرجال ــ تحقيق محمد على البجاوي ــ طبع عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر ١٩٦٣.

٣٦ ــ **ابن رباح** : نصيب (ــ ١٠٨ هـ) ــ شعره ــ جمعه داود سلوم ــ نشر مكتبة الأندلس ببغداد ١٩٦٨.

٣٧ ــ **الزبيري** : أبو عبد الله، المصعب بن عبد الله (ــ ٢٣٦ هـ) ــ نسب قريش ــ عني بنشره ليفي بروفنسال ــ طبع دار المعارف بمصر ١٩٧٦.

٣٨ ــ **الزمخشري** : أبو القاسم، محمود بن عمر (ــ ٥٣٨ هـ) ــ أساس البلاغة ــ طبع مطابع الشعب بالقاهرة ١٩٦٠.

٣٩ ــ **السجستاني** : أبو حاتم، سهل بن محمد (ــ ٢٥٥ هـ) ــ كتاب المعمرين والوصايا ــ تحقيق عبد المنعم عامر ــ طبع عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر ١٩٦١.

٤٠ ــ **ابن سعد** : محمد بن سعد بن منيع (ــ ٢٣٠ هـ) ــ الطبقات الكبرى ــ طبع دار صادر ببيروت ١٩٥٨.

٤١ ــ **ابن سلام** : أبو عبد الله محمد بن سلام الجمحي (ــ ٢٣١ هـ) ــ طبقات فحول الشعراء ــ قرأه وشرحه محمود محمد شاكر ــ طبع مطبعة المدني بالقاهرة.

٤٢ ــ **السيوطي** : عبد الرحمن بن أبي بكر (ــ ٩١١ هـ) ــ (١) تاريخ الخلفاء ــ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ــ طبع مطبعة المدني بالقاهرة

١٩٦٤ ــ (٢) شرح شواهد المغني ــ طبع لجنة التراث العربي بدمشق ١٩٦٦.

٤٣ ــ **شاكر الفحام** : الفرزدق ــ طبع دار الفكر العربي بدمشق ١٩٧٧

٤٤ ــ **ابن شاكر الكتبي** : محمد بن شاكر بن أحمد (ــ ٧٦٤ هـ) ــ فوات الوفيات ــ تحقيق الدكتور إحسان عباس ــ طبع دار الثقافة ببيروت.

٤٥ ــ **الشهرستاني** : أبو الفتح محمد بن عبد الكريم (ــ ٥٤٨ هـ) ــ الملل والنحل ــ تخريج محمد بن فتح الله بدران ــ طبع مكتبة الأنجلو المصرية بالقاهرة ١٩٥٦.

٤٦ ــ **شوقي ضيف** : (١) تاريخ الأدب العربي ــ العصر الجاهلي ــ طبع دار المعارف بمصر ١٩٦١ ــ (٢) تاريخ الأدب العربي ــ العصر الإسلامي ــ طبع دار المعارف بمصر ١٩٦٣.

٤٧ ــ **الشيباني** : النابغة ــ ديوانه ــ طبع دار الكتب المصرية بالقاهرة ١٩٣٢.

٤٨ ــ **الشيرازي** : إبراهيم بن علي بن يوسف (ــ ٤٧٦ هـ) ــ طبقات الفقهاء ــ تحقيق الدكتور إحسان عباس ــ طبع دار الرائد العربي ببيروت ١٩٧٢.

٤٩ ــ **الطبري** : محمد بن جرير (ــ ٣١٠ هـ) ــ تاريخ الرسل الملوك ــ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ــ طبع دار المعارف بمصر.

٥٠ ــ **ابن الطقطقي** : محمد بن علي بن طباطبا (ــ ٧٠٩ هـ) ــ الفخري في الآداب السلطانية ــ طبع دار المعارف بمصر ١٩٢٣.

٥١ ــ **ابن عبد البر** : يوسف بن عبد الله بن محمد (ــ ٤٦٣ هـ) ــ الاستيعاب في معرفة الأصحاب ــ تحقيق علي محمد البجاوي ــ طبع مكتبة نهضة مصر.

٥٢ ــ **ابن عبد الحكم** : أبو محمد عبد الله (ــ ٢١٤ هـ) ــ سيرة عمر بن عبد العزيز ــ صححها وعلق عليها أحمد عبيد ــ طبع دار العلم للملايين ببيروت ١٩٦٧.

٥٣ ــ **ابن عبد ربه** : أحمد بن محمد (ــ ٣٢٨ هـ) ــ العقد الفريد ــ طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة.

٥٤ ــ **عبد العزيز الدوري** : (١) الجذور التاريخية للشعوبية ــ طبع دار الطليعة

بيروت ١٩٦٢ (٢) مقدمة في تاريخ صدر الإسلام ــ طبع المطبعة الكاثوليكية ببيروت ١٩٦١ ــ (٣) مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي ــ طبع دار الطليعة ببيروت ١٩٦٩ ــ (٤) نظام الضرائب في صدر الإسلام ــ مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٧٤.

٥٥ ــ **أبو عبيدة** : معمر بن المثنى (ــ ٢١٣ هـ) ــ نقائض جرير والفرزدق ــ تحقيق بيفان ــ طبع ليدن ١٩٠٥.

٥٦ ــ **العجاج** : عبد الله بن رؤبة بن عبد الله التميمي (ــ ٩٧ هـ) ــ ديوانه ــ تحقيق الدكتور عزة حسن ــ طبع مكتبة دار الشرق ببيروت ١٩٧١.

٥٧ ــ **ابن العجاج** : رؤبة (ــ ١٤٥ هـ) ــ ديوانه ــ اعتنى بنشره وليم بن الورد البروسي ــ طبع ليبسغ ١٩٠٣.

٥٨ ــ **ابن عساكر** : أبو القاسم علي بن الحسن (ــ ٥٧١ هـ) ــ (١) تاريخ دمشق ــ المجلدة الأولى ــ تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد ــ طبع المجمع العلمي العربي بدمشق ١٩٥١ ــ (٢) تاريخ دمشق ــ حرف العين من عاصم إلى عائذ ــ تحقيق الدكتور شكري فيصل ــ طبع مجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٧٦ ــ (٣) تهذيب تاريخ ابن عساكر ــ طبع دار المسيرة ببيروت ١٩٧٩.

٥٩ ــ **العسكري** : أبو هلال، الحسن بن عبد الله بن سهل (ــ ٣٩٥ هـ) ــ كتاب الأوائل ــ تحقيق محمد السيد الوكيل ــ طبع المدينة المنورة ١٩٦٦.

٦٠ ــ **ابن العماد الحنبلي** : أبو الفلاح عبد الحي (ــ ١٠٨٩ هـ) ــ شذرات الذهب في أخبار من ذهب ــ طبع المكتب التجاري للطباعة والنشر ببيروت.

٦١ ــ **العيني** : محمود بن أحمد (ــ ٨٥٥ هـ) ــ شرح الشواهد الكبرى، بهامش خزانة الأدب للبغدادي ــ طبع المطبعة الأميرية ببولاق ١٢٩٩ هـ.

٦٢ ــ **فان فلوتن** : السيادة العربية والشيعة والاسرائيليات في عهد بني أمية ــ ترجمة الدكتور حسن إبراهيم ومحمد زكي إبراهيم ــ طبع مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة ١٩٦٥.

٦٣ ــ **أبو الفرج الأصفهاني** : علي بن الحسين (ــ ٣٥٦ هـ) ــ (١) كتاب

الأغاني ـــ طبع دار الكتب المصرية بالقاهرة ـــ (٢) مقاتل الطالبيين ـــ تحقيق السيد أحمد صقر ـــ طبع عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر ١٩٤٩.

٦٤ ـــ **الفرزدق** : همام بن غالب (ـــ ١١٤ هـ) ـــ ديوانه ـــ طبع دار صادر ببيروت ١٩٦٦.

٦٥ ـــ **ابن الفقيه الهمداني** : أحمد بن محمد (توفي في النصف الأول من القرن الرابع الهجري) ـــ مختصر كتاب البلدان ـــ تحقيق دي خويه ـــ طبع ليدن ١٨٨٥.

٦٦ ـــ **أبو القاسم البلخي** : عبدالله بن أحمد (ـــ ٣١٩ هـ) والقاضي عبد الجبار (ـــ ٤١٥ هـ) ـــ والحاكم الجشمي (ـــ ٤٩٤ هـ) ـــ **فضل الاعتزال** وطبقات المعتزلة ـــ تحقيق فؤاد سيد ـــ طبع الدار التونسية للنشر ١٩٧٤.

٦٧ ـــ **القالي** : أبو علي، إسماعيل بن القاسم بن عيذون (ـــ ٣٥٦ هـ) ـــ كتاب ذيل الأمالي والنوادر ـــ طبع دار الكتب المصرية بالقاهرة ١٩٢٦.

٦٨ ـــ **ابن قتيبة** : أبو محمد، عبدالله بن مسلم (ـــ ٢٧٦ هـ) ـــ (١) الشعر والشعراء ـــ تحقيق أحمد محمد شاكر ـــ طبع دار المعارف بمصر ١٩٦٦ ـــ (٢) عيون الأخبار ـــ طبع دار الكتب المصرية بالقاهرة ١٩٢٥ ـــ (٣) المعارف ـــ تحقيق ثروت عكاشة ـــ طبع دار الكتب المصرية بالقاهرة ١٩٦٠.

٦٩ ـــ **القلقشندي** : أحمد بن عبدالله (ـــ ٨٢١ هـ) ـــ صبح الأعشى في صناعة الإنشا ـــ طبع دار الكتب المصرية بالقاهرة.

٧٠ ـــ **ابن كثير** : أبو الفداء إسماعيل بن عمرو (ـــ ٧٧٤ هـ) ـــ البداية والنهاية ـــ طبع مكتبة المعارف ببيروت ١٩٦٦.

٧١ ـــ **المبرد** : أبو العباس، محمد بن يزيد (ـــ ٢٨٥ هـ) ـــ الكامل ـــ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم والسيد شحاته ـــ طبع مكتبة نهضة مصر بالقاهرة ١٩٥٦.

٧٢ ـــ **مجهول** : من أهل المشرق من رجال القرن الثالث الهجري ـــ الإمامة والسياسة ـــ طبع مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ١٩٦٩.

٧٣ ـــ **مجهول** : من موالي العباسيين من رجال القرن الثالث الهجري ـــ أخبار

الدولة العباسية ــ **تحقيق الدكتور عبد العزيز الدوري والدكتور عبد الجبار المطلبي** ــ طبع دار الطليعة للطباعة والنشر ببيروت ١٩٧١.

٧٤ ــ مجهول : من رجال القرن الرابع ــ العيون والحدائق ــ اعتنى بنشره دي خويه ــ طبع ليدن ١٨٧١.

٧٥ ــ مجهول : نقائض جرير والفرزدق ــ عني بنشره الأب أنطون صالحاني اليسوعي ــ طبع المطبعة الكاثوليكية ببيروت ١٩٢٢.

٧٦ ــ محمد ضياء الدين الريس : عبد الملك بن مروان ــ طبع وزارة الثقافة بمصر ١٩٦٢.

٧٧ ــ ابن المرتضى : أحمد بن يحيى (ــ ٨٤٠ هـ) ــ طبقات المعتزلة ــ تحقيق سوسنة ديفلد فلزر ــ طبع المطبعة الكاثوليكية ببيروت ١٩٦١.

٧٨ ــ ابن مزاحم : نصر بن مزاحم المنقري (ــ ٢١٢ هـ) ــ وقعة صفين ــ تحقيق عبد السلام هارون ــ طبع المؤسسة العربية الحديثة بالقاهرة ١٣٨٢ هـ.

٧٩ ــ المسعودي : أبو الحسن، علي بن الحسين (ــ ٣٤٦ هـ) ــ (١) التنبيه والإشراف ــ طبع مكتبة الصاوي بالقاهرة ١٩٣٨ ــ (٢) مروج الذهب ومعادن الجوهر ــ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ــ طبع مطبعة السعادة بمصر ١٩٦٤.

٨٠ ــ مسكين الدارمي : ربيعة بن عامر (ــ ٨٩ هـ) ــ ديوانه ــ جمعه وحققه خليل إبراهيم العطية وعبدالله الجبوري ــ طبع بغداد ١٩٧٠.

٨١ ــ المقدسي : مطهر بن طاهر من رجال القرن الرابع الهجري ــ البدء والتاريخ ــ اعتنى بنشره كلمان هوار ــ طبع باريز ١٩١٦.

٨٢ ــ الملطي : أبو الحسين، محمد بن أحمد (ــ ٣٧٧ هـ) التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع ــ طبع مكتبة المثنى ببغداد ١٩٦٨.

٨٣ ــ ابن منظور : محمد بن مكرم الأنصاري (ــ ٧١١ هـ) ــ لسان العرب ــ طبع المطبعة الأميرية ببولاق.

٨٤ ــ ابن نباته المصري : جمال الدين (ــ ٧٦٨ هـ) ــ سرح العيون في شرح رسالة بن زيدون ــ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ــ نشر دار الفكر العربي بالقاهرة ١٩٦٤.

٨٥ ــ **ابن النديم** : محمد بن إسحاق (ــ ٣٨٥ هـ) ــ الفهرست ــ طبع دار المعرفة ببيروت.

٨٦ ــ **أبو نعيم الأصبهاني** : أحمد بن عبدالله (ــ ٤٣٠ هـ) ــ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ــ طبع دار الكتاب العربي ببيروت ١٩٦٧.

٨٧ ــ **ابن هرمة** : إبراهيم بن علي (ــ ١٧٦ هـ) ــ ديوانه ــ تحقيق محمد جبار المعيبد ــ طبع مطبعة الآداب بالنجف ١٩٦٩.

٨٨ ــ **اليافعي** : أبو محمد عبدالله بن أسعد (ــ ٧٦٨ هـ) ــ مرآة الجنان وعبرة اليقظان ــ طبع حيدر آباد الدكن ١٣٣٧ هـ.

٨٩ ــ **ياقوت الحموي** : أبو عبدالله، ياقوت بن عبدالله الرومي (ــ ٦٢٦ هـ) ــ (١) معجم الأدباء ــ اعتنى بنشره د. س. مرجوليوت ــ طبع مصر ١٩٢٣ ــ (٢) معجم البلدان ــ طبع دار صادر ببيروت ١٩٧٧.

٩٠ ــ **ابن يزيد** : الوليد بن يزيد بن عبد الملك (ــ ١٢٦ هـ) ــ شعره ــ جمعه وحققه حسين عطوان ــ طبع مكتبة الأقصى بعمان ١٩٧٩.

٩١ ــ **اليعقوبي** : أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر (ــ ٢٩٢ هـ) ــ تاريخ اليعقوبي ــ طبع دار صادر ببيروت ١٩٦٠.

٩٢ ــ **يوليوس فلهاوزن** : تاريخ الدولة العربية ــ ترجمة الدكتور محمد عبد الهادي أبو ريدة ــ طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة ١٩٥٨.

(ب) المصادر المخطوطة :

٩٣ ــ **البلاذري** : أحمد بن يحيى بن جابر (ــ ٢٧٩ هـ) ــ أنساب الأشراف ــ مصورة الجامعة الأردنية عن مخطوطة استانبول رقم ٥٩٧ ــ ٥٩٨.

٩٤ ــ **ابن شاكر الكتبي** : محمد بن شاكر بن أحمد (ــ ٧٦٤ هـ) ــ عيون التواريخ ــ مخطوطة المكتبة الظاهرية بدمشق رقم ٤٥ تاريخ.

٩٥ ــ **ابن عساكر** : أبو القاسم، علي بن الحسن (ــ ٥٧١ هـ) ــ تاريخ دمشق ــ مخطوطة المكتبة الظاهرية بدمشق رقم ٣٣٧٤ ــ ٣٣٨٢.